مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية علمية محكمة

تصدر عن قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الخامسة والثلاثون: العدد مائة وخمسة وثلاثون - ربيع الثاني ١٤٤٨هـ/ أكتوبر ٢٠٢٦م

تخميس القصيدة الوترية في مدح خير البرية

المؤلف: محمد بن عبد العزيز بن عبد الملك اللخمي حجة الدين ٧٥٧هـ

مكتبة الدولة – ألمانيا، رقم المصدر: Petermann_I_٦٤٦، عدد الأوراق: ٦٠ ق



Title: Takhmis al-Qasidah al-Watariyyah fi Madh Khayr al-Bariyyah

Author: Muḥammad ibn ʿAbd al-ʿAzīz ibn ʿAbd al-Malik al-Lakhmī, Ḥujjat al-Dīn (757 AH)

شروط النشر في المجلة

١ – أن يكون الموضوع المطروق متميّزًا بالجدّة والموضوعية والشمول والإثراء المعرفي، وأن يتناول أحد أمرين:

– قضية ثقافية معاصرة، يعود بحثها بالفائدة على الثقافة العربية والإسلامية، وتسهم في تجاوز المشكلات الثقافية.

– قضية تراثية علمية، تسهم في تنمية الزاد الفكري والمعرفي لدى الإنسان العربي المسلم، وتثري الثقافة العربية والإسلامية بالجديد.

٢ – ألاّ يكون البحث جزءًا من رسالة الماجستير أو الدكتوراه التي أعدّها الباحث، وألاّ يكون قد سبق نشره على أيّ نحوٍ كان، ويشمل ذلك البحوث المقدمة للنشر إلى جهة أخرى، أو تلك التي سبق تقديمها للجامعات أو الندوات العلمية وغيرها، ويثبت ذلك بإقرار بخط الباحث وتوقيعه.

٣ – يجب أن يُراعى في البحوث المتضمنة لنصوصٍ شرعية ضبطها بالشكل مع الدقّة في الكتابة، وعزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ – يجب أن يكون البحث سليمًا خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع مراعاة علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ – يجب اتّباع المنهج العلمي من حيث الإحاطة، والاستقصاء، والاعتماد على المصادر الأصيلة، والإسناد، والتوثيق، والحواشي، والمصادر، والمراجع، وغير ذلك من القواعد المرعية في البحوث العلمية، مع مراعاة أن تكون مراجع كلّ صفحة وحواشيها أسفلها.

٦ – بيان المصادر والمراجع العلمية ومؤلفيها في نهاية كلّ بحث مرتبة ترتيبًا هجائيًّا تبعًا للعنوان مع بيان جهة النشر وتاريخه.

٧ – أن يكون البحث مجموعًا بالحاسوب، أو مرقونًا على الآلة الكاتبة، أو بخطٍ واضح، وأن تكون الكتابة على وجهٍ واحد من الورقة.

٨ – على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن حياته العلميّة مبيّنًا، اسمه الثلاثي ودرجته العلمية، ووظيفته، ومكان عمله من قسم وكلية وجامعة، إضافةً إلى عنوانه وصورة شخصية ملونة حديثة.

٩ – يمكن أن يكون البحث تحقيقًا لمخطوطة تراثية، وفي هذه الحالة تتبع القواعد العلمية المعروفة في تحقيق التراث، وترفق بالبحث صور من نسخ المخطوط المحقّق الخطّية المعتمدة في التحقيق.

١٠ – أن لا يقلّ البحث عن خمس عشرة صفحة، ولا يزيد عن ثلاثين.

ملاحظات

١ – ترتيب البحوث في المجلة يخضع لاعتبارات فنية.

٢ – لا تُرد البحوث المرسلة إلى المجلة إلى أصحابها، سواء نشرت أو لم تنشر.

٣ – لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر بحثه بعد عرضه على هيئة تحرير المجلة إلاّ لأسباب تقتنع بها هيئة التحرير، وذلك قبل إشعاره بقبول بحثه للنشر.

٤ – تستبعد المجلة أيّ بحثٍ مخالف للشروط المذكورة.

٥ – تدفع المجلة مكافآت مقابل البحوث المنشورة، أو مراجعات الكتب، أو أيّ أعمال فكرية.

٦ – يعطى الباحث نسختين من المجلة.

مركـــز جمعـــة المـــاجـــد للثقـــــافة والتـــــــراث
Juma Al Majid Center for Culture and Heritage

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته، و بعد ،

فإنه يسرنا أن نبعث إليكم بنسخة من العدد (١٣٥) من مجلة آفاق الثقافة و التراث.

راجين التفضل بإرسال إشعار التسلم المرفق بالمجلة إلينا.

مع خالص شكرنا و تقديرنا لحسن تعاونكم معنا

و تفضلوا فائق الاحترام و التقدير

Dear Sir ;
Attached is one copy of Afaq Al-Thaqafa wa Al- Turath magazine, issue No (135). Please send back the enclosed receipt of Acknowledgement after filling in the required infomation.
Thank you for your kind cooperation
We remain

Gift ☐ إهداء

Exchange ☐ تبادل

Subscription ☐ اشتراك

قسيمة اشتراك
Subscription Order Form

سنة ☐ One Year　　أكثر من سنة ☐ More Than One Year　　عدد السنوات ☐ of Years

للأعداد : ..... Issues　　عدد النسخ : ..... of Copies:

ابتداء من تاريخ:..... Subscription Date : .....

شيك ☐ Check　　حوالة مصرفية ☐ Bank Draft　　حوالة بريدية ☐ Postal Draft

التاريخ :..... Date :　　التوقيع : ..... Signature :

إشعار بالتسلم

Acknowledgement of Receipt

Name : ..... الاسم الكامل :

Institution ..... المؤسسة :

Address ..... العنوان :

P.O. Box : ..... صندوق البريد :

No. of Copies: ☐ عدد النسخ : Issues No.: ☐ العدد :

Subscription ☐ اشتراك Exchange ☐ تبادل Gift ☐ إهداء

Signature : ..... التوقيع : Date : ..... التاريخ :

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية علمية محكمة

تصـــدر عن قسم الدراســـــات والنشر والشؤون الخارجية
بمركـــز جمعـــة الماجـــد للثقـــافة والتـــراث
دبـــي - الإمارات العربية المتحدة - ص.ب. ٥٥١٥٦
هاتـــف ٦٠٨٤٢٢٠ ٤ ٩٧١+
البريد الإلكتروني: info.center@al-majid.com
الموقع الإلكتروني: www.almajidcenter.org

السنة الخامسة والثلاثون: العدد مائة وخمسة وثلاثون - ربيع الثاني ١٤٤٨هـ/ أكتوبر ٢٠٢٦م

رقم التسجيل الدولي للمجلة

ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

المجلة مسجلة في دليـــل
أولريخ الدولي للدوريات
تحت رقم ٣٤٩٣٧٨

هيـــئة التحـــرير

مديـر التحرير
د. عز الدين بن زغيبة

سكرتير التحرير
محمد عبدالحكيم الأنيس

هيئة التحرير
د. محمد أحمد القرشي
د. فكري عبد المنعم النجار
د. محمد فاضل الحطاب

الاشتراك السنوي	داخل الإمارات	خارج الإمارات
المؤسسات	١٠٠ درهم	١٥٠ درهم
الأفراد	٧٠ درهماً	١٠٠ درهم
الطلاب	٤٠ درهماً	٧٥ درهماً

المقالات المنشورة على صفحات المجلة تعبر عن آراء كاتبيها
ولاتمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو المركز الذي تصدر عنه

يخضع ترتيب المقالات لأمور فنية

الفهـــــرس

الافتتاحية

المكتبة الآصفية في حيدر أباد - تيلنغانا - الهند

مدير التحرير

د. عز الدين بن زغيبة ٤

المقالات

الحج والهجمات البرتغالية على قوافل الحجاج: مجزرة ملبار ١٥٠٢م أنموذجًا

د. محمد علي الوافي كرواتل ٦

التراث الثقافي غير المادي في المغرب: الصناعات الحرفية التقليدية أنموذجًا

د. سعيد الأشعري ٢١

ظاهرة تحبيس الكتب في الجهة الشرقية من المملكة المغربية: فجيج أنموذجًا

محمد بوزيان بنعلي ٤٨

مسجد الخَيْف وعمرانه خلال العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٣هـ / ١٢٥٠-١٥١٧م)

د. رضا السعيد إبراهيم محمد ٥٩

المؤثرات الداخلية للرياضيات التي أدت إلى انحسار تطورها في أواخر الحضارة العربية الإسلامية

أحمد محمد جواد الحكيم ٨٠

حالة تقعيدية في علم تحقيق النصوص: "نيل السعادات في تحقيق المقولات" للبُليدي (ت: ١١٧٦هـ) نموذجًا.

د. يحيى زكريا محمد ١٢٢

تحقيق المخطوطات

مناقب أبي خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي الصفاقسي، تأليف: محمود بن محمد بن الحاج محمد السيالة الصفاقسي (١٢٤-٢١٠هـ)

دراسة وتحقيق: د. أنيس عبدالله بن أحمد ١٣٥

النصوص المرضية في تحقيق مذهب الحنفية في الأراضي المصرية، تأليف: العلامة محمد بن أحمد السُّحيمي (ت: ١٢٠١هـ)

تحقيق: أ.د. مقتدر حمدان عبد المجيد الكبيسي ١٧٥

الملخصات ٢٠٦



المكتبة الآصفية
في حيدر أباد الدكن - تيلنغانا - الهند

تعد المكتبة الآصفية المعروفة اليوم باسم "مكتبة حيدر آباد المركزية"، مكتبة أثرية تاريخية قديمة، وهي واحدة من أبرز الصروح الثقافية والعلمية في ولاية "تلنغانة"، ومن أهم المكتبات في الهند؛ التي أسهمت في حفظ التراث المعرفي العربي والإسلامي والإنساني على حدّ سواء، تقع المكتبة في حيدر آباد الدكن بالهند - التي كانت عبر التاريخ مركزًا علميًا وثقافيًا مهمًا في شبه القارة الهندية - ويقع مبنى المكتبة على ضفاف نهر "موسي"، ويتميز بتصميم معماري فريد يمزج بين الطرازين الهندي الإسلامي والأوروبي. وقد صمّمه المهندس البريطاني "فينسنت جيروم إيش"، مما منح المبنى طابعًا جماليًا يجعله من المعالم التراثية البارزة في المدينة.

تأسست المكتبة سنة (١٣٠٨هـ-١٨٩١م)، في عهد مير محجوب علي خان نظام، حكم إمارة حيدر أباد: (١٨٦٩-١٩١١م) في عهد حكم أسرة آصف جاهي - وقد سُمّيت المكتبة بـ"الآصفية" نسبةً إلى هذه الأسرة الحاكمة التي أولت اهتمامًا كبيرًا بالعلم والثقافة - حيث كلف النظام السيد حسين بلكرامي، وملا عبد القيوم، إلى جانب شخصيات علمية وثقافية بارزة في مجتمع إمارة حيدرأباد الإسلامية بتأسيس المكتبة لدعم الباحثين والعلماء في دائرة المعارف العثمانية، فقاما بتنفيذ الأمر السامي وبذلا جهودًا كبيرة في تأسيسها، وكانت البداية باقتناء المكتبات الخاصة، وجمع الكتب عن طريق الشراء من المكتبات المختلفة، وكذلك بالتبرع والإهداء. حيث أصبح في المكتبة مجموعة كبيرة من المطبوعات في شتى اللغات وفي مختلف فروع المعرفة، فكانت بذلك من أهم المكتبات في الهند.

وتضم المكتبة مجموعة كبيرة من أوعية المعرفة منها: مجموعة قيمة من المخطوطات النادرة حيث بلغ عددها نحو ٢٠٠٠٠ مخطوط، وقد تم نقلها إلى مكان مستقل وأطلق عليه اسم "مركز المخطوطات الشرقية"، ويقع المركز في منطقة تارنكا بسكندر أباد في مدينة حيدر أباد، في رحاب الجامعة العثمانية بالقرب من مقر دائرة المعارف العثمانية، ومبنى أرشيف حكومة الولاية، وقد أسس المركز سنة ١٩٧١ من قبل حكومة ولاية أندهرا برادتش - تيلنغانا حاليًا - لتجمع فيه جميع خزائن المخطوطات العامة الموجودة بحيدرأباد خاصة، وكذا ما تناثر من المخطوطات بالمكتبات العامة في سائر أنحاءٍ الولاية، وقد انتقل المركز إلى مقره الحالي في سنة ١٩٨٣. ويضم حاليًا بين رفوفه ٢٢٠٩٤ مخطوطًا، كتبت بخمس عشرة لغة.

وأما الوثائق التاريخية القيمة، والصحف والدوريات المتنوعة والتي تعود إلى قرون تليدة فقد تم نقلها إلى أرشيف ولاية آندهرا برادتش - تيلنغانا حاليًا -، حيث تُحفَظ بوصفها جزءًا من الذاكرةِ التاريخيةِ للمنطقة.

كما تضم المكتبة مجموعة قيمة من الكتب بلغت نحو نصف مليون كتاب في مختلف العلوم والفنون وفي لغات مختلفة بين العربية والفارسية والأردية والإنجليزية والهندية وغيرها، تعد من أهم مصادر الدراسات الإسلامية في العالم.

ولا شك أن المكتبة الآصفية ليست مجرد مكتبة تقليدية، بل هي مؤسسة ثقافية عريقة لعبت دورًا محوريًا في حفظ ونشر المعرفة على مدى أكثر من قرن. وما تزال حتى اليوم رمزًا من رموز التراث العلمي في الهند، ووجهةً للباحثين والمهتمين بالعلوم الإنسانية والإسلامية، بما تحتويه من كنوز معرفية نادرة ومتنوعة، ومؤسسة ثقافية تسهم في بناء الوعي العلمي والحضاري للأجيال المتعاقبة.

مدير التحرير

د. عز الدين بن زغيبة

المكتبة الآصفية في حيدر أباد الدكن - تيلنغانا - الهند

الحج والهجمات البرتغالية على قوافل الحجاج: مجزرة ملبار ١٥٠٢ م أنموذجًا

الدكتور محمد علي الوافي كرواتل

أستاذ مشارك، ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها
حرم الوافي الجامعي. جامعة الوفاء. كيرالا/ الهند.

تمهيد:

للسفر دلالة فريدة في حياة الإنسان، فهو ليس مجرد انتقال في المكان، بل حركة في المعنى والغاية. ومن يدقق النظر في آيات القرآن الكريم أو في ما ورد في الكتب السماوية، يدرك ما لـــ "السير في الأرض" من منزلة سامية وأثر عميق. لقد أثبت التاريخ أن الحضارة الإنسانية ما ازدهرت إلا على إيقاع الرحلات المتعاقبة، منذ أن خطا أبو البشر خطوته الأولى خارج الجنة، فكانت هي بداية لمسيرة لا تنقطع. ومنذ ذلك الحين، وأبناؤه يواصلون في دروب الأسفار، يشقون طريقهم بين الأمصار؛ ليصوغ الإنسان من خلال هذه الرحلات إنسانا أكثر رقيا وتمدنا، وأعمق وعيا وثقافة. ولِما للسفر والترحال من أثر عميق في مسيرة الإنسان، فقد جعل الشارع الحكيم ـ سبحانه وتعالى ـ الحج إلى البيت العتيق فريضة على كل أمة من الأمم. وتتميّز هذه الفريضة عن سائر الفرائض الدينية بكونها لا تلزم في العمر إلا مرة واحدة، وهي بذلك تقوم بمقام عبادة العمر. غير أن هذا الوجوب لا يكتمل إلا بتوافر جملة من الشروط، لا تتحقق الفريضة في حق المسلم إلا عند استيفائها. وتتناول هذه الدراسة حدثا أليما وقع في تاريخ رحلات الهنود المسلمين إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج.

نظرة في تاريخ المسلمين في الهند.

تعد الهند من أكبر الدول الإسلامية من حيث عدد السكان المسلمين، إذ تحتل المرتبة الثالثة عالميا. وقد بدأ نور الإسلام يشرق في ربوعها منذ فجر الدعوة المحمدية في جزيرة العرب، وهي حقيقة يؤكدها معظم المؤرخين الهنود، الذين يـرون أن الإسلام وصـل إلـى سواحل الهند في السنوات الأولى من الهجرة النبوية. فمثلا، يؤكد العلامة الشيخ أحمد زين الدين المعبري المليباري وصول الدعاة المسلمين إلى الديار الهندية في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول: "وصـل إليها جماعة من

فقراء المسلمين، معهم شيخ، قاصدين زيارة قدم أبينا آدم عليه السلام بسيلان[١]، فلما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم وسألهم عن الأخبار، فأخبره شيخهم بأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبدين الإسلام، ومعجزة انشقاق القمر"[٢]. واستنادا إلى هذه المقولة التاريخية يقول المؤرخون إن الإسلام قد وصل إلى الهند منذ أن وصل النبي إلى المدينة النبوية. إلا أن هناك بعض الباحثين الذين يرون أن إشعاع الإسلام لم يتأخر كثيرا، بل وصل إلى الديار الهندية مع مطلع القرن الثاني للهجرة، فكان حضوره المبكر إيذانا بعلاقة روحية وثقافية ضاربة في أعماق التاريخ بين العرب والهند. وأما بالنسبة إلى شمال الهند، فإن الإسلام قد وصل إلى هذه المناطق الهندية الشمالية بعد فتوح المسلمين لبلاد السند، وذلك بقيادة الفاتح محمد بن قاسم الثقفي سنة ٧١١م.

دخل المسلمون إلى هذه البلاد حينا دعاة للدين، متجردين من كل مصلحة ومنفعة؛ ليحملوا إلى أهلها رسالة الإسلام السمحة المتوسطة، مثل الشيخ سيد علي الهجويري، والشيخ معين الدين الأجميري، والشيخ علي بن الشهاب الهمداني الكشميري، ودخلوها حينا آخر فاتحين، وملوكا طامحين، مثل السلطان محمود الغزنوي، وشهاب الدين محمد الغوري، وظهير الدين بابر المغولي، ويشير إلى هذه الحقيقة الشيخ أبو الحسن علي الندوي قائلا: "دخل المسلمون في الهند، وهي تتميز بحضارة أصلية عريقة في القدم، وفلسفة عميقة، وعلوم رياضية دقيقة، وخيرات عظيمة، وهم أرقى أمة في الشرق، بل في العالم المتمدن المعمور في ذلك العهد، يحملون دينا جديدا، سائغا معقولا، سهلا سمحا، وعلوما اختمرت وتوسعت، وحضارة تهذبت ورقت حواشيها، يحملون معهم محصول عقول كبيرة كثيرة، ونتاج حضارات متنوعة متعددة، يجمع بين سلامة ذوق العرب، ولطافة حسن الفرس، وفروسية الترك، وكانوا يحملون للهند وأهلها غرائب كثيرة وطرفا غالية[٣].

ومنذ أن وصلت الدعوة المحمدية، اعتنق الهنود الدين الجديد الذي يدعو الناس إلى العدل والأخوة والمساواة. ويعتقد أن جماعة المابيلاس (Mappila) كانوا من أوائل من اعتنق الإسلام في جنوب الهند، وذلك بفضل صلتهم الوثيقة بالعرب الذين قدموا إلى السواحل المليبارية عبر طرق التجارة البحرية. وقد أسهمت الحملات الدعوية التي قام بها الدعاة والعلماء في دخول عدد كبير من السكان الأصليين في الإسلام، فانبثق من هذا التفاعل مجتمعُ المابيلاس، الذي تمازجت فيه الدماء العربية بالثقافة المحلية، لا سيما من خلال المصاهرة مع النساء المحليات واعتناق الإسلام من قِبل السكان المحليين المتحولين[٤].

جنوب الهند: مسرح للمنافسات التجارية في العصور الوسطى.

منذ فجر التجارة العالمية، حظي جنوب الهند بمكانة مرموقة على خريطة المبادلات الدولية، بفضل ما حباه الله من بهارات شرقية نفيسة كالفلفل والقرنفل، وخصوبة تربته الزراعية، وموقعه الجغرافي الفريد على السواحل البحرية المطلة على المحيط الهندي. وقد جعلته هذه المقوّمات صلة وصل طبيعية بين الشرق العربي

والغرب الأوروبـي. ولم تلبث أن توافدت إلى موانئه السفن القادمة من اليونان والصين والعالم العربي ومصر، تحمل على متنها تجارًا يقصدون التوابل النفيسة والمحاصيل الوفيرة التي اشتهرت بها تلك الديار. وشيئا فشيئا، غدت هذه السواحل مركزا تجاريا عالميا، ومسرحا للتنافس بين القوى البحرية الطامعة في السيطرة على طرق التجارة. وبهذا الحراك المتعدد الثقافات والجنسيات، اكتسبت المنطقة طابعا كوزموبوليتيا مميزا، حتى غدت بحق إحدى حواضر التجارة والحضارة في تلك العصور.

القوة البرتغالية المستعمرة تكدر صفو المياه.

منذ متى وصلت القوة البرتغالية المستعمرة إلى السواحل الغربية للهند؟. يجيب عن هذا السؤال الباحث الكبير الدكتور السلطان محمد القاسمي، حاكم إمارة الشارقة، في كتابه الموسوعي، "كانت البضائع تصل إلى أوروبا في بداية القرن الخامس عشر عن طريق 'جنوة' (Genoa) والبندقية 'فينيسيا' (Venesia)، لكن 'جنوة' خسرت موقعها التجاري بعد احتلال الأتراك للقسطنطينية في عام ١٤٥٣م، والصراع بين البندقية والممالك في مصر أبعد البندقية من المنافسة. كان البحث عن طريق يوصل أوروبا بالهند مطلب جميع الدول الأوروبية؛ لأنه سيجلب لها الشهرة والمال الوفير. وفي عام ١٤٩٧م، وصل الأسطول البرتغالي بقيادة 'فاسكو ديجاما' (Vasco Da Gama)، عبر رأس الرجاء الصالح بجنوب إفريقيا، إلى شرقي إفريقيا، ومن ثم إلى الهند، ثم تتالت الأساطيل البحرية البرتغالية؛ لتحتل أجزاء من الهند وبلدانا على شاطئ بحر عمان، وسواحل فارس، واستمر ذلك الاحتلال والتسلط على خيرات تلك البلدان حتى عام ١٧٥٧م"[٥].

ولما بسطت القوة البرتغالية سيطرتها على سواحل كيرالا، انقلبت موازين التجارة في البحر العربي رأسا على عقب، وشهدت المنطقة تغيرا جذريا، إذ أدى النفوذ البرتغالي إلى إخضاع جميع ما كانت تمتلكه الممالك المحلية الصغيرة. ولم تكن هذه القوة الجديدة قد وفدت إلى البلدان الشرقية للتجارة فحسب، بل كانت تخفي وراء نشاطاتها الاقتصادية غاية أخرى، وهي نشر التعاليم المسيحية ودعوة الناس إليها. وهؤلاء البرتغاليون مشهورون بكونهم أشد الناس عداوة للمسلمين، والتمسوا طرقا لإبادة المسلمين عن التجارة الشرقية. وكانت القوة البرتغالية المستعمرة طائفة تدعى بـــ "فرسان يسوع المسيح"[٦] وكان هنري الملاح رئيسا لهذه الطائفة المتطرفة.

وفي سنة ١٥٠٠م، جاءت الدفعة الثانية من البرتغاليين إلى الهند بقيادة بيدرو ألفاريز كابرال (Pedro Álvares Cabral)، "أعدت هذه الحملة بتوجيه مباشر من الملك البرتغالي نفسه، بعد أن حظيت بمباركة البابا الكاثوليكي والبطريرك في مدينة فينيسيا، باعتبارها خطوة ذات بعد ديني وسياسي في آن واحد. وقد أصدر الملك تعليماته إلى قائده البحري كابرال بضرورة إقامة تحالف مع السامري، حاكم كاليكوت، بهدف إقصاء التجار العرب المسلمين من مراكزهم التجارية في المنطقة، متى ما أتيح ذلك، في إطار استراتيجية تهدف إلى ترسيخ النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي والسيطرة

على طرق التجارة البحرية. وكان في هذه الدفعة عدد كبير من الجنود البرتغاليين، وقد وصلوا كاليكوت في ١٣ سبتمبر"[٧]، وقبله قد أغاروا على مدن في سواحل إفريقيا. "وكان من أهم مطالبه التي قدمها أمام الملك السامري (Zamorin) السماح لخمسة من الرهبان بنشر المسيحية بين الناس، وإخراج المسلمين من بلدته، ومنعهم من تمكينهم في التجارة"[٨]. وفور مجيئهم إلى الهند، طلبوا من حكامها المحليين، إقصاء التجار المسلمين عن "المتاجرة بمنتجات شرقية"، ولتحقيق هذه الخطة السلبية أخذوا يتعاقدون مع الملوك والحكام، وشنوا إغارات غاشمة على التجار الأبرياء المسلمين.

بداية العداوة ضد المسلمين.

وتمتاز هذه الحقبة التاريخية بسمات سياسية واقتصادية بارزة، إذ كان خلفاء المسلمين في الدولة العثمانية يواصلون فتح البلدان الأوروبية المسيحية وضمّها إلى الخريطة الإسلامية، ناشرين فيها التعاليم الإسلامية الصافية. ومن هنا نشأ في النفوس الأوروبية النصرانية حقد دفين وعداء مستحكم تجاه المسلمين، تجلّى في سياساتهم وتحركاتهم لاحقا. وما إن وطئت أقدام القوة الاستعمارية سواحل المنطقة، حتى أدركت أن زمام النفوذ البحري كان بيد التجار العرب المسلمين، الذين عرفوا بقيمهم التجارية وأخلاقهم الإنسانية السامية، فإن التجار العرب ما كانوا يحتكرون السلع أو يغالون في أسعارها، بل كانوا يبيعون ويشترون وفق القوانين والأعراف التجارية السائدة في تلك الحقبة التاريخية.

وعلمت القوة المستعمرة البرتغالية بأن سيطرتهم الكاملة لا تتم إلا بإقصاء المسلمين عن أدوارهم الرئيسية في التجارة الشرقية وطردهم عن السواحل الهندية. وخطط البرتغاليون مشروعا رذيلا لتحقيق هذه الأهداف الدنيئة، وتحالفوا "مع ملك كوتشي (Kochi) بغير إذن ملك كاليكوت، رغم كون كوتشي تحت ملك كاليكوت، واندلعت الحروب الأهلية بين هاتين البلدتين بسبب هذا التحالف الغادر، واستمرت لسنين"[٩]. وحين وصل القائد البرتغالي كابرال إلى سواحل كيرالا، لقي ترحيبا حارا من ملكي كانور وكوتشي، ثم بادر القائد البرتغالي إلى تدمير خمس سفن كبيرة وتسع سفن صغيرة كانت تابعة للملك السامري، وكانت هذه هي النقطة البدائية للصراع البحري في المنطقة. ولم يكن كابرال يملك أموالا لشراء الأمتعة الشرقية، غير أنّه استطاع الحصول عليها بفضل ضمان ملك كوتشي.

بعد عودته الثانية إلى سواحل المليبار، طلب فاسكو دي جاما من الملك السامري أن يقوم بطرد المسلمين من مدينة كاليكوت، غير أن السامري رفض هذا الطلب رفضا قاطعا، "إن دي جاما الغاشم والظالم، قتل رسل السامري وجدع أنف وأذن البراهمي الذي أرسله سامري سفيرا إليه، ثم أرسل دي جاما رسالة إلى السامري تقول "اطبخ أنفه وأذنه ثم كله" وكان دي جاما ظالما لا مثيل له في تاريخ العالم"[١٠]. وفي عام ١٥٠٤م، وصل القائد البرتغالي لوبو سوروس (Loppo Sorus) على رأس أربع عشرة سفينة حربية، فشن غارات على بيوت المسلمين واليهود، بينما ترك منازل المسيحيين دون أن يمسها بأذى، وفي ميناء كويلاندي (Quilandy) دمّر سبع عشرة

سفينة، وقتل ما يقارب ألفي مسلم بريء.

تاريخ الحج من شبه القارة الهندية.

تقتضي هذه الدراسة إعداد عرض تاريخي موجز لبدايات مواكب الحج من شبه القارة الهندية إلى مكة المكرمة، بوصفه أحد المحاور الرئيسة للبحث. ويأتي ذلك انطلاقا من كون هذه الدراسة تتمحور حول عنصرين أساسيين، هما: تاريخ الحج الهندي، وتاريخ الحقبة الاستعمارية البرتغالية، فيستلزم تناول هذا الجانب برؤية تحليلية توضح أبعاده التاريخية والسياسية.

ومنذ بداية تاريخ الإسلام في الديار الهندية، بدأت الصلات بين الهند والبلدان العربية، وقد أوردنا في الصفحات السابقة الشواهد الموثوقة التي تثبت صحتها ومصداقيتها. وقد ارتبطت قلوب مسلمي الهند ومشاعرهم الدينية على مر العصور بتلك البقاع المقدسة في أرض الحرمين الشريفين. ولعل رحلة الملك شيرامان فيرومال (Cheraman Perumal) الملك الحاكم في منطقة المليبار في القرن الثامن الميلادي، أول رحلة في تاريخ الحج إلى بيت الله الحرام، حيث أسلم الملك المليباري بيد التجار العرب المسلمين، ثم شد رحله إلى مكة المكرمة، وكانت معه ٢١ سفينة مليئة بالأمتعة والهدايا، لكي يوزعها بين الفقراء والمساكين في مكة المكرمة. ومنذ ذلك الحين، حرص أكثر الملوك والسلاطين الذين اعتلوا عرش الهند في عصور مختلفة، على تشجيع رعاياهم المسلمين لأداء فريضة الحج والانخراط في مواكب الحجيج؛ لكونها عبادة أساسية في الأركان الإسلامية. كما أولى هؤلاء الحكام عناية خاصة بتحفيز شعبهم على الهجرة إلى مكة المكرمة لطلب العلم، حيث إنهم قد أدركوا مكانة هذه البقعة العلمية والدينية في آن واحد. وهذا الأمر قد أدى إلى كثرة عدد المؤلفات الهندية التي تعالج تاريخ الحج من شبه القارة الهندية.

وقد تميز عدد من العلماء الهنود برحلاتهم العلمية إلى الجزيرة العربية، حيث تتلمذوا على أيدي كبار الأئمة الذين تولّوا التدريس في مكة المكرمة والمدينة المنورة، حتى بلغوا مرتبة رفيعة في الدراسات الإسلامية العليا. ومن أبرز هؤلاء الأعلام: الشيخ المحدث عبد الحق الدهلوي (ت: ١٠٥٢هـ)، والشيخ شاه ولي الله الدهلوي (ت: ١١٧٦هـ)، والشيخ زين الدين المخدوم الكبير المعبري المليباري (ت: ٩٨٧هـ)، والشيخ زين الدين المخدوم الصغير المعبري المليباري (ت: ١٠٢٨هـ). ورغم المكانة العلمية المرموقة التي بلغوها بفضل دراساتهم في الحرمين الشريفين، فإنهم لم يُفردوا مؤلفات خاصة برحلاتهم إلى مكة المكرمة أو تجاربهم الشخصية في أداء فريضة الحج، وإنما اكتفوا بذكر لمحات عابرة في ثنايا ما صنّفوه من كتب في العلوم الإسلامية المختلفة التي تلقوها في الجزيرة العربية. وبعد مرور الزمن، فإن بعض العلماء المسلمين الهنود، قد أصدروا الفتاوى الدينية التي تجيز للمسلمين الهجرة من شبه القارة الهندية، حيث اعتبروا بلاد الهند كـــ "دار حرب"، مثل الفتوى التي أصدرها المولانا شاه عبد العزيز الدهلوي. فكان لزاما عليهم أن يجاهدوا القوة الاستعمارية لتحرير بلادهم من يدها الغاشمة. فوجدوا في الحجاز ملاذا آمنا لهم، حيث يتيح لهم الاستقرار والعيش في بيئة مطمئنة، بعيدا عن الضغوط

الاستعمارية المستبدة. أما الأثرياء من الهند، فقد رحلوا إلى مكة المكرمة وبنوا هنالك مدارس علمية وحلقات دينية ينفقون على الدارسين فيها.

البرتغاليون ينهبون سفن الحجاج.

وفي الوثائق التاريخية إشارات إلى بعض رحلات الحج التي كفلها حكام الهند، كما أنهم يبعثون إلى مكة المكرمة الهدايا والهبات. "كان السلطان الهندي مظفر الحليم الكجراتي الذي تولى الحكم سنة ١٤٥٣م، (أي قبل أن تطأ أقدام البرتغاليين سواحل الهند)، فكان من حفظة القرآن، وماهرا في فن الخط بجميع أنواعه، فكتب مصحفين بيده، وأرسلهما إلى الحرمين الشريفين"[١١]، وجعل لهما وقفا يصرف لمن يقوم على حفظهما، ومن يدعو له عند ختمهما. أما السلطان الهندي شيرشاه السوري، فهو الذي جلس على عرش الهند في سنة ١٥٤٠م، أي بعد وصول البرتغاليين، وإنه قد "خصص سفينتين كبيرتين لنقل الحجاج كل عام، من غير أن يدفعوا نظير ذلك شيئا"، كما أن الملك شير شاه كان يقول: "لو ساعدني الزمان أبعث برسالة إلى عظيم الروم (يريد سلطان بني عثمان)، وأسأله أن يركب بعساكره إلى بلاد الفرس، ونركب نحن من هنا إلى تلك البلاد، فندفع بمساعدة ملك الروم شر الأوباش الذين يقطعون طريق الحجاج"[١٢].

وكان من عادة السلاطين المغوليين، أن يرسلوا قوافل الحج إلى الحرمين الشريفين على نفقة الدولة كل سنة. "ويذكر المؤرخ المغولي أبو الفضل أن السلطان أكبر خصص مرة خمسمائة ألف روبية نقدًا بالإضافة إلى الأشياء الأخرى التي تحتاجها الرحلة، وأمر حاكم ميناء سورت بتجهيز سفينة خاصة لنقل الحجاج إلى الحجاز، وسلم لأمير الحج مبلغ عشرين ألف روبية من دخل الكجرات للنفقة على الحجاج"[١٣]. كما كان للأميرات المغوليات إسهام بارز في دعم رحلات الحج وتنشيطها، وذلك من خلال تقديم المساعدات المالية للحجاج الهنود، بل وامتلاك بعضهن سفنا تجارية خاصة كانت تُستخدم في نقل البضائع والحجاج على السواء.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما قامت به مريم زماني، زوجة الإمبراطور المغولي أكبر، إذ امتلكت سفينة كبيرة عُرفت باسم الرحيمي، خصصتها لنقل الحجاج إلى الحرمين الشريفين، إلى جانب شحن البضائع إلى الأسواق العربية خلال موسم الحج. وقد اشتهرت هذه السفينة بين التجار الأوروبيين باسم "سفينة الحج العظيمة"[١٤] لفرط شهرتها وضخامتها في ذلك العصر، وفي سنة ١٦١٤م تعرضت الرحيمي لهجوم من قِبل القراصنة البرتغاليين الذين احتجزوها، مما أدى إلى توتر كبير بين الدولة المغولية والقوات البرتغالية، وتفجّر صراع عسكري استمر لفترة طويلة، كشف عن التداخل بين الحج، والسياسة الدولية، والتجارة البحرية في المحيط الهندي خلال الحقبة المغولية.

باب الشرق إلى الحرمين في القرون الوسطى.

بالنسبة إلى المناطق الجنوبية للقارة الآسوية، فإن الهند هي أسهل طرق للوصول إلى بلاد الحرمين الشريفين، وذلك نظرا للموقع الجغرافي للهند الواقعة في ساحل بحر العرب. وهذا الأمر جعل من الهند مركزا رئيسيا للنشاطات

التجارية والرحلات المباركة لأداء مناسك الحج والعمرة. والمسلمون من جميع المناطق الآسوية الجنوبية يرتادون الموانئ الغربية لشبه القارة الهندية، ومن أهمها ميناء كاليكوت، والغوجارات (Gujarat) وميناء السند الواقع بجمهورية باكستان حاليا، وميناء تنانه (Thane) بقرب مدينة مومباي (Mumbai). ومنذ القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، أخذت هذه الموانئ الهندية تظهر بكونها منطلقا رئيسيا للرحلات الحجية نحو الحرمين الشريفين.

وإلى جانب الطريق البحري، كان هناك طريق ثاني يسلكه بعض الحجاج من البلدان الشرقية، وهو الطريق البري، والذي يمتد عبر ممرات شمال غرب الهند، ثم يمر بخراسان وإيران والعراق حتى ينتهي إلى الحجاز. وقد عرف عن عدد من العلماء الهنود، أنهم قد سلكوا هذا الباب البري، حيث إنه يفتح أمامهم الفرصة لكي يحلوا في المراكز العلمية الشهيرة كانت موجودة في طريقهم نحو الحجاز، وكانوا يرتوون من مناهلها العذبة. ونظرا لما فيه السرعة واليسر مقارنة بالطريق البري، فإن الحجاج الهنود قد غلب عليهم اختيار الطريق الأول. كما أن التجارة البحرية كانت مزدهرة في تلك الأيام، الأمر الذي جعل ركوب البحر خيارا مفضلا لدى عامة الناس وخاصتهم على السواء.

وفي القرون الوسطى، لم تكن هذه الرحلات تتسم بالطابع الرسمي كما هو الحال في العصر الراهن، إذ لم تكن حدود الجغرافية العالمية واضحة مثلما هي عليه الآن، ولم تكن هناك أنظمة إدارية توثق حركة المسافرين. ولهذا السبب لا نجد في الوثائق التاريخية إشارات إلى إجراءات رسمية مثل الجوازات أو التأشيرات، إلا أن هذه الأمور الإدارية قد تطورت في القرن التاسع الميلادي، والقرن العشرين. وأصبحت الرحلات إلى الحجاز بواسطة الإدارة الإنجليزية. "وهناك مئات من الوثائق التي تحمل في طياتها معلومات تفصيلية عن إسهام الإمارات الإسلامية في إنشاء المنازل ودور الضيافة والربط في الحرمين الشريفين آنذاك"[١٥].

مجزرة الحجاج الأبرياء في المليبار.

وفي رحلته الأولى إلى المليبار استطاع 'دي جاما' "أن يجمع معلومات عن تجار العرب والبحرية العربية، فلما رجع أخذ يهون على الملك البرتغالي أمر القضاء على العرب أعداء دينه، فإن سفنهم الصغيرة لا تستطيع الثبات أمام السفن البرتغالية الكبيرة المسلحة، كما أخذ يبشره بإمكان تكوين مستعمرة برتغالية كبيرة في الشرق"[١٦]. كما يتضح من هذا الاقتراح الذي قدمه 'دي جاما' أمام الملك البرتغالي، فإن هدفهم الرئيسي هو القضاء على التجارة العربية في المحيط الهندي، وإقصاء المسلمين عن البلدان الشرقية، ونشر الديانة المسيحية. "وقد كان اكتشاف الطريق الجديد للهند أكبر ضربة وجهت لمصر والبلاد العربية الإسلامية التي كانت تمر منها التجارة، وتمتلئ خزائنها بالمال، ولا سيما مصر التي كانت تملك كل الطرق التجارية في ذلك العهد"[١٧]. ومنذ أن وصل 'كابرال' إلى ساحل كالكوت، بدأ الاحتكاك بينه وبين العرب التجار، فأخذ يدمر بعض السفن العربية، كما دمروا هم أيضا سفينة البرتغاليين انتقاما منهم لأفعالهم الشنيعة في البحر العربي.

ومن المواقف التاريخية التي تشهد على مكانة المسلمين عند ملوك الملیباريين، أنه لما حاولت القوة المستعمرة التصالح بين السامري ملك كاليكوت، في أول الأمر، ولما رأت معارضته لهذا الصلح، نشرت الرعب في البحر العربي، ثم أجبرته على الانصياع له، إلا أن السامري لم يغدر التجار العرب والمسلمين. واستعان الملك السامري بملك مصر، "فكتب السلطان المصري الغوري للبابا يتوعده بتخريب الأماكن المقدسة ببيت المقدس إن لم يستدع البرتغاليين من الهند، ويأمرهم بالكف عن عدوانهم على البحار، ولكن البرتغاليين لم يعبؤوا بهذا، واستمروا في عدوانهم للقضاء على العرب"[١٨].

ومن أشنع ما كانوا يعملون في إذلال المسلمين في مليبار ما صوره الشيخ زين الدين المخدوم المليباري في كتابه "تحفة المجاهدين": "فظلموهم، وأفسدوا فيهم وفعلوا فعائل قبيحة شنيعة لا تحصى، من ضربهم، والاستهزاء بهم، والضحك عليهم إذا مروا بهم استخفافا، وجعلهم مراكبهم في محال الماء والوحل، والبصق في وجوههم وأبدانهم، وتعطيل أسفارهم، خصوصا سفر الحج، ونهب أموالهم، ووطي المصاحف والكتب بأرجلهم، وإحراقها بالنار، وهتك حرمات المساجد، وتحريضهم على قبول قول الردة والسجود لصليبهم، وعرض الأموال لهم لهم على ذلك، وتزيين نسوانهم بالحلي والثياب النفيسة لتفتين نسوان المسلمين وقتل الحجاج وسائر المسلمين بأنواع العذاب، وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم جهارا، وأسرهم وتقييد أساريهم بالقيود الثقيلة..... إلخ؛[١٩].

لقد تعمّد المبشرون اليسوعيون خلق موقف عدائي تجاه الحجاج المسلمين، وهذا الموقف من جانبهم جعل الصراعات في طبقة ثانية غير التجارية، حيث إنها تلونت بلون حرب صليبية ضد المسلمين. وقد بدأت هذه الحرب الصليبية في المحيط الهندي منذ أن وصلت القوة البرتغالية في بداية القرن السادس عشر الميلادي. وقد عمل هؤلاء المبشرون على ممارسة الضغوط على سلطات "الإستادو" البرتغالية لاتخاذ إجراءات صارمة ومتعددة ضد رحلات الحج البحرية،[٢٠] بهدف عرقلة مواكب حج المسلمين نحو الديار المقدسة.

القوة المستعمرة كانت تستهدف جميع السفن في البحر العربي، ويقول الباحث والأكاديمي بيرسون (Pearson) "إن البرتغاليين كانوا يهاجمون أو يغرقون السفن المحمّلة بالحجاج؛ لأنهم رأوا أن من الصعب التمييز بين "الحجاج الأبرياء" وبين "الجنود أو البحارة" الذين ربما كانوا على متن السفن نفسها"[٢١]. ومن وراء هذه المبررات التافهة كانوا يستهدفون جميع السفن القادمة والذاهبة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج أو بعد أدائها.

ومن أبشع الجرائم التي ارتكبتها القوة الاستعمارية البرتغالية في حق المسلمين في سواحل مليبار، تلك المجزرة المروعة التي استهدفت قافلة من الحجاج الأبرياء. ففي سنة ١٥٠٢م اعترض الأسطول البرتغالي سفينة عائدة من رحلة الحج، وعلى متنها جمع من الحجاج الذين أدوا المناسك، بالإضافة إلى هدايا وبضائع ثمينة أرسلها سلطان مصر إلى الملك السامري حاكم كاليكوت. وقد أقدمت القوات البرتغالية، بدافع من أطماعها الاستعمارية، على

نهب السفينة بوحشية، في واحدة من أكثر الجرائم الدموية في تاريخ المنطقة. كانت هذه السفينة مملوكة للسلطان المملوكي في مصر، وقد عُرفت باسم 'مريم' وقد صعد إليها عدد كبير من رجال الدولة وأثرياء المنطقة، لما كانت تتمتع به من مكانة متميزة وضمان للأمن البحري، بحكم انتسابها المباشر إلى السلطان المصري[٢٢].

ومن بين ضحايا تلك الفاجعة السيد جاور بي (Javar Beg)، ممثل سلطان مصر، وكانت وجهة السفينة ميناء بانتالاياني (Pandalayani)، أحد أشهر الموانئ في سواحل مليبار خلال القرون الوسطى. وقد بلغ فاسكو دي جاما أن هذه السفينة تحمل الذهب والمجوهرات والهدايا المرسلة من سلطان مصر إلى الملك الساموتيري، إضافة إلى بضائع عربية ومنتجات تجارية ثمينة. فاعترضها الأسطول البرتغالي في عرض البحر العربي، على مسافة ستين ميلا من السواحل الهندية. ويرى بعض المؤرخين أن هذه المأساة وقعت بالقرب من ميناء ماداي (Madayi) الشهير.

وعندما أحاط البرتغاليون بالسفينة، توسّل الحجاج المسلمون إلى القائد الظالم بأن يأخذ جميع الهدايا والبضائع، على أن يطلق سراح الركاب مع نسائهم وأطفالهم. غير أن فاسكو دي جاما تجاهل توسلاتهم، وأمر جنوده بنهب السفينة، واعتدى أفراده على النساء والفتيات في أبشع صور الانتهاك. وقد حاول ممثل سلطان مصر، السيد جاور بيغ، أن يتفاوض مع القائد البرتغالي لوقف هذه الجريمة، غير أنّه قوبل بتعنت شديد وصمت آثم أمام صرخات النساء وبكاء الأطفال. وانتهت الفاجعة بمقتل ما يقارب أربعمائة مسلم حرقا، في واحدة من أكثر الجرائم بشاعة في تاريخ الحجاج المسلمين بالهند، لتظل هذه الواقعة صفحة سوداء في سجل الممارسات الاستعمارية البرتغالية. وهناك قراءة أخرى تقول "إن عدد الضحايا يبلغ ٢٤٠ حاجًا، رجالا ونساء وصبيانا، وربطهم وأضرم السفينة، ولم يبق منهم أحد"[٢٣].

ومن المثير للاهتمام أن ثمة رواية غير مطروقة تصل إلينا، من داخل أسطول فاسكو دا جاما نفسه، كتبها رحالة هولندي مجهول الاسم رافق جاما منذ انطلاقه من لشبونة حتى وصوله إلى كاليكوت. وقد أورد هذا الرحالة تفاصيل عن حادثة إحراق سفينة الحجاج. إذ يقول:

"في الحادي عشر من سبتمبر وصلنا إلى مملكة تدعى كانور، الواقعة بالقرب من سلسلة جبال تسمى إزيمالا (Ezhimala)، وهناك شاهدنا العديد من سفن مكة، وهي سفن تنقل التوابل التي تصدر إلى بلادنا. لقد سعينا إلى إفساد الغابات حتى يحتكر ملك البرتغال تجارة التوابل، غير أن خطتنا لم تثمر. ومع ذلك، في الوقت نفسه، استولينا على سفينة مكة كان على متنها نحو ٣٨٠ رجلا والعديد من النساء والأطفال، واستحوذنا منها على ما لا يقل عن ١٢,٠٠٠ دوقية وأكثر من ١٠,٠٠٠ من البضائع، ثم أحرقنا السفينة بمن فيها من ركّاب بالبارود، وذلك في اليوم الأول من أكتوبر"[٢٤].

هذه الرواية تضيف بعدا مهمّا إلى فهمنا للأحداث، إذ إنها تأتي من شاهد عيان أوروبي كان ضمن الأسطول، وتؤكد أن عملية الإحراق لم تكن مجرد حادث عابر أو عمل عسكري عادي، بل مجزرة مدبّرة ضد حجاج أبرياء. وفي

دراسته يقول الباحث الدكتور محمود كوريا، ناقلا عن المؤلف جواو دي باروس، "إن القوة الصليبية أخذت من متن السفينة ٢٠ طفلا حيا لكي تجبرهم على اعتناق المسيحية"[٢٥]. هذه المجزرة لم تكن وحيدة في نوعها، إلا أنها تمتاز بكونها نادرة في تاريخ الحج الهندي، إذ إن القوة البرتغالية الغاشمة قد قتلت ٦٠٠٠ جنديا مسلما في معركة وقعت بينها وبين السلطان إبراهيم عادل شاه، في منطقة غووا (Goa). وكانت هذه المعركة في سنة ١٥١٠م[٢٦]. وبحلول سنة ١٥٢٠ الميلادية، خرج جميع العرب من هذه البلدة إلى بلدانهم لكساد تجارتهم، ولم يبق أحد من العرب في كاليكوت[٢٧].

الروايات التاريخية للمجزرة ونقدها.

أصبحت قصة هذه المجزرة حدثا تاريخيا أليما تتناقله الألسن في منطقة مليبار، وصارت جرحا غائرا في قلوب المسلمين. وقد نظم الأدباء حول هذه النكبة المراثي باللغتين العربية والمليبارية، وكتبوا عنها القصص، وصوروا هذه المأساة في الأشكال السردية للحكايات الشعبية، حتى غدت موضوعا بارزا في الفلكلور المحلي. ونتيجة لذلك، ظل جميع الكُتاب في هذه المنطقة يتناولون هذا الحدث التاريخي في مؤلفاتهم، ويتناقلونه جيلا بعد جيل، مضيفين إليه من خيالاتهم، ومضخّمين له بتصوراتهم. وبسبب تعدد هذه الحكايات وتنوع رواياتها، اختلفت النصوص التي كتبت حوله. واستند بعض المؤرخين إلى هذه الحكايات المحلية في تدوينهم لهذا الحدث، مما أدى إلى اختلاف تقدير عدد الضحايا من مصدر إلى آخر.

وتتباين تقديرات المؤرخين بشأن عدد ضحايا الحادثة تباينا ملحوظا، غير أن المعطيات المتاحة ترجح ما ذهب إليه الباحث المليباري الدكتور محمود كوريا، إذ يؤيد الرأي القائل بأن عدد الضحايا بلغ قرابة أربعمائة حاج. ويستند هذا الترجيح إلى رواية نادرة صادرة من داخل أسطول فاسكو دا جاما نفسه، دوّنها رحالة هولندي مجهول الاسم كان قد رافق دا جاما في رحلته من لشبونة إلى كاليكوت؛ حيث يذكر أن السفينة كانت تقلّ على متنها ٣٨٠ رجلا، فضلا عن عدد من النساء والأطفال. وفي ضوء هذه الشهادة المعاصرة للحدث، يبدو هذا التقدير أقرب إلى الواقع التاريخي من غيره. أمّا ما أورده الأستاذ عبد القاسمي المليباري في كتابه "المسلمون في كيرالا"(عدد الضحايا ٢٤٠) فلا يرقى إلى مستوى الدقة الأكاديمية المطلوبة في توثيق مثل هذه الوقائع التاريخية.

ردود شعبية ضد هذه العداوة.

هذه الحادثة المؤلمة قد أشعلت نيران الانتقام في قلوب المسلمين في الديار المليبارية، أما الردود السريعة، فتمثلت في الفتاوى الدينية التي أصدرها علماء المنطقة بوجوب الجهاد ضد القوة الاستعمارية البرتغالية. وقد ألف الشيخ أبو يحي زين الدين بن الشيخ علي بن أحمد المعبري المخدوم المليباري، المعروف بزين الدين المخدوم الكبير قصيدة وهي بعنوان "تحريض أهل الإيمان على جهاد عبدة الصلبان". وخلال هذه القصيدة الشهيرة يصف الشيخ المليباري أفعالهم الشنيعة المتعددة.

وقد ألف القاضي محمد بن عبد العزيز

الكاليكوتي مجموعة من الخطب الدينية والتي أسماها فيما بعد "الخطبة الجهادية"، وكان هدف هذه الخطبة إشعال روح المقاومة في قلوب المسلمين في منطقة مليبار. وهناك قصيدة أخرى ألفها القاضي محمد ضد الاستعمار البرتغالي، وهي تحت العنوان، "الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين". وهذه أرجوزة في خمسمائة وسبعة وثلاثين بيتا، يبين فيها تاريخ وصول البرتغاليين إلى مليبار ثم أفعالهم الشنيعة ضد المسلمين في هذه المنطقة. أما "تحفة المجاهدين في بعض أخبار البرتغاليين"، فهو كتاب قيم ذاع صيته في الآفاق، ويعد من أروع الكتب المؤلفة في سرد تاريخ تلك الحقبة الاستعمارية. وخلال هذه النصوص الدينية كان العلماء يحرضون أبناء الأمة الإسلامية على المدافعة عن دينهم وعقيدتهم.

وقد حمل لواء المقاومة نخبة من القادة المليباريين الذين عرفوا في تاريخ الهند باسم أسرة ماراكار، وهو لقب منحه الملك السامري لقائد أسطوله البحري. وقد برز من هذه الأسرة أربعة أمراء كبار، أظهروا شجاعة نادرة وبراعة قيادية متميزة في الحروب البحرية ضد الاستعمار البرتغالي، حتى صار ذكرهم مقترنا بتاريخ الكفاح البحري في سواحل مليبار. وكانت هذه الأسرة من تجار المسلمين من كوشن (Cochin)، وانتقلت هذه الأسرة إلى بناني، وأخبروا السامري أنهم مستعدون لمعارضة البرتغال بأموالهم وسفنهم وأسلحتهم وبخدماتهم، فقبلها السامري؛ فأصبحوا أمراء البحر في أسطول السامري يقودون الحرب إلى نحو مائة سنة متوالية[٢٨].

وهذه المكافحة قد طالت قرابة نصف قرن على الأقل. الحملات البحرية التي قادها كونجالي ماراكار قد أقضت مضاجع القوة الاستعمارية البرتغالية، وأربكت مخططاتها الاقتصادية والعسكرية في البحر العربي والمحيط الهندي، وأصبحت هذه المنطقة المليبارية بفضل شجاعتهم وبسالتهم رمزا للصمود البحري في وجه الغزاة. ولكن البرتغاليين الخائنين قد أوقعوا الملك السامري في مكيدتهم الدنيئة، حيث وقع الملك السامري معاهدة مع القوة الاستعمارية، وساعدها لاغتيال أمير البحر كونجالي ماراكار. وهذه الصفحة عن أسرة ماراكار، تعد من الصفحات الحمراء في تاريخ المكافحة الهندية ضد القوة الاستعمارية البرتغالية في القرون الوسطى.

أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

(١) المجزرة المليباريّة (١٥٠٢م) تعد واحدة من أبشع الجرائم الاستعمارية ضد الحجاج المسلمين؛ حيث أقدم البرتغاليون على قتل قرابة ٣٠٠ حاج بوحشية، بعد نهب السفينة والاعتداء على ركابها، ما يكشف عن البعد الدموي في المشروع الاستعماري البرتغالي.

(٢) العداء البرتغالي ضد المسلمين لم يكن عسكريًا وتجاريا فقط، بل كان دينيا أيديولوجيا أيضا، إذ ارتبط بدوافع صليبية صريحة هدفت إلى إقصاء المسلمين من طرق التجارة البحرية ونشر المسيحية بالقوة.

(٣) المصادر التاريخية الهندية والعربية

قصّرت في توثيق تفاصيل المجزرة، حيث تغيب بيانات دقيقة عن أسماء القتلى وأوضاعهم الاجتماعية، مما يجعل من الصعب إعادة بناء المشهد الإنساني الكامل للكارثة.

(٤) الرواية الأوروبية للمجزرة صورتها على أنها انتصار بحري، ما يعكس التحيز الاستعماري في كتابة التاريخ، ويبرز الحاجة إلى قراءة نقدية تكشف الجانب الإنساني والديني المغيب.

(٥) المجزرة لم تغب فقط عن الذاكرة الإسلامية العامة، بل حتى عن الذاكرة الهندية المحلية، إذ لم يعتنِ بها إلا بعض المؤرخين المسلمين، بينما تجاهلتها السرديات الوطنية الرسمية.

(٦) تاريخ الحج من الهند يوضح عمق الارتباط الروحي للمسلمين الهنود بالحرمين الشريفين، حيث لم تكن الرحلة مجرد عبادة فردية، بل تجسيدًا لهوية دينية جامعة، وهو ما جعلها هدفًا للهجمات الاستعمارية.

(٧) المجزرة تمثل مثالا صارخا على التداخل بين الحج والسياسة الدولية والتجارة البحرية، إذ لم تكن رحلة الحج معزولة عن صراعات القوى الكبرى في المحيط الهندي.

(٨) إعادة إحياء هذا الحدث يسهم في سدّ فجوة في الذاكرة التاريخية الإسلامية والهندية، ويؤكد ضرورة كتابة تاريخ بديل يبرز معاناة المسلمين تحت الاستعمار الأوروبي.

الخاتمة

توصلت هذه الدراسة إلى ختامها، بعد أن كشفت النقاب عن صفحة منسية من صفحات تاريخ مواكب الحج من الهند، وهي مجزرة شنيعة قل أن يوجد لها نظير في التاريخ العالمي. وهذه الواقعة لا تزال تدمي الذاكرة الإسلامية منذ أن وقعت سنة ١٥٠٢ ميلادية. ومن خلال التفصيلات التي أتى بها الباحث في هذه المقالة، يتبين بأن هذه الحادثة لم تكن مجرد حدث تاريخي في سياق توسيع النطاق الاستعماري البرتغالي في القرون الوسطى، بل هي حادثة ذات أبعاد متعددة، دينيا واقتصاديا وسياسيا تستحق المزيد من البحث والدراسات المتعمقة. وهذه المقالة تبين للقارئ العربي، العداء الصريح الذي حمله المستعمرون ضد المسلمين، وهذه العداوة لم تقتصر على إقصاء المسلمين من هيمنة التجارة في المحيط الهندي، بل هي تتجاوز إلى بُعد أيديولوجي يتمثل في رغباتهم الدينية الصليبية. إن المصادر التاريخية ـ سواء العربية أو المحلية ـ قصرت في توثيق هذه المجزرة بجميع تفاصيلها، مما جعل هذه الكارثة شبه غائبة عن الذاكرة التاريخية. أما المصادر البرتغالية والأوروبية فقد جعلها في إطار 'انتصاراتها البحرية' في المحيط الهندي.

الهوامش

١. سيلان (Ceylon)، هي جزيرة تقع في المحيط الهندي بجنوب الجمهورية الهندية.

٢. المليباري، الشيخ أحمد زين الدين المعبري. تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين. تحقيق محمد سعيد الطريحي. (بومباي، المركز

الثقافي العربي الهندي. ١٩٨٥م.) ص: ٢٢٤

٣. الندوي، أبو الحسن علي الحسني. المسلمون في الهند، (المجمع الإسلامي العلمي. لكناؤو، الهند. الطبعة الثالثة، ٢٠١٧م.) ص: ١٢-١٣.

4. Nasri, Md Jalees Akhtar. Indian Muslims: Their Customs and Traditions during Last Fifty Years. Thesis submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the award of the degree of Doctor of Philosophy. New Delhi. 2010. P:24

٥. القاسمي، الدكتور سلطان محمد. البرتغاليون في بحر عمان، أحداث في حوليات، من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م، (المجلد الأول. منشورات القاسمي، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة. ٢٠٢٥م.) ص: ٧-٨.

٦. النمر، عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند. (دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى. بيروت، لبنان. ١٩٨١م.) ص: ٤٢١

7. Logan, William, and William Logan. Malabar Manual. Translation TV Krishnan. (11th Edition. The Mathrubhumi Printing and Publishing Co. Ltd, Kozhikkode, 2017.) Page: 208

٨. القاسمي عبد الغفور عبد الله، ص: ٦١

٩. القاسمي، عبد الغفور عبد الله، ص: ٦١

١٠. المصدر السابق ص: ٦٢.

١١. النمر، ص: ٢٠٨

١٢. المصدر السابق، ص: ١٩٠ - ١٩١

١٣. الندوي، دكتور صاحب عالم الأعظمي، مقال "تاريخ رحلات الحج الهندية قديما وحديثا" نشر في موقع أشراف الحجاز. https://www.al-amir.info/inf4/include/plugins/article/article.php?action=s&id=1874

١٤. المصدر السابق

١٥. الندوي، دكتور صاحب عالم الأعظمي، مقال "تاريخ رحلات الحج الهندية قديما وحديثا" نشر في موقع أشراف الحجاز. https://www.al-amir.info/inf4/include/plugins/article/article.php?action=s&id=1874

١٦. النمر، ص: ٣٣٥

١٧. المصدر السابق، ص: ٣٣٦

١٨. المصدر السابق، ص: ٣٣٧.

١٩. المليباري، الشيخ أحمد زين الدين المعبري. ص: ٢٦٢-٢٦٣.

20. Kooria, Mahmood. “Killed the Pilgrims and Persecuted Them”: Portuguese Estado da India’s Encounters with the Hajj in the Sixteenth Century. The Hajj and Europe in the Age of Empire. Edited by Umar Ryad. (Brill, Leiden. 2017. Page: 23).

21. Michael Pearson. Pious Passengers: The Hajj in the Earlier Times (Delhi: Sterling

Publishers; London: C. Hurst and Co., 1994). Page: 95-89.

22. Kooria. P: 24.

٢٣. القاسمي، عبد الله المليباري. ص: ٦٢.

24. Anonymous, Calcoen: A Dutch Narrative of the Second Voyage of Vasco Da Gama to Calicut. Printed at Antwerp circa 1504, trans. With intro. J.Ph. Berjeau (London: Basil Montagu Pickering, 1874), unpaginated.

25. Kooria. Page: 24

26. Qadiri, Dr Shamsulla. PRACHEENA MALABAR. Originally Published in Urdu by Aligarh Muslim University Press in the year 1930 under the tittle MALABAR. Translated into Malayalam by V. Abdul Qayyum. (Other Books, Third Edition, Calicut, India. 2021.)Page: 93.

٢٧. القاسمي، عبد الله المليباري. ص: ٦٦

٢٨. مجيب ي. ك. مقامومة كتاب كيرالا باللغة العربية ضد الاستعمار الغربي، رسالة جامعية قدمت إلى قسم اللغة العربية وآدابها، في الجامعة الملية الإسلامية، لنيل شهادة الدكتوراه، (جمهورية الهند. السنة غير معروف،) ص: ٨٠-٨١.

المصادر والمراجع

- حجازي، نسيم. فاتح السند: محمد بن قاسم، ترجمه الدكتور ظهور أحمد أظهر. لاهور. قومي كتب خانه، جمهورية باكستان. ١٩٨٠م.
- فاروقي، ثريا. حجاج وسلاطين: الحج أيام العثمانيين. ترجمه الأستاذ الدكتور أبوبكر أحمد باقادر. بيروت. المركز الدولي للخدمات الثقافية. الطبعة الأولى، لبنان. ٢٠١٠م.
- القاسمي، الأستاذ عبد الغفور عبد الله. المسلمون في كيرالا. مكتب أكمل للكتب، مالابورام، الهند. الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.
- القاسمي، سلطان محمد بن صقر. البرتغاليون في بحر عمان، أحداث في حوليات، من ١٤٩٧م إلى ١٧٥٧م، المجلد الأول. منشورات القاسمي، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة. ٢٠٢٥م.
- الكاليكوتي، القاضي محمد بن عبد العزيز. الخطبة الجهادية. مخطوطة، بدون تاريخ.
- مجيب ي. ك. مقامومة كتاب كيرالا باللغة العربية ضد الاستعمار الغربي، رسالة جامعية قدمت إلى قسم اللغة العربية وآدابها، في الجامعة الملية الإسلامية، لنيل شهادة الدكتوراه، جمهورية الهند. السنة غير معروف.
- المليباري، الشيخ أحمد زين الدين المعبري. تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين. تحقيق محمد سعيد الطريحي. بومباي، المركز الثقافي العربي الهندي. ١٩٨٥م.
- المليباري، الشيخ زين الدين بن علي المعبري. تحريض أهل الإيمان على جهاد عبدة الصلبان. قسم اللغة العربية كلية فاروق، كاليكوت. الهند. ٢٠٠٨م.

- الندوي، أبو الحسن علي الحسني. المسلمون في الهند، المجمع الإسلامي العلمي. لكناؤو، الهند. الطبعة الثالثة، ٢٠١٧م.
- النمر، عبد المنعم، تاريخ الإسلام في الهند. دار النشر للجامعات، الطبعة الأولى. بيروت، لبنان. ١٩٨١م.
- نوح، أ.د. سمير عبد الحميد إبراهيم. موكب حج شبه القارة الهندية وآثاره العلمية والثقافية، في مؤتمر عقدتها وزارة الحج تحت المحور "مواكب الحج في التراث الإسلامي: دورس وعبر". المملكة العربية السعودية، ٢٠١٢م.

المصادر في اللغة الأجنبية

1. Anonymous, Calcoen: A Dutch Narrative of the Second Voyage of Vasco Da Gama to Calicut. Printed at Antwerp circa 1504, trans. With intro. J.Ph. Berjeau (London: Basil Montagu Pickering, 1874),
2. Kooria, Mahmood. “Killed the Pilgrims and Persecuted Them”: Portuguese Estado da India’s Encounters with the Hajj in the Sixteenth Century. The Hajj and Europe in the Age of Empire. Edited by Umar Ryad. Brill, Leiden. 2017.
3. Logan, William, and William Logan. Malabar Manual. Translation TV Krishnan. 11th Edition. The Mathrubhumi Printing and Publishing Co. Ltd, Kozhikkode, 2017.
4. Nasri, Md Jalees Akhtar. Indian Muslims: Their Customs and Traditions during Last Fifty Years. Thesis submitted to Jawaharlal Nehru University in partial fulfillment of the requirements for the award of the degree of Doctor of Philosophy. New Delhi. 2010.
5. Pearson, Michael Naylor. Pious Passengers: The Hajj in Earlier Times. London: Hurst & Company, 1994.
6. Qadiri, Dr Shamsulla. PRACHEENA MALABAR. Originally Published in Urdu by Aligarh Muslim University Press in the year 1930 under the tittle MALABAR. Translated into Malayalam by V. Abdul Qayyum. Other Books, Third Edition, Calicut, India. 2021.

التراث الثقافي غير المادي في المغرب

الصناعات الحرفية التقليدية أنموذجًا

د. سعيد الأشعري

أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول بوجدة - المغرب

المقدمة

يُقصد بالتراث الثقافي غير المادي، ويُطلق عليه أيضًا "التراث الحي"، مجموع العادات والتقاليد والممارسات والفنون والمعارف والمعتقدات التي تنتمي إلى فئة معينة من الناس، وتتميز بالأهمية الثقافية، والاجتماعية، والتاريخية، والوجدانية. ويتضمن هذا التراث عددًا من الأنماط الثقافية التي يتم تمريرها من جيل إلى آخر، وتشمل اللغات والشعر والموسيقى والرقص والألعاب التقليدية والمهرجانات والطقوس والممارسات الدينية والحرف اليدوية والطبخ التقليدي والأطعمة والمشروبات التقليدية والأزياء والمجوهرات وفنون العمارة والديكورات والحكايات والأساطير الشفوية والتراث العلمي والطبي والزراعي والبيئي والفلكلور.

يعد التراث غير المادي جزءًا مهمًا من التراث الثقافي لأي مجتمع، ويعد وسيلة للتعبير عن هويته وثقافته، ويسهم الحفاظ على التراث الثقافي اللامادي للأجيال القادمة في تمكين المجتمع من الاستمرار في الممارسات والتقاليد الثقافية والفنون التي تميزه. كما يعد التراث غير المادي موردًا للتنمية المستدامة والسياحة الثقافية والتعاون الثقافي بين الدول والشعوب. وتعد الصناعات الحرفية التقليدية جزءًا أساسيًا من التراث الثقافي غير المادي. وسنحاول في هذه المقالة الموسومة بالتراث الثقافي غير المادي في المغرب: الصناعات الحرفية التقليدية أنموذجا، التعريف بأهم الصناعات الحرفية التقليدية التي يشتهر بها المغرب. وذلك في ضوء الإشكالية الآتية: إلى أي حد تمثّل الصناعات الحرفية التقليدية بالمغرب تجسيدًا حيًا للتراث الثقافي غير المادي؟

١. مفهوم الصناعات الحرفية التقليدية

قبل البدء في مناقشة مفهوم الصناعات الحرفية التقليدية وذكر أهم الحرف التقليدية الموجودة في

المغرب، يجب توضيح الفرق بين مصطلحي "الحرفة" و"الصناعة" بشكل عام. فالحرفة هي عملية إنتاج يدوية تقليدية للمنتجات الصغيرة والمتخصصة باستخدام المهارات التقليدية والأدوات اليدوية أو البسيطة، بينما الصناعة هي عملية إنتاج تكنولوجية وصناعية تستخدم المعدات والآلات الحديثة والتقنيات المتقدمة لإنتاج المنتجات بكميات كبيرة.

تختلف الحِرفة عن الصناعة في عدة جوانب أساسية؛ إذ تتميز الحِرفة بإنتاج محدود من المنتجات مقارنة بالصناعة التي تقوم على الإنتاج الكمي الواسع. كما تعتمد الحِرفة أساسًا على المهارات اليدوية والخبرة الفردية والأدوات البسيطة، في حين ترتكز الصناعة على استخدام الآلات والمعدات الحديثة والتقنيات المتطورة. ومن حيث طبيعة الإنتاج، تميل الحِرف إلى تقديم منتجات متخصصة وفريدة تحمل طابعًا مميزًا، بينما تركز الصناعة على إنتاج سلع عامة ومتعددة الاستعمالات. وينعكس هذا الاختلاف أيضًا على التكلفة، حيث تكون المنتجات الحرفية غالبًا أعلى سعرًا نتيجة ارتفاع كلفة العمل اليدوي والمواد الخام مقارنة بالمنتجات الصناعية. ومع ذلك، يمكن أن يتداخل المفهومان في بعض الأحيان، حيث يتم استخدام التقنيات الحديثة في الحرفة، ويتم تصنيع المنتجات المتخصصة في الصناعة.

تشمل الصناعات الحرفية التقليدية كل الأنشطة التي يمارسها الحرفيون، ومختلف الصنائع والخدمات المعروفة في الوسط التقليدي، وقد اختلفت الدراسات في تعريف مفهوم الصناعة التقليدية، بالإضافة إلى الاختلاف في اعتماد مصطلح موحد لهذه الصناعات. إذ إن بعض الدراسات تعتبرها صناعة تقليدية، وأخرى تعتبرها حِرفا أو حِرفا تقليدية ويعتمد البعض الآخر مصطلح الصناعات الحرفية التقليدية، حيث إن الصناعات الحرفية ليس بالضرورة أن تكون تقليدية. ومن المسميات التاريخية التي وردت في كتب البكري وابن خلدون والوزان كلمة "الصنائع"[1]، وهو تعبير دقيق غالبا ما يأتي في صيغة الجمع ومفرده صنعة. وفي هذا يقول صاحب المقدمة: "تنقسم الصنائع إلى ما يختص بأمر المعاش، ضروريا كان أو غير ضروري، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان، من العلوم والصنائع والسياسة. ومن الأول الحياكة والجزارة، والنجارة، والحدادة، وأمثالها. ومن الثاني الوراقة، وهي معاناة الكتب بالانتساخ والتجليد، والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك، ومن الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم"[2].

ومن البديهي أن عدم وجود تعريف واضح للحرف والصناعات التقليدية له آثار سلبية على المستوى العملي إذ إن ذلك يحد من تطويرها، ويحول دون جمع بيانات ومعلومات خاصة عنها، وعن مكان تواجدها وانتشارها، فهي لا تتوفر على بيانات مستقلة في الإحصاءات التجارية الدولية. ونتيجة لذلك لا يمكن للدول معرفة كمية صادراتها من هذه المنتجات الأمر الذي يعيق دراسة مدى تأثير هذا القطاع على الاقتصاد وكيفية تطويره، وحتى إن توفرت هذه البيانات فإنها ليست بالدقة المطلوبة.

وناهيك عن ذلك، فإن الصناعات الحرفية التقليدية تواجه تحديات أخرى من قبيل تغير

الأساليب الحديثة للإنتاج والتكنولوجيا وزيادة المنافسة من قبل الصناعات الأخرى. وتأتي هذه الإكراهات في ظل انتشار العولمة وتوحيد الأسواق العالمية، والتي تشجع الشركات على تصنيع المنتجات بكميات كبيرة وبأسعار منخفضة، وبسبب هذه التحديات، كان لزاما على الحرفيين التكيف مع التغييرات في الاقتصاد والمجتمع وتحديد الطرق الجديدة للحفاظ على هذه الصناعات.

وبخصوص بعض الدراسات المختلفة في العالم التي اهتمت بهذا الموضوع نجد دراسة لبنانية جاء فيها أن "الصناعات التقليدية هي تلك الصناعات التي استمرت فاعلة بآليتها القديمة والتي تتميز بوضوح عن الصناعات الحديثة"[٣]. وتم تعريفها في دراسة أخرى على أنها "تلك الصناعات التي يقوم بمزاولتها الحرفي معتمدا في عمله على مهاراته الفردية الذهنية واليدوية التي اكتسبها من تطور ممارسته للعمل الحرفي، وذلك باستخدام الخامات الأولية المتوفرة في البيئة الطبيعية المحلية أو الخامات المستوردة بحيث يتم التعامل معها في الإنتاج بصورة يدوية أو باستخدام بعض الأدوات البسيطة"[٤].

وفي دراسة للصناعات الحرفية في العراق ورد لها التعريف التالي: "إنها صناعات محلية يغلب عليها الطابع اليدوي وهي شعبية متوارثة بين أفراد الأسرة تمارس في البيوت أو في أي مكان آخر، وعادة ما تعتمد هذه الصناعات على الإمكانات الطبيعية والبشرية المتاحة بغية الحصول على مجموعة من السلع والمنتجات؛ لتحقيق منافع تكون أكبر قيمة من الإمكانات المستخدمة لأجلها"[٥]. أما في دراسة أردنية فقد تم تعريفها على أنها "نوع من الصناعات تقوم بإنتاج سلع تستخدم لأغراض مفيدة أو للزينة ويتم تصنيعها يدويا أو باستخدام أدوات بسيطة وبطريقة تقليدية وتعكس هذه السلع دلالة ثقافية ودينية"[٦].

وجدير بالذكر أن الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة تبنت تعريفا خاصا للصناعات الحرفية التقليدية إذ تعرفها بأنها "تلك الصناعات التي يقوم بإنتاجها الحرفي بطريقة كاملة يدويا أو بواسطة أدوات يدوية وطرق ميكانيكية، وتعتبر مساهمة الحرفة اليدوية هي الحصة الأكبر في تكوين المنتوج النهائي وتشكل الجزء الأهم فيه. وتتميز الصناعات التقليدية بطبيعتها الخاصة فلها قيمة منفعية وجمالية وفنية وإبداعية، ولها صلة بالثقافة، وهي صناعة تقليدية ودينية وتعتبر رمزا اجتماعيا. تعتمد هذه الصناعات موادا أولية متوفرة بشكل مستمر ولا توجد قيود على كمية الإنتاج، ولا يشترط التطابق بين المنتجات النهائية إذ إن للصنع اليدوي الدور الأكبر في إنتاجها"[٧].

يبدو أن هذا التعريف الذي تبناه اليونسكو وأغلب التعاريف السالفة الذكر تم التركيز فيها على البعد الثقافي والديني والاجتماعي للصناعة التقليدية، وأهمل البعد الاقتصادي عكس ما نجده عند ابن خلدون الذي يعتبر الكسب من الصناعة هو الدافع إلى تعلمها. وهذا البعد يتضح لنا في مقدمته بقوله: "والسبب في ذلك ظاهر، وهو أن الإنسان لا يسمح بعمله أن يقع مجانا لأنه كسبه، ومنه معاشه إذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه، فلا يصرفه إلا فيما له قيمة في مصره ليعود عليه بالنفع، وإذا كانت الصناعة

مطلوبة وتوجه إليها النَفَاق كانت حينئذ بمثابة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فيجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة ليكون منها معاشهم"[٨].

ونفس الأمر نجده في لسان العرب لابن منظور "وأما الحرفة فهي اسم من الاحتراف وهو الاكتساب، يقال: هو يحرف لعياله ويحترف ويقرش ويقترش بمعنى يكتسب من ههنا وههنا... والحرفة الصناعة، وحرفة الرجل صنعته"[٩].

وتأسيسًا على ما سبق، يمكن القول إن الحرفة أو الصنعة هي كل نشاط إنتاج أو إبداع أو تحويل أو ترميم فني أو صيانة أو إصلاح يزاوله فرد أو مجموعة من الأفراد يدر عليهم ربحا ماديا، ويعتمدون فيه على المادة المحلية الطبيعية بالطرق التقليدية بهدف استخدامها في الاحتياجات اليومية أو لغرض الاقتناء ويعتمد الحرفي أو الصانع التقليدي في عمله على مهاراته الفردية اليدوية أو الذهنية، وهي أيضا مهارة خاصة وقدرة شخصية على التفنن في صنع الأشياء يدويا، والأكيد أن هذا الفن مرتبط بوجدان الشعب، وقيمه وعاداته ومعتقداته، إذ نجد عدة أمثال في المتخيل الشعبي المغربي مثل "صنعة بوك ليغلبوك"، "الصنعة إلى ما غنات تستر"، وفي مثل آخر "الصنعة إلى ما غنات تزيد في العمر".

٢. الصناعات الحرفية التقليدية في المغرب، تراث حي وعريق

تعد الصناعات الحرفية التقليدية جزءا من التراث الشعبي المغربي، وإحدى المكونات الأساسية للشخصية المغربية المبدعة، حيث يعتبر المغرب موطن هذه الصناعة. فهي الوسيط الحي والخالد بين الماضي والحاضر يستقبلها العالم في صورة منتوج يحمل في طياته رسالة تعكس ذوقا فنيا وتراثا غنيا، ويحضن جزءا مهما من تاريخ الشعوب التي عاشت في المغرب وحضاراته، فهاته الصناعة تعكس ثقافة وتقاليد الشعب الذي يمارسها. وتتميز بأنها تنتج منتجات فريدة ومتميزة، كما أنها تتسم بالجودة والتصميم الفريد، وتعكس العمل اليدوي والمهارات الحرفية التقليدية، وهي مكون أصيل للذاكرة الحضارية ورصيد ومخزون للخبرات الحياتية والإمكانيات الإنتاجية الذاتية المتوفرة داخل كل مجتمع محلي.

كما تبرز أهمية الصناعة التقليدية من كونها تشكل الهوية الثقافية التي تميز أي شعب عن غيره، "فالهوية ما هي إلا تراكمات تفاعل الإنسان مع المتغيرات البيئية الاجتماعية والثقافية التي تشكل لنا ما يسمى بالتراث، وهناك من يعتبر التراث هو نفسه الهوية الثقافية للأمة"[١٠]. وبهذا المعنى تكون الصناعة التقليدية ذات أهمية قصوى في الحفاظ على ثقافة وحضارة الشعوب.

تختزن الصناعات الحرفية التقليدية تراثا ثقافيا وحضاريا عريقا ضاربا جذوره في التاريخ المغربي الحافل بالأمجاد والبطولات. ولذلك ينبغي معرفة تاريخ الصناعة التقليدية بالمغرب، باعتبارها جزءا لا يتجزأ من التراث والهوية الحضارية للمغرب، ورمزا راسخا للأصالة المغربية المطبوعة بالتنوع الثقافي والحضاري، التي اغتنت أيما اغتناء بالعبقرية المبدعة للحضارات التي ظل المغرب ملتقى خصبا لها منذ العهد الفينيقي إلى التأثير الثقافي الأوروبي مرورا بالفتح الإسلامي. وبطبيعة

الحال، فالصناعات الحرفية التقليدية تعبر عن هوية المغرب الذي يزخر بتاريخ عريق ويتميز بخصوصيات حضارية وثقافية. إن تطور الصناعة التقليدية في المغرب قطع مراحل عدة منذ بداية التاريخ المسجل في شمال أفريقيا[١١] مع الفينيقيين ثم الرومان مرورا بالفتح الإسلامي، وانتهاء بالعصر الراهن. إذ نتج عن تعاقب هذه الحضارات تلاقح وترسيخ لمعالم حرف مغربية متنوعة وغنية وحفظ لتراث يحمل خصوصيات شعوب وجماعات ومرجعا لهوية ثقافية وحضارية عريقة.

ولا مناص من القول إن الصناعات الحرفية التقليدية تشكل تراثا تاريخيا وإنسانيا يبرز مظاهر ومعالم الحضارة المغربية التي تشهد بالمستوى الفكري الرفيع الذي وصل إليه الإنسان المغربي في مختلف الحقب. إذ تعاطى المغاربة لهذه الحرف منذ القدم، وبذلك ورثت بلاد المغرب صناعة تقليدية أصيلة ومتنوعة في مختلف المدن.

ولعله من المفيد أن نؤكد على أنه كانت للصناعات الحرفية التقليدية بالمغرب أسواق وأحياء، ذلك أن المدن العتيقة ظلت تتوفر دائما على أحياء خاصة بالصناع التقليديين. إذ اشتهرت بفاس أحياء مثل النجارين والحدادين وصانعي الأحذية، وبالرباط أحياء مثل الدباغين والصباغين وصناع الزرابي، وكذلك الشأن بوجدة ومراكش وتطوان والصويرة وآسفي وسلا والريف الشرقي. وقد ذكر الحسن الوزان في كتابه (وصف إفريقيا) الأسواق والأحياء المختلفة المخصصة للحرف بفاس، إذ كان تقسيم الحرف عبارة عن تنظيم تقليدي يراعى فيه مجال البيئة.

وعلاوة على ذلك، تعتبر الصناعات الحرفية التقليدية من أوثق عناصر التراث الشعبي ارتباطا بالإطار الاقتصادي والاجتماعي. لكن، مع تغير طبيعة الهيكل الاقتصادي الاجتماعي وتغير العمل والأدوات كانت النتيجة الطبيعية أن تختفي بعض الحرف والصناعات التقليدية أو على الأقل بدأت في التدهور بشكل تدريجي. ونتيجة لذلك أصبحت هذه الصناعات تمر بمرحلة حرجة تتفاوت في فرص البقاء والاستمرار من دولة لأخرى بسبب التطور التقني والتكنولوجي الذي تشهده معظم تلك الدول، أو لتدني وانعدام الحاجة للعديد من المنتجات التقليدية نتيجة تغير نمط ومستلزمات الحياة العصرية، ونتيجة لوفرة مثيلاتها المصنعة ميكانيكيا أو المتوفرة بأسعار مخفضة عما يمكن صنعه يدويا.

وبما لا يدع مجالا للشك، فإن هذا التغيير في طبيعة الصناعة نفسها أدى بشكل واضح إلى عزوف الكثير من العاملين في هذا المجال عن العمل في مناطق عدة بالمغرب، والبحث عن سبل كسب أخرى تعود عليهم بما يحتاجون إليه من عوائد مالية ومكانة اجتماعية أفضل. ورغم هذه التحديات الكبرى التي تطرحها العولمة وتهدد بقاء الصناعات الحرفية التقليدية، فإن القائمين على هذا القطاع يبذلون قصارى الجهود من أجل الحفاظ على الاستمرارية. إذ تعمل الحكومة المغربية على تعزيز الحرف التقليدية وتطويرها، من خلال تشجيع الإنتاج والتدريب وتحسين الجودة والترويج للمنتجات. وبالإضافة إلى دعم الحكومة، يلعب المجتمع المدني دورًا مهمًا في الحفاظ على الحرف التقليدية في

المغرب، من خلال دعم الحرفي ماديا ومعنويا من خلال إنشاء التعاونيات الحرفية.

وبطبيعة الحال، فإن هذا القطاع يمثل وجها ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا ساهم بشكل كبير في الحفاظ على التراث وصيانة التقاليد باعتباره فنا جماليا وتراثا حضاريا له أبعاد اقتصادية في خلق الثروات، ومناصب الشغل وكذلك تحقيق توازن الأنشطة في المحيط الريفي والمحيط الحضاري

٢. أبرز الصناعات الحرفية التقليدية في المغرب

- **حرفة الحدادة**

تعد حرفة الحِدادة من الحرف القديمة والتقليديّة التي عرفها الإنسان، وطوّع فيها الحديد لصالحه، فقد صنع المواد الحادة كالسكين، واستخدمها في تقطيع الثمار، والبحث عن الغذاء، كما اهتم الحدادون قديماً بصنع السيوف، والدروع، والسلاسل الحديديّة وغيرها. يقول مصطفى الغديري في هذا الصدد: "يقال لها في التعبير الشعبي تـاحـدّادت، وفي الأمازيغية إحـدّادن، وهي حرفة من يصنع الأدوات الحديدية أو يقوم بإصلاحها كالفؤوس بأنواعها، والسكاكين، والحدائد والسكك للحراثة، والأجراس والأقفال والمفاتيح التقليدية، والسواطر والمناجيل، وجميع آلات الحفر والغرس والبستنة، وصنع صفائح الـدواب وتركيبها في حوافر الخيول والبغال والحمير"[١٢].

تمتاز مهنة الحدادة بأنها ليست معقدة أو مكلفة، مثل العديد من الحرف التقليدية. يحتاج الحداد فقط إلى المطرقة والسندان وإلى الفحم الخشبي أو الحجري لصهر بعض الأجزاء من الحديد، ويترك الأمر لخياله ليبتكر أشكالاً فريدة. ومع ذلك، فإن الحدادة تتطلب بعض المهارات والقدرات الخاصة للتعامل مع فرن النار البلدي، الذي يمثل الآلة الأساسية التي يستفيد الحداد منها. بالإضافة إلى ذلك، يحتاج الحداد إلى صبر وقوة بدنية ومهارات، وإلى نفاخ يقوم بنفخ الهواء بشكل مستمر، عن طريق تحريك سلسلة الرابوز لزيادة الهواء وتعزيز اشتعال النيران لصهر الحديد بشكل أسرع وأسهل. تقتصر ممارسة هذه الحرفة على الرجال فقط لأنها تحتاج إلى صبر وقوة بدنية ونشاط.





صناعة الفخار

تعد صناعة الفخار في المغرب من الصناعات التقليدية القديمة المشهورة في مختلف المناطق، ولاسيما في المناطق الشمالية الغربية مثل مدن فاس ومكناس وتيزنيت والصويرة وغيرها. لقد تم استخدام الفخار منذ العصور الأولى وذلك عن طريق تحويل الطين إلى مادةٍ متماسكة وصلبة باستعمال النار. وفي الوقت الحاضر، تطورت صناعة الفخار وزاد الإقبال على استخدام الأواني الفخارية من قِبل الطُهاة. وبالإضافة إلى ذلك فإن الفخار يستخدم أيضاً في صناعة أشكال متعددة من الزهور والزخارف. وتتميز صناعة الفخار في المغرب بتقنياتها التقليدية والفنية الرائعة، والألـوان الجميلة التي تعكس الثقافة المغربية الغنية.

وبطبيعة الحال، فـإن صناعة الفخار في المغرب تستخدم مواد خام متنوعة، مثل الطين والحجر الجيري والرمل والطوب والطين المخلوط بالقش والخشب، وتستخدم أدوات متنوعة لتشكيل ونحت الفخار، مثل العجلات الخزفية والأدوات اليدوية.



يتم صنع الفخار عادةً من طين الفخار المختلط بالماء ويتم تشكيله يدويًا أو باستخدام الآلات، ومن ثم يتم تركيبه ليجف في الهواء. وعندما يكون الفخار جافًا بشكل كامل، يتم وضعه في فرن وتسخينه إلى درجة حرارة معينة لتحويله إلى مادة صلبة ومتينة.



تتميز منتجات صناعة الفخار في المغرب بأنها متنوعة وتأخذ صورة أشكال وأحجام وألوان مختلفة، وتشمل الأواني المنزلية مثل الصحون والأطبـاق والأكــواب والمصافي وغيرها، بالإضافة إلى القطع الزخرفية والديكورية.



تشتهر بعض المدن المغربية بصناعة الفخار، مثل مدينة فاس التي تشتهر بصناعة الفخار الأزرق والأخضر والأبيض، ومدينة تيزنيت التي تشتهر بصناعة الفخار الأحمر والأسود. كما أن هذه الصناعة تعتبر موردًا هامًا للدخل في العديد من المناطق في المغرب، وتساهم في توفير فرص العمل للعديد من العمال والحرفيين المحليين، وتعكس صناعة الفخار وجها من وجوه الإبداع الحرفي المغربي. وأصبحت أشكال الفخار من الأدوات التي تحمل دلالات رمزية مستوحاة من الطبيعة، إذ إن لها أشكالا متعددة وتختلف باختلاف الصناع التقليديين والمناطق التي ينتمون إليها.

ومن المعلوم أن صناعة الفخار تعد إحدى أقدم صناعات الإنسان والحرف اليدوية، حيث بدأت كحاجة أساسية للإنسان في الحفاظ على الطعام وتخزينه، كما استُخدمت الأوعية الفخارية لحفظ السوائل أو لتقديم الطعام فيها.

صناعة الخزف بالمغرب

تعد صناعة الخزف في المغرب نوعًا آخر من الفنون التقليدية في المملكة، وتمتاز بتنوعها الكبير وجودة منتجاتها. تعتمد هذه الصناعة على مهارات الحرفيين المحليين الذين يعملون بجد لصنع الخزف الجميل والمتين.

تعد مدينة فاس في المغرب واحدة من أشهر المدن العريقة في صناعة الخزف، حيث تشتهر بإنتاج الخزف الأزرق والأخضر. كما أن مدينة مكناس وتمارة وسلا وأسفي وأكادير والصويرة ومراكش وميدلت وورزازات وكلميم وتيزنيت وكثير من المدن الأخرى في المغرب تعتبر أيضًا مراكز رئيسية لصناعة الخزف.

ولا بد من الإشارة إلى أن صناعة الخزف تعتمد على مهارة الحرفي في الاختيار الدقيق للمواد الخام وتشكيلها بمهارة وإتقان ليصنع قطعة فنية جميلة وذات جودة عالية. وتتضمن المواد الخام التي يمكن استخدامها في صناعة الخزف الطين الأحمر والأبيض والأسود والأصفر، والكاولين[١٣] والفلسبار[١٤] والحجر الجيري والرماد البركاني والميكا[١٥]. وتتميز عمليات إنتاج الخزف في المغرب بتنوعها، حيث تشمل الصب والدوران والصقل، والرش، والتزيين، والطلاء.

تتمتع منتجات صناعة الخزف في المغرب بأشكال فنية جميلة وألوان زاهية، وتشمل العديد





من الأشياء المنزلية مثل الأطباق والصحون والأكـواب والمصافي والأوانـي الزخرفية والديكورية مثل التماثيل والمصابيح والأنابيب، والخواتم، والأقراط، وغيرها.

تتميز منتجات صناعة الخزف بالألوان الزاهية والتفاصيل الدقيقة والتصاميم الفريدة، وتستخدم في الديكورات الداخلية للمنازل، والفنادق، والمطاعم، وغيرها. وتعد صناعة الخزف في المغرب مصدرًا هامًا للدخل وتساهم في توفير فرص العمل للعديد من الحرفيين والعمال، كما أنها تعكس الثقافة المغربية الغنية والتقاليد العريقة.

ولابد من الإشارة إلى أن صناعة الفخار والخزف ليستا صناعة واحدة، بل مختلفة، فالصناعات الفخارية يتم تشكيلها من الطين، أما الصناعات الخزفية فبالإضافة إلى الطين يضاف إليها مادة زجاجية وبعض الأصباغ.

حرفة المكرمية (Macramé)

حرفة المكرمية هي فن تصنيع الأقمشة والمنسوجات الجميلة بأنواعها المختلفة، ويشتهر بها عدد كبير من الدول العربية والإسلامية مثل اليمن ومصر وتونس، والمغرب، وسوريا، وغيرها. تتميز حرفة المكرمية بتقنية النسيج المتقنة والعمل الدقيق.

ويبدو أن أصل التسمية جاء من الكلمة التركية "مكرامة" وهي تعني الحجاب أو الخمار، أو المنشفة ذات الشراشيب المعقودة التي هي أساس التسمية. ولقد ذكرت في لسان العرب باسم القِرامُ والمِقْرَمة. يقول ابن منظور: "والقِرامُ: ثوب من صوف ملوّن فيه أَلوان من العِهن، وهو صفيق يتخذ سِتراً، وقيل: هو الستر الرقيق، والجمع قُرُم، وهو المِقْرَمة، وقيل: المِقْرمةُ مَحْبِس الفِراش. وقَرَّمَه بالمِقْرمة: حبسَه بها. والقِرام: ستر فيه رَقْم ونقُوش، وكذلك المِقْرَمُ والمِقْرَمة"(١٦).

لا شك أن فن المكرمية يحتاج إلى خيوط متينة ناعمة حتى لا تنقطع أثناء العمل، ويجب أن تكون الخيوط جيدة الغزل كاملة الاستدارة حتى يمكن الحصول على عقد مؤكدة نتوصل من خلالها إلى موجات من العقد تؤكد جمال الزخرفة، وسمك الخيوط يتوقف على العمل نفسه. أما اختيار اللون فأمر يحدده الإنسان حسب





العمل الفني وتستخدم الخيوط القطنية، أو الكتان، أو الحرير، أو الصوف، وتعد خيوط الكتان هي أفضل الخيوط الصالحة من الناحية الاقتصادية. وتستخدم خامات أخرى مثل خيوط النايلون والجلد وكذلك يمكن إضافة الخيوط المعدنية وكذلك يمكن إضافة كثير من الخامات مثل البلاستيك والخرز والأسلاك والحلقات الخشبية والأشكال المعدنية المختلفة؛ لتحصل في نهاية العمل على تشكيل فني يتسم بالتناسق والابتكار والجمال.

تستخدم حرفة المكرمية في تصنيع مختلف المنتجات مثل الستائر والأثـاث والملابس والإكسسوارات والأوشحة والمفارش وغيرها، وقد انتشرت هذه الحرفة في العديد من دول العالم بفضل جمالها وتنوعها.

صناعة السروج

صناعة السروج هي صناعة تقليدية في المغرب ولها تاريخ طويل في البلاد. تعتبر مدينة فاس من أبرز المدن في المغرب التي تشتهر بصناعة السروج وتعد من أهم المراكز الحرفية في البلاد. ويتميز صنع السروج في المغرب بالدقة والتفاني في العمل، حيث يتم استخدام الجلود الناعمة والخشب القوي والمتين في صناعة السروج. كما يتم استخدام الألوان الزاهية والتصاميم الفنية المتميزة في الزخرفة والتزيين.

أما فيما يخص تعريف هذا المصطلح فقد عرفه ابن منظور كما يلي: "السَّرْجُ: رَحْل الدابة، معروف، والجمع سُروج. وأَسْرَجَها إِسراجاً: وضع عليها السرج. والسَّرّاجُ: بائع السُّروجِ وصانعها، وحرفته السَّرَاجَةُ"(١٧). أي القُعْدة التي توضع على ظهر الحصان ليجلس عليه الراكب

تنقسم صناعة السروج في المغرب إلى عدة مراحل، بدءًا من تحضير الجلد والخشب وحتى الانتهاء من السرج الجاهز. إذ يتم استخدام أدوات يدوية تقليدية في هذه العملية مثل المطرقة، والمنشار، والمشبك، وغيرها.

يعد سوق السروج في مدينة فاس واحدًا من أشهر الأسواق التي تبيع السروج في المغرب، حيث يتم عرض السروج بأنواعها وأحجامها المختلفة بأسعار تناسب جميع الزبائن. بالإضافة إلى فاس، هناك مناطق أخرى في المغرب تشتهر بصناعة السروج، مثل مدينة مراكش وتارودانت وورزازات.







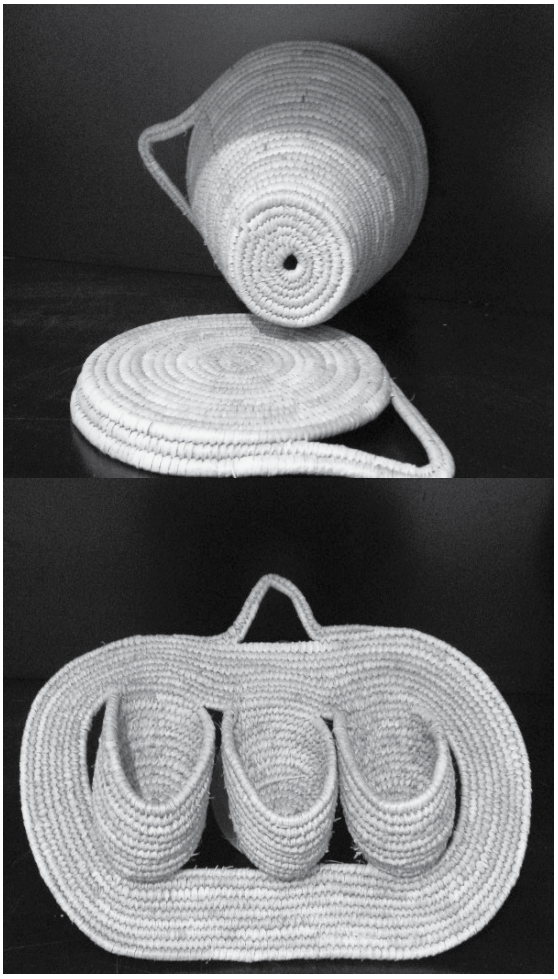
تشتهر صناعة السروج في المغرب في أوساط الصناع التقليديين، إذ يتمتعون بخبرة كبيرة في تصميم السروج والعناية بها. ويرجع ذلك إلى أن بعض السكان يعتمدون على الترحال بالدواب، وتعد السروج أداة أساسية لهم في مختلف الأغراض مثل الركوب والسباق والعمل. ومن ثم كانت السروج أنواعا مختلفة تتدرج من مجرد كساء يغطى به ظهر الدابة إلى سروج الفرسان المعدة خصيصا للاعتماد عليها عند إصابة الفارس برمح أو حربة، إذ يسند ظهره على سرج فرسه. وتوجد عدة أنماط من السروج كل منها يناسب مهمة خاصة. وتعد صناعة السروج من المصادر الهامة للعمل والدخل في هذه المناطق، وتمثل تراثاً ثقافياً هاماً في المغرب.

صناعة السلال

تعد صناعة السلال واحدة من أعرق الصناعات اليدوية في المغرب حيث صنعها الإنسان منذ أقدم العصور لاستخدامها كأوعية. وقد نسجها من الأعشاب، ومن أوراق النباتات وسيقانها مثل النخيل والبامبو والقصب. وتصنع السلال إما للاستخدام أو للزينة، إذ تكثر الحاجة إليها خاصة في البوادي، فيستعملها السكان لوضعها فوق الدواب لنقل الإمدادات من الأسواق الأسبوعية إلى المنزل.

تشتهر صناعة السلال في المغرب بالدقة والإتقان في الصنع، إذ يتم استخدام تقنيات تقليدية يدوية في عملية الصنع، وتعتبر هذه التقنيات من المهارات التي يتم توريثها من جيل لآخر. ويتميز الإنتاج بالتنوع في الأشكال والأحجام والتصاميم، بحيث تتوفر السلال بمختلف الأشكال والأحجام والألوان.

تنتشر صناعة السلال في العديد من المناطق بالمغرب، مثل مدينة تيفلت ومدينة الرباط وسلا، ومناطق أخرى. وتعتبر مدينة فاس أيضًا من



المدن الرئيسية التي تشتهر بهذه الصناعة.

الصناعة الجلدية

تعد الصناعة الجلدية واحدة من الصناعات الرئيسية في المغرب، حيث يمتلك الصناع المغاربة تقاليد قديمة في هذا المجال ويتميزون بالخبرة الواسعة والمهارات العالية في صناعة المنتجات الجلدية.

تتركز هذه الصناعة في المدن الرئيسية مثل مراكش وفاس والـدار البيضاء وطنجة، وتشتهر هذه المدن بصناعة المنتجات الفاخرة مثل الأحذية والحقائب والملابس الجلدية، كما تقوم بتصدير هذه المنتجات إلى العديد من الدول حول العالم.

تستعمل في المصنوعات الجلدية جلود الخرفان والماعز والبقر والإبل بعد مرورها بعملية الدباغة، وتعد هذه الحرفة من أقدم الحرف في المغرب حيث عرفت هـذه المنطقة منذ القدم بدباغة الجلود ومعالجتها، وإنتاج مختلف الحاجيات من حقائب نسائية وأحذية تقليدية وأحزمة، ويشترك في هذا العمل الرجال والنساء





معا حيث يقوم الرجال بدباغة الجلد وتقطيعه، أما النساء فيقمن بخيطه وتطريزه.

ويعمل القطاع الحرفي في المغرب على تطوير هذه الصناعة بشكل مستمر، حيث يتم الاستثمار في تحسين البنية التحتية وتعزيز الابتكار في تصميم وتصنيع المنتجات الجلدية، لتعزيز تنافسية المنتجات المغربية في الأسواق العالمية. وتعمل الصناعة الجلدية في المغرب على توفير فرص عمل للكثير من العمال، كما تعتبر مصدراً مهماً للعملة الصعبة بسبب التصدير الواسع للمنتجات الجلدية، بفضل الإقبال الكبير على المنتجات الجلدية من طرف السياح.

صناعة الحصير

تعد صناعة الحصير من الصناعات التقليدية في المغرب، وتوجد العديد من المناطق في المملكة المغربية التي تشتهر بهذه الصناعة مثل تافراوت وتزنيت وأكادير، والجديدة، والدار البيضاء، وغيرها.

يستخدم الحصير في العادة كفرش تقليدي،





ويستعمل في البيوت لتغطية الأرضيات أو الممرات أو الحدائق والشرفات ويستخدم أيضا في تصنيع الحقائب والملابس والأدوات المنزلية الأخرى. تعتبر صناعة الحصير التقليدي في المغرب من الصناعات البديعة والقديمة جدا، والتي تواجه منافسة قوية من قبل صناعة الحصير المصنع بالوسائل الحديثة؛ مما يجعلها عرضة لشبح الانقراض. وتعد هذه الصناعة من الصناعات الحاملة لرموز فنية وثقافية وتتميز كل منطقة بالمغرب بنموذجها التقليدي الخاص.

يصنع الحصير من نباتات تنبت في المروجة والبحيرات على شكل أغصان رقيقة تسمى (السمار) بألوان متعددة بالإضافة إلى خيوط أخرى. كما يتم استخدام مواد أخرى مثل الجوت والقصب والقطن والنايلون والبولي بروبيلين في صناعة الحصير. تتم صناعة الحصير عن طريق تشبيك الألياف النباتية أو الاصطناعية معًا وتضفي عليها شكلاً ثنائي الأبعاد على شكل قماش، وتُصنع في أحجام وأشكال مختلفة.

وتجدر الإشارة إلى أن صناعة الحصير في المغرب تعدّ مصدر رزق للكثير من العائلات الفقيرة في المناطق الريفية، إذ تعد من الصناعات الحرفية التي تحتفظ بالتقاليد والمهارات التراثية للمغاربة. والملاحظ أن الحرفيين في هذه الصنعة أصبحوا في تناقص مستمر وذلك بسبب ظهور الحصير المصنع آليا الذي أصبح ينافس بشدة المنتوجات المصنعة يدويا.

صناعة النسيج

تُعد صناعة النسيج من الحرف اليدوية الهامة في المغرب، ويعود تاريخها إلى قرونٍ عديدة. لقد بدأ الأمازيغ في ممارسة هذه الحرفة قبل التعرف على الحضارة الفينيقية. وتعتبر مدينة فاس في وسط المغرب أحد أبرز المراكز التي تشتهر بالصناعة النسيجية في المملكة، حيث تتوفر في البلاد موارد طبيعية غنية ومتنوعة تساعد على تطوير هذه الصناعة، مثل القطن والصوف والكتان والحرير والشعر الإبلي والألياف الاصطناعية.

ويشتهر الصناع الحرفيون في المغرب بإنتاج القماش المنقوش يدويًا باستخدام تقنية النسيج



بالصوف البربري، وتعتبر مدينة تازة في شمال المغرب مركزًا مهمًا لإنتاج السجاد والبسط التقليدية المغربية. ومن أبرز منتجات النسيج: الخمار واللحاف والزرابي التي تُنتج في مختلف القبائل المغربية، وتُعد أساس الأثاث المنزلي. ولقد تميزت مدينة سبتة أيضا فيما مضى بصناعة زرابي فاخرة وجميع أنواع المنسوجات التي كانت تتزود بها أقاليم إفريقيا وأوربا[١٨].

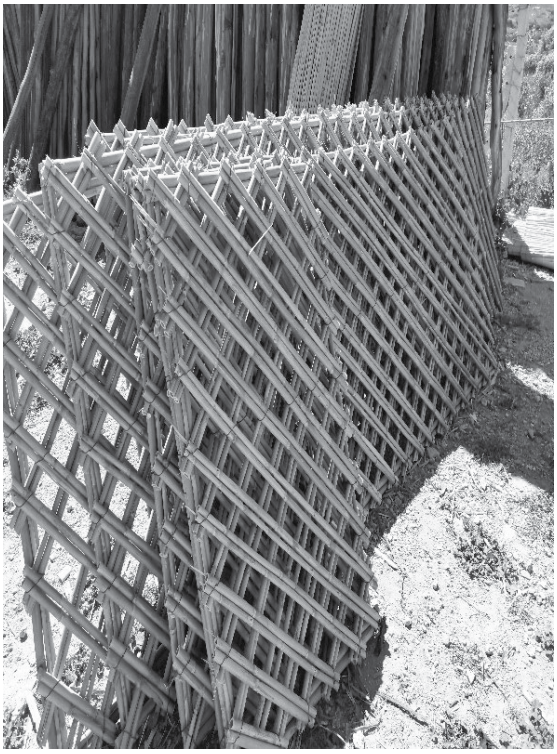
ويتألف النسيج من مادةٍ مرنةٍ تشكل شبكةً من الألياف الطبيعية والاصطناعية التي تُعرف باسم الخيوط. وتتم صناعة هذه الأخيرة بغزل ألياف الصوف الخام أو الكتان أو القطن، وألياف النسيج إما أن تكون ألياف طبيعية أو ألياف اصطناعية أما الأدوات المستخدمة في هذه الصناعة فهي المنسج وهو إطار خشبي تتم داخله عملية النسج، المسامير، المشط، مشط السجاد، الإبر والمقصات.

وتعمل الحكومة المغربية على دعم الصناعات الإبداعية، من خلال تقديم الدعم المالي والتقني للمنتجين، إلى جانب إنشاء مدارس ومعاهد لتدريب الراغبين في إتقان هذا المجال. وبالإضافة إلى ذلك، تبذل الحكومة جهودًا كبيرة لتطوير البنية التحتية المتعلقة بهذه الصناعة، وتعزيز التجارة الخارجية من أجل زيادة الصادرات وتعزيز النمو الاقتصادي.

صناعة القصب

يندرج القصب ضمن أنواع النبات، جاء في لسان العرب التعريف التالي: "القَصَبُ: كل نبات ذي أَنابيب، واحدتها قَصَبة، وكل نبات كان ساقه أَنابيب وكُعوبا، فهو قصَبٌ"[١٩]. لقد عرفت صناعة القصب كحرفة يدوية وشعبية في بدايتها في البوادي والقرى المغربية، وارتبطت بنمط الحياة التقليدية. ثم انتقلت إلى المدن لتصبح حرفة





معروفة لها تعاونيات تهتم بها، وتثمن منتوجاتها. وتشتهر مناطق مكناس وفاس وتطوان وسلا ومراكش بزراعة القصب وصناعته التي تقوم على الإبداع في اختلاق أشكال تناسب الديكورات القديمة والحديثة.

تعتمد هذه الصناعة على استعمال القصب الكبير الذي ينبت بشكل طبيعي أو الذي يتم استنباته في أماكن خاصة، وتختلف جودة القصب حسب عدة أصناف منها القصب العادي، وقصب الدفلة والقصب الهندي، كما يتم استخدام الدوم ضمن المواد المعتمدة في صناعة القصب ومن أهم مميزات هذه الحرفة؛ بساطة وسائل العمل، والطريقة المتبعة في صنع القصب، ومدى قدرة التحمل لدى صانع القصب الذي ينهمك في عمله بشكل جدي؛ لينجز منتوجات لا تخلو من إبداعات تستقطب الزوار والوافدين مثل السلال، والكراسي، والطاولات وغيرها.

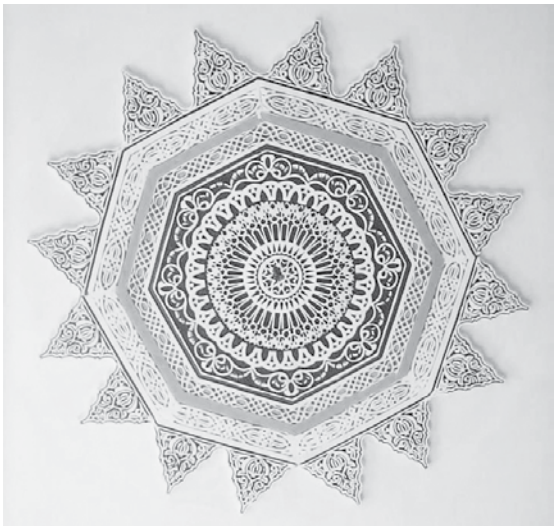
وعموما، ارتبط القصب في الذاكرة الشعبية بنمط الحياة التقليدية التي كانت سائدة في المدينة والقرية المغربية. ففي المنازل القديمة كان القصب يعلو سقوف المنازل يحميها من حر الصيف وبرد الشتاء. كما يعود تاريخ نشوء هذه الصناعة لمئات السنين، حيث كان المزارعون الذين يشتغلون في الحقول يبدعون من أعواد القصب في أوقات فراغهم قبعات قصبية صارت رموزا تراثية.

صناعة الجبس

تعد صناعة الجبس واحدة من الصناعات الهامة في المغرب، ويستخدم الجبس في العديد من التطبيقات مثل البناء والديكور والصناعات الأخرى. وتشهد هذه الصناعة نمواً مستمراً في السنوات الأخيرة بفضل الطلب المتزايد على المنتجات المصنوعة من الجبس، ولا ينحصر استعمال الجبس في المنزل فقط، بل يتعداه إلى







مجالات أخرى كالزراعة والطب.

يعد الجبس من الخامات الأرضية الشائعة، وهو من أكثر معادن الكبريتات انتشارا في الطبيعة كمعدن أو كصخر رسوبي ويتواجد عادة مع الحجر الجيري والطين، كما أنه يتداخل مع معادن أخرى، ويكون له عادة لون أبيض أو رمادي وفي بعض الأحيان مائل إلى الاحمرار. يستخدم الجبس في البناء حيث يتم تلبيس الجدران بمادة الجبس إما لمقاومة الحريق أو لعزل الصوت والحرارة، كما يستخدم في تزيين الأسقف.

أما النقش على الجبس فيعتبر من اختصاص الصناع المعلمين المغاربة الذين حافظوا على هذا التقليد الأمازيغي العربي الإسلامي، وطوروه وبرعوا في إدخال تحديدات وابتكارات ووضع أشكال وتصاميم رائعة. يحتاج النقاش أداة يدوية مكونة من مقبض خشبي مزود بقطعة حديدية رأسها حاد يطلق عليها اسم "المربوع" ويستعملها النقاش لزخرفة الجبس بسهولة وإحكام ليصنع بها الأشكال الهندسية والنباتات بمعينات مجوفة تحمل حفرا عميقة، أو حروفا مائلة، أو خطوطا كوفية، أو زخارف على شكل عش النحلة في غاية الجمال توحي بالرونق اللامتناهي.

والملاحظ أن هذه الصناعة تنتشر في جميع مناطق المغرب. وقد كانت لمدينة فاس السبق في إدخال هذا التراث الحضاري الذي طبع البيت المغربي بطابع متميز عن غيره من الدول. وازدهر هذا الفن حتى بلغ أوجه مع تشييد الأضرحة والمساجد.

ولا بد من الإشارة إلى أن إنتاج الجبس يتم حاليا في المغرب من خلال عدة شركات تعمل على تصنيعه وتوزيعه في الأسواق المحلية والدولية. وتقع معظم هذه الشركات في المناطق الصناعية الكبرى في المغرب مثل الدار البيضاء والرباط، وطنجة، وفاس، ومراكش. كما تشتهر بعض الشركات بتصنيع منتجات جبسية عالية الجودة والمتميزة بالتصميم والشكل، ويتم تصدير بعض هذه المنتجات إلى الأسواق العالمية. وتعمل الشركات المغربية في هذا المجال على تطوير تقنيات الإنتاج والتصميم لتلبية متطلبات العملاء المحليين والدوليين. تستخدم صناعة الجبس حاليا تكنولوجيا حديثة ومتطورة لتحسين

عمليات الإنتاج وتحسين جودة المنتجات، وتسعى باستمرار إلى تطوير منتجات جديدة ومبتكرة تلبي احتياجات السوق.

وبالتالي، يمكن القول إن صناعة الجبس ليست صناعة تقليدية بالمعنى المطلق؛ لأنها شهدت تطورات كبيرة في العقود الأخيرة. إذ إنها تجمع بين التاريخ العريق للاستخدامات التقليدية للجبس والتطورات الحديثة في تقنيات الإنتاج والتصنيع وتطوير المنتجات. وتجدر الإشارة إلى أن هناك حرص كبير من الحكومة المغربية على دعم هذه الصناعة من خلال توفير الدعم والإرشاد والتسهيلات اللازمة؛ لتحسين جودة المنتجات وتطوير التصنيع وزيادة الإنتاجية وتعزيز التصدير.

صناعة شواهد القبور

تُعد صناعة شواهد القبور من الحرف اليدوية التي يمتاز بها الصناع المغاربة، وتتميز بتنوعها الجميل والغني بالزخارف والنقوش المتعددة والملونة. تهتم هذه الحرفة بصناعة الشواهد الرخامية التي توضع على القبور، ويستخدم فيها العديد من المواد الخام مثل الرخام، الجرانيت، الحجر الرملي، والجبس. وتختلف أشكالها



وتصاميمها بحسب المنطقة والتقاليد المحلية. وتشتهر بعض المدن المغربية بصناعة شواهد القبور، مثل مدينة فاس ومدينة مكناس، حيث تتمتع هذه المدن بتاريخ طويل في صناعة الحرف اليدوية، وتعتبر مراكز مهمة لتدريب الحرفيين والحفاظ على التقاليد الحرفية التي ترجع إلى قرون من الزمن.

وتتميز شواهد القبور في المغرب بتصاميم فنية رائعة ومتقنة، تجمع بين العناصر التقليدية والحديثة، وتعبر عن تاريخ وثقافة المغرب. كما أن هذه الصناعة تعتبر موردا اقتصاديًا للعديد من العائلات المغربية التي تعمل في هذا المجال، وتوفر فرص عمل للكثير من الحرفيين والفنانين الموهوبين في هذا المجال.

الخاتمة

في ضوء ما تقدّم، يتبيّن أن الصناعات الحرفية التقليدية بالمغرب لا ينبغي النظر إليها بوصفها مجرد منتجات مادية محسوسة، بل باعتبارها حوامل لنسق غني من المعارف والمهارات والتقنيات المتوارثة، التي تشكّل جوهر التراث الثقافي غير المادي. فالقيمة الحقيقية لهذه الصناعات لا تكمن في مادتها النهائية فحسب، وإنما فيما تختزنه من خبرات إنسانية متراكمة، وأساليب تعلم تقليدية، وأنماط تفكير وصناعة تنتقل من جيل إلى آخر، بما يجعلها تجسيدًا حيًا لذاكرة جماعية وثقافة متجددة.

كما تكشف الدراسة أن هذا التراث غير المادي المرتبط بالصناعات الحرفية التقليدية يؤدي وظائف متعددة ومتكاملة؛ فهو، من جهة، يعزّز الهوية الثقافية للمجتمع المغربي ويحفظ

خصوصيته الحضارية، ومن جهة أخرى، يسهم في تحقيق أدوار اقتصادية واجتماعية مهمة، من خلال توفير فرص الشغل وتنشيط الاقتصاد المحلي ودعم السياحة الثقافية. ومن ثمّ، فإن الصناعات الحرفية تتجاوز بعدها الإنتاجي لتغدو مجالاً لتجسيد القيم والرموز الثقافية، ووسيطًا لنقل الموروث الحضاري في صيغ حية وممارسة يومية.

وقد أبان التحليل أيضًا عن عمق التجذر التاريخي لهذا التراث، حيث تشكّلت الصناعات الحرفية المغربية عبر تفاعل حضاري ممتد، أسهمت فيه روافد ثقافية متعددة، ما أكسبها تنوعًا وغنىً وأصالةً جعلتها تحظى بإشعاع يتجاوز الحدود الوطنية. غير أن هذا الامتداد التاريخي لا يحجب ما يواجهه هذا المجال من تحديات معاصرة، ترتبط أساسًا بتراجع نقل المهارات والمعارف الحرفية، وتناقص عدد الحرفيين، فضلاً عن ضغط العولمة وهيمنة أنماط الإنتاج الصناعي، الأمر الذي يهدد البعد اللامادي لهذه الصناعات أكثر من مادتها الظاهرة.

وفي هذا السياق، يتأكد أن الحفاظ على الصناعات الحرفية التقليدية لا يعني فقط صون المنتوج النهائي، بل يقتضي أساسًا صيانة الرأسمال غير المادي المرتبط بها، من خلال دعم التكوين، وتشجيع نقل الخبرات، وتثمين المعارف التقليدية في إطار سياسات عمومية مندمجة. كما يبرز، في الآن ذاته، ضرورة اعتماد مقاربات علمية حديثة تُعيد قراءة هذا التراث في أبعاده المعرفية والثقافية، بما يسمح بإدماجه في مسارات التنمية المعاصرة دون فقدان خصوصيته.

وعليه، فإن الصناعات الحرفية التقليدية بالمغرب، في ضوء هذا التمييز بين المادي وغير المادي، تمثل نموذجًا دالاً على حيوية التراث الثقافي غير المادي، وقدرته على الاستمرار والتجدد، شريطة تحقيق توازن دقيق بين الحفاظ على أصالته، والانفتاح على مقتضيات العصر.

الهوامش

١. الصناعة التقليدية بالريف: إتقان جودة وأصالة، غرفة الصناعة التقليدية لإقليم الناظور، ص: ٣.

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدمة ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، بيروت، المطبعة المصرية، ١٩٩٦، الطبعة الثانية، ص: ٣٧١.

٣. موقع الموسوعة العربية العالمية: www.mawsoah.net، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٤، تم استرجاعه بتاريخ: ٢٠٢٣/٠١/١٢.

٤. سهير حسين، إبراهيم. الصناعات التقليدية بين الأصالة والمعاصرة: دراسة أنثربولوجية مقارنة لصناعة الفضة والجلباب في مصر، جامعة عين شمس، كلية الآداب، حوليات آداب عين شمس، ٢٠١٥، المجلد ٤٣، ص: ٧١.

٥. موقع الموسوعة العربية العالمية: www.mawsoah.net، مرجع سابق، تم استرجاعه بتاريخ: ٢٠٢٣/٠١/١٣.

٦. الموسوعة العربية العالمية: www.mawsoah.net، مرجع سابق، تم استرجاعه بتاريخ: ٢٠٢٣/٠١/١٣

٧. تعريف منظمة اليونسكو والمركز العالمي

للتجارة الصناعة التقليدية في ندوة الحرف والسوق العالمي المنعقدة في ٠٨ أكتوبر ١٩٩٧ بمانيلا بالفلبين للحرف التقليدية، الموقع الإلكتروني لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافة: www.unesco.org ، تم استرجاعه بتاريخ: ٢٠٢٣/٠١/١٠.

٨. ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدمة ابن خلدون، مرجع سابق، ص: ٣٧٣.

٩. الأفريقي المصري، محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، المجلد ٩، ص: ٨٢٧.

١٠. العمري، ضياء. التراث والمعاصرة، كتاب الأمة، ط ٢، قطر، مطبعة الدوحة الحديثة، ١٩٨٥، ص: ٣٥.

١١. يعود تاريخ الأمازيغ إلى العصور القديمة، وقد عاش الأمازيغ في مناطق مختلفة من شمال إفريقيا، ولهم تاريخ غني ومتنوع. ويعود تاريخهم إلى الفترة الحجرية، وتشير الأدلة الأثرية إلى أنهم عاشوا في منطقة الصحراء الكبرى في شمال إفريقيا منذ حوالي ٩٠٠٠ قبل الميلاد. أنظر: شفيق، محمد. ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الأمازيغيين، دار السلام، الرباط، ١٩٨٩، ص: ١٩.

١٢. الغديري، مصطفى. الريف موضوعات وقضايا، سلسلة كتب الريف، الطبعة الأولى، ج١، ٢٠٠٩، ص:١٥٢.

١٣. الكاولين هو معدن رملي ناعم يتكون من الألومنيوم والسيليكا والماء، ويستخدم على نطاق واسع في صناعة الخزف والأدوات المنزلية والمواد اللاصقة والدهانات وغيرها من المنتجات الصناعية. وتعتبر بعض المناطق في المغرب مصادر مهمة للكاولين، مثل منطقة الصويرة وتافراوت في الجنوب، والحوز وجرادة في الشرق، والرحامنة والدار البيضاء في الوسط، وغيرها. وتعد صناعة الخزف في المغرب واحدة من أهم الصناعات التي تستخدم الكاولين كمادة خام أساسية لإنتاج منتجاتها.

١٤. الفلسبار هو معدن يتكون من سلسلة من الألومنيوم والسيليكون والبوتاسيوم والصوديوم والكالسيوم والحديد، ويدخل في تركيب الصخور النارية والرسوبية والمتحولة. وهو مادة خام هامة في صناعة الزجاج والسيراميك والخزف والطلاء والدهانات والأسمدة الزراعية وغيرها من المنتجات الصناعية. يستخرج الفلسبار عادةً من المحاجر والمناجم، ويتم تكسيره وتجهيزه بطرق مختلفة للاستخدام في الصناعات المختلفة.

١٥. الميكا هي مادة صخرية طبيعية تتكون من سلسلة من الألواح الرقيقة المتداخلة والتي تحتوي على عناصر معدنية مثل السيليكا والألومنيوم والبوتاسيوم والمغنيسيوم والحديد والكالسيوم والصوديوم. وهي تستخدم بشكل شائع في صناعة الدهانات والأصباغ والمستحضرات التجميلية والورق والبلاستيك والزجاج والسيراميك والحرف اليدوية وغيرها. ويتم استخراج الميكا عادة من المناطق الجبلية والصخرية في العديد من الدول، بما في ذلك الهند وروسيا والصين والولايات المتحدة وكندا والبرازيل وبعض دول إفريقيا وأستراليا وغيرها. وتختلف صفات الميكا تبعاً لتركيبتها الكيميائية والجيولوجية.

١٦. الأفريقي المصري، محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، المجلد ١٢، ص:٤٧٤.

١٧. الأفريقي المصري، محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب، مرجع سابق، المجلد ٢، ص: ٢٩٧.

١٨. مارمول، كاربخال. إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي وآخرون، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٨٤، ص: ٢١٧.

١٩. الأفريقي المصري، محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، المجلد ١، ص:٦٧٤.

الصور:

- الصور ١، و٢، و٤، و٥، و٦، و٧، و٨، و١١، و١٢، و١٣، و١٦، و١٧، و٢٠، و٢١، و٢٢، و٢٣، و٢٤، و٢٥، و٢٦: تصوير الكاتب.
- الصورة ٣: https://fr.freepik.com/photos-gratuite/main-potier-feminin-sale-modeler-argile-htm#from_.4496105_roue-potier view=detail_alsolike
- الصورة ٩:

https://fr.freepik.com/photos-gratuite/personne-utilisant-technique-du-macrame-interieur_17253413.htm#page=2&query=Artisanat20%en20%macram%C%3A20%9au20%maroc&position=2&from_view=search&track=ais

- الصورة ١٠:

https://fr.freepik.com/photos-gratuite/personne-utilisant-technique-du-macrame-maison_17253405.htm#from_view=detail_alsolike

- الصور ١٤، و١٥، و١٨، و١٩، مأخوذة من الموقع الرسمي للصانع المغربي "المْعلم"

https://almaalem.artisanat.gov.ma/Cours_de_Preservation/

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

الكتب:

- ابن خلدون، عبد الرحمن. مقدمة ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، بيروت، المطبعة المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٩٦.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. لسان العرب، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى، ١٩٥٥. (مجلدات متعددة).
- العمري، ضياء. التراث والمعاصرة، قطر، مطبعة الدوحة الحديثة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥.
- شفيق، محمد. ثلاثة وثلاثين قرن من تاريخ الأمازيغيين، الرباط، دار السلام، ١٩٨٩.
- الغديري، مصطفى. الريف موضوعات وقضايا، سلسلة كتب الريف، الطبعة الأولى، ج١، ٢٠٠٩.

- مارمول، كاربخال. إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخـرون، الرباط، مطبعة المعارف الجديدة، ١٩٨٤.
- المقالات والدراسات:
- حسين، سهير إبراهيم. "الصناعات التقليدية بين الأصالة والمعاصرة: دراسة أنثربولوجية مقارنة لصناعة الفضة والجلباب في مصر"، حوليات آداب عين شمس، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ٢٠١٥، المجلد ٤٣.
- التقارير والمنشورات:
- غرفة الصناعة التقليدية لإقليم الناظور. الصناعة التقليدية بالريف: إتقان جودة وأصالة.
- منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو). تعريف الصناعات التقليدية، ضمن نـدوة "الحرف والسوق العالمي"، مانيلا، ٠٨ أكتوبر ١٩٩٧.
- المواقع الإلكترونية
- الموسوعة العربية العالمية، www.mawsoah.net مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠٤.
- منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) . www.unesco.org

ظاهرة تحبيس الكتب في الجهة الشرقية من المملكة المغربيّة: فجيج أنموذجًا

محمد بوزيان بنعلي
فجيج: المغرب

**** مدخل لا بدَّ منه:**

لم يَعُدْ خافيًا على كلِّ متلبِّسٍ بقراءةِ تاريخ المغرب عامة والمنطقةِ الشرقية خاصّةً أن واحةَ فجيج الواقعةَ في أقصى شرقِ المغربِ على الحدودِ مع الجزائرِ الشقيقةِ، كان لها جذورٌ عميقةٌ في العلم والفكْرِ، تتقدّم إلى قرونٍ خالياتٍ، قبل أن يزيدَها الإمامُ سيدي عبد الجبار[1] تمكينًا وتعزيزًا أواسطَ القرن التاسعِ الهجري/١٥م ويحقِّقَ لها أسبابَ الاستمرارِ إلى ما قبلَ الحمايةِ الفرنسيّةِ بقليلٍ، ويجعلَ منها مركزًا ثقافيًا موروداً، يتناسلُ فيه الفقه والأدب والشعر والتاريخ والتصوُّفُ وشتى الفنون والمعارِف التي تداولَها العالَمُ الإسلاميُّ.

وبإمكاننا أن نفصِّلَ القوْلَ في تلك المُتَداوَلاتِ من وجوه عـدّةٍ، فنتحدَّثَ عن مراكز العلمِ، ورجالاته، ورحلاتهم، ومؤلفاتهم، وخزاناتِهم، وسائرِ أنشطتِهم وعطاءاتِهم التي خبا ضوؤُها مدّةً قبلَ أن يستأنِفَ في احتشامٍ مع جيل المرحوم محمد عابد الجابري وغيره.

لكننا سنضربُ عن كلِّ ذلك صفحًا، أو نؤجِّلُه إلى أجلٍ معدودٍ رغبةً في تخصيص هذا الحيِّز للحديثِ عن أحدِ العواملِ الكبرى التي أسهمتْ بقوّةٍ في إدراك فجيج تلك المكانة العلميّة الزاهرةِ التي لا يزالُ ذكرُها يجري رطْبًا على الألسنة، والقصْدُ إلى ظاهرةِ تحبيسِ الكُتُبِ.

**** تعريف الحبس وأنواعُه:**

الحبس أو الوقْف مصطلحٌ فقهيٌّ وتاريخيٌّ يعني حَبْسَ العَيْنِ على مِلكِ المُحبِّسِ، والتَّصدُّقُ بمنافعهِ على جهةٍ ما، تقرُّبًا إلى اللهِ تعالى. ويُعَدُّ من الصدقة الجارية التي يستمر أجر صاحبها حيًّا ومَيِّتًا، للحديثِ المشهور: «إذا ماتَ الإنسانُ انْقَطَعَ عملُه إلا من ثلاثةٍ: إلّا من صدقةٍ جاريَةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له[2].»

** تحبيس الكُتُب:

تحبيسُ الكتُبِ هو جَعْلُها وقْفًا للهِ تعالى في مكانٍ معيَّنٍ كالمساجد والمدارس والخزانات وغيرِها؛ أيْ جعلُها في خدمةِ طلبة العلم والمعرفةِ حصرًا على وجهِ الدوام. ولا يجوزُ أنْ يُتَصرَّفَ فيها بيْعًا أو إعارَةً أو هِبَةً أو بأيِّ شكلٍ آخرَ إلا فيما أذِنَ المحبِّسُ.

وقد جوَّزَ الْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ وَالْحَنَابِلَةُ وَقْف الْكُتُبِ النَّافِعَةِ؛ لأَنَّهَا فِي حُكْمِ الْخَيْلِ تُحْبَسُ لِلْغَزْوِ عَلَيْهَا، وَالسِّلاَحِ لِلْقِتَالِ بِهِ[٣]، وهو الصحيح من مذهب الحنفيّةِ أيضًا[٤]؛ وبذلك فتحوا البابَ واسعًا أمامَ المحسنين للإكثارِ من هذه المبرّةِ العظيمةِ، التي امتاز بها الغربُ الإسلاميُّ عامّةً والمغربُ خاصّةً.

** أقسام حبْسِ الكتبِ:

ينْقسِم تحبيسُ الكُتُبِ إلى قسميْن رئيسَيْن من حيثُ اختلافُ الجهةِ المستفيدةِ من ريعِه، وهما:

١. الحُبُسُ المعَقَّبُ: هو الذي يؤولُ للمستفيدين من ذريّـة الواقف أو نسله، ثم ينتقِلُ إلى جهات الخير والإحسـان العامة في حال انقراض هؤلاء المستفيدين. ويسمى أيضًا الحُبُس الأهْلي أو الذّري.

٢. الحُبُس الخيريُّ: هو تخصيص مـال أو عقار لعملٍ خيريٍّ مستدامٍ، تستخدَمُ عوائدُه للمنفعةِ العامّةِ مثل المساجد، والمدارس، والمستشفيات وغيرها. وقد عرف بلادُ فجيج النوعيْن معًا على نحو ما سأبسُطُه حالاً:

أولًا - الأحباس المعقبة:

لم يكن تحبيسُ الكتُبِ على الذرّيّةِ إجراءً عفويًا أو نقلاً شبيهًا بنقلِ مشمولاتِ المنزل الخدماتيّة والأملاكِ العقاريَة، وإنما كان مظهرًا من مظاهرِ التحوُّل الذي أخذ يسري في البنيةِ الاجتماعيّةِ والعلميّةِ لقصورِ فجيج، وملمحًا من ملامـحِ تأثرها بالنهضةِ العلميّةِ لا سيما مع العصر السعدي والعلويِّ.

ومن هنا شـدّدَ العلماءُ في شـروطِ تحبيسِ الكتُبِ، ولم يعتبروها كسائرِ ما عندهم من الأملاكِ على نحو ما سنثبِتُ من خلال الأمثلةِ التي سنورِدُها بدءًا بالشيْخِ المناصري:

والمناصري هذا هو الفقيهُ الألمعيُّ، العدلُ القاضي محمد بن محمد بن سليمان المناصري الحسني الفجيجي، الملقَّب بالمنصور الكامليِّ، والمتوفّى نهاياتِ القرنِ الثانيَ عشرَ الهجري[٥]. فبعدما صرح بتحبيس جميع ما ملكه الله تعالى بفجيج وقصر المحارزة[٦] وبغير فجيج قال: «وأما الكتب فعلى من يقرأ قرآنًا أو علمًا، وهُما سـواءٌ في القراءة. وإن لم يوجد قـارئٌ فعلى العصبة المذكورين بعد انقراضِ المحبَّس عليهم. ولا يرجع كالمال للإنـاث. فإن لم تكن عَصَبةٌ فعلى زاوية كرْزاز[٧]. فإن كان الأبُ يقرأُ والولدُ معًا فعليهما، ولا يختصُّ به الأبُ كالمال[٨].»

ولئِنْ كان الأبُ في الأحباسِ الفجيجيّةِ المعقبة يختصُّ باستغلال الشّقْصِ المحبّس من أجنّةٍ ودورٍ ومياه ومراحض وأندُرٍ... حتى إذا مات أخذَ ولدُه محلَّه في الاستغلال، فإن القاعدة لا تنطبِق على الكتبِ المحبّسَة، بل المدارُ فيها على استفادةِ كلِّ منها كلُّ المتعلِّمين في وقتٍ واحدٍ دون مراعاة التسلسلِ الطبقي المعروف في الأحباس.

فإذا اختل هذا الشرْطُ انتقلَ إلى من يعيِّنُه

المُحبِّسُ حضْرًا، وهم في هذه الحالة مريدو زاوية كرزاز التي أسسها الشيخ الصوفي سيدي أحمد بن موسى الكرزازي[٩] المتوفى نحو ١٠١٣هـ. وكان المناصري من أبرزِ مقدِّميها بفجيج، ولا تزالُ أصداءُ هذه الطريقةِ تتَردد إلى يومِنا هذا عبرَ مناسباتٍ مخصوصةٍ في بعضِ قصورِها.

أما الهدفُ القريبُ من تحبيسِ الكتبِ بفجيج فكان هو؛ الحرص على حماية الكتب من الضياعِ، والنهوضَ بالحركةِ العلميّةِ في مختلِفِ قصورِها، وبالدرجةِ الأولى تحبيبَ القراءَةِ إلى الذرّيّةِ، وتشجيعَهم على التحصيل، وتسلسلَ العلمِ في النسْل على العمومِ. وهي الغايةُ التي صرّحَ بها العلاّمةُ الجهبذُ أحمدُ بن العربي بن رحّو[١٠] في حُبُسِه، ومما جاءَ فيه: «أشهدَ على نفسِه مشتريه (شرح الخرشي) وهو أحمد بن العربي بن أبي زيّان بن أحمد بن مَحمد بن مُحمد بن أحمد بن عبد الرحمن المعروفِ في لغةِ أهلِ فجيج بسيدي رَحُّ ابن الوليّ الصالح سيي مَحمد بن عبد الجبّار بن أحمد بن موسى بن أبي بكر الوتدغيري أصلاً[١١]، المعيزي دارًا[١٢]، وأنه حبَّسَ جميعَ كتُبِه التي منها هذا الجزء على أولاده ثم أولادهم ما تناسَلوا، القارئ دون غيرِه. فإن انقرَضوا يرجِعُ ما ذُكِرَ لأقرَبِ عصبةٍ، القارئ أيضًا دون غيره. قصَدَ بذلك تسلْسُلَ قِراءَةِ العلمِ في عقِبِه، أكملَ اللهُ له هذا القصدَ بجاه عِمرانَ بن حُصيْن[١٣]...[١٤]

وأكثر من ذلك وضوحًا وتفصيلاً ما وردَ في حبُسِ أحد مشاهير فقهاء فجيج العارفين، المضمّنُ اسمه في نصِّه الآتي: «حبَّسَ هذه النسخةَ الشيخ أبو الفضل الإمام ذو الكراماتِ، الفاضل الناسك، فريد عصره سيدي الحاج محمد ابن بوزيان بن عبد الرحمن بن الشيخ الكبير سيدي افْضَلْ العباسي الحسني الفجيجي على من قرأَ من أولادِه الذين ظهَرتْ فيهم النجابةَ في العملِ الشريفِ، وهذا مرادُه - رحمه الله - الانتفاعُ. ولا فرقَ في أن يكون الولدُ صغيرًا أو كبيرًا، فالمدارُ على تعلُّمِ العلْمِ. فإن لم يظهرْ فيهم من تعلَّم العلمَ ولا قرأَهُ، فصاحبُ القرآنِ الذي يفْهمُ هو أوْلى من غيرِه. ولا خصوصيّةَ لواحدٍ منهم إلا بهذا الوصْفِ المذكورِ. فمن حاز شيئًا من ذلك من غير الوصفِ المذكورِ، فاللهُ محاسِبُه ومنتقِمٌ منه[١٥].

والحقيقةُ أن الهدف الأسمى من تحبيسِ الكتُبِ بصفةٍ عامّةٍ يتجاوزُ بكثيرٍ ذلك الهدفَ القريبَ المصرّحَ به آنفًا غير بعيدٍ، ليصلَ إلى استشرافِ الخلودِ الروحي والتشوُّفِ إلى النعيم المقيم في الجَنّةِ من خلالِ الصدقةِ الجارية كما بشّرَ به الحديثُ السابقُ. وهو ما سنلاحظُه بقوّةٍ في الأحباسِ الخيريّةِ.

ثانيًا - الأحباس الخيريّة:

مع الأحباسِ الخيريّةِ سينتهي احتكارُ المنفعةِ العلميّةِ ودورانُها بين أفرادِ الأسرةِ الواحدةِ لتَعُمَّ سائرَ المكوناتِ المجتمعيّةِ. ومع توسّعِ دائرةِ الاستفادةِ سيتوسّعُ الأجرُ والثواب؛ لأن القارئَ لن يكونَ قارئًا فقط وإنما شاهدًا لفضلِ المحبِّسِ يوم القيامة، إذ نحن شهداءُ الله في الأرض كما في الحديث الصحيح[١٦]. ومن هنا دأب المحبسون على تداولِ عبارةٍ شائعةٍ في رسومِهم، لتصبح لازمةً شبيهةً بتلك التي تُرَدَّدُ في قصائد المولِد، وتقليدًا مرعيًا لا يخلو منها رسمٌ، من قبيل: «قصد بذلك وجهَ اللهِ وثوابَه الجسيمَ».

** تحبيس المكتبات:

دأَب علماءُ فجيج على تحبيسِ مكتباتهم على السُّبُلِ التي ألمَحْنا إلى نماذجِها آنِفًا غيرَ بعيد. إلا أن أعظمَ تحبيسٍ شهدتْه الساحةُ العلميّةُ بفجيج، هو تحبيس الإمـام سيدي عبد الجبار لخزانته «دار العدة» التي أسسها أواسط القرنِ التاسعِ الهجري.

ولئن ضاع النصُّ الأصلي للحبُسِ، فإن بعضَ أحفادِه الغيورين قاموا بتحيينه عام ١١٦٥ عندما رأوْا مشمولاتِها تُنهبُ على يد بعض السفهاءِ من ذويهم، على نحو ما تؤَكِّدُه عددٌ من الخطابات كهذا الذي بعثه صاحبُ المبادرةِ العلاّمةُ الشيخُ عبد القادر بن محمد بن عبد الجبار إلى أستاذِه أبي العباس الهلالي السجلماسي[١٧]، يلتمس منه المساعدة والتدخل لاسترجاع الكتب التي باعها أحد بني عمومتِه بتافلالتْ، قال له:

«إلى سيدنا ووسيلتنا إلى ربنا، السيد الأبر الناسك الأظهر... ولْيكنْ في علمك أننا لا نترك كتبنا وعددها ثمانون: ستون منها معلومة المداد، وعشرون منها مجهولة. ولا يغرّهم (أي المشترين للكتب) قول السارق محمد بن قاسو بأنها لأبيه دون ذرية سيدي عبد الجبار. والحق الحقيق أن الخزانة هي للسيد عبد الجبار. ونحن على حقنا طال الزمان أم قصر[١٨]».

بعد ذلك مباشرةً أوعز الشيخُ عبد القادر بمحضر ثمانية وثلاثين شاهدًا إلى القاضي محمد بن إبراهيم بن عبد الجبار الجمالي[١٩] بتحيين حبُسِ جدِّه. وننقل منه ها هنا ما يفي بشرطِنا، ونصُّه: «... والباعث في إنشاء هذا الرسم وتأسيسه، أن أحد الذُّرِّيَّةِ وهو: السيد محمد بن قاسو فَعَلَ فعلاً خان فيه، يُعزَّر شرعًا عليه، بأنْ أخذ من الخزانة المذكورة عِدَّةً كثيرةً من الكتب، وباعها في ناحية المغرب، فطلب منا ماسكُه الفقيه الأجل السيد الحاج عبد القادر بن محمد من نجل سيدي عبد الجبار المذكور ارتسامَ بيِّنة الوقف، وأن نضع له ذلك في كتاب؛ ليرتفع عنه بذلك تخالج الظنون، وخطَرات الارتياب؛ ليكون بيده حُجةً قاطعةً يستردّ بها ما وجده من تلك الكتب ببيِّنةٍ قاطعة، فأجبناه لما سأل، وأسعفناه في ما عليه عوّل، ونقول بعد حمد الله: شهودُه الموضوعةُ أسماؤهم إثْرَ تاريخه ما زالوا منذ أدركوا بأسنانهم، وميّزوا بأذهانهم، وفهموا بعقولهم، يسمعون سماعًا فاشيًا من ألسنة العدول وغيرهم من أهل بلدة فجيج ممّن لا يُحصى أن خزانة كتب سيدي عبد الجبار حبس معقّب، لا يورثُ ولا يُقسم ولا يُباع ولا يوهب كما ذُكر أعلاه. كل ذلك في علمهم، وقُيّدتْ شهادتهم مسؤولة منهم...[٢٠]».

ومما لا ريْبَ فيه أن تحبيسَ هذه الخزانةِ العظيمةِ لعبتْ دورًا فعّالاً جـدًّا في ازدهـارِ الحركةِ العلميّةِ بفجيج، والأدلّةُ على ذلك متوافرةٌ متواترةٌ، أغلبُها مسطورٌ في كتُبِ الرّحالين المغاربةِ التي بلغت الغايةَ في الإشـادةِ بها، حتى إنهم جعلوا زيارتَها تقليدًا سنويًا مرعيًا لا مناصَ منه. وفي خضَمِّ ذلك قدّموا عنها فوائدَ وعوائدَ، وأحْصَوْا بعضَ ما أدهشَهم من الغررِ والأمهاتِ التي تزدان بها رفوفُها، على نحو ما فعل كلٌّ من أبي العباس الهشتوكي[٢١]، وأبي العباس الهلالي[٢٢]. أما ابن ناصر الدرعي[٢٣] فأشار صراحةً إلى دورِها قائلا: «ووجدنا هنالك شرحَيْ دلائل الخيرات[٢٤]، وتنبيه الأنام[٢٥] للأخ

أحمد بن أبي بكر الشريف السكوني الفجيجي. وقد أُخْبرتُ أنه ما حمله على الكتْب على الدلائل والتنبيه إلا ما وجده من الكتب ميسرة في خزانة سيدي عبد الجبار»[٢٦].

وإذا كان السكوني وأمثالُه من المقيمين يستفيدون من كتب الخزانةِ بنظامِ الاستعارةِ، فإن سواهم من العلماء الطارئين كانوا يضطرّون إلى المكوثِ برحابِها، للاطلاع على نفائسِها، على غرارِ ما فعل الهشتوكي والهلالي.

ومـن العلماء الذين يمكنُ أن نعزز بهم الاستشهاد العالمُ الماجدُ، مفتي الجزائر الشيخ سعيد قدورة المتوفى عام ١٠٦٦هـ/١٦٥٦م، ولكأني أنظر إليه الآن من وراءَ متربعًا في رحابِ الخزانة، يقلب أوراق القاموس المحيط، بحثًا عن وجه الصواب في حديث أرّقه وصاحبه أمدًا طويلاً، ثم يتنفس الصعداء، ويأخذ الكاغد والقلم، ويكتب إلى صاحِبِه ما يلي:

«... ونعلمكم سيدي في حديث «ما لم تضمروا الرماق»[٢٧]، أني طالعت القاموس[٢٨] في فصل الراء من باب القاف، فذكره فيه، فدل على أنه بالراء لا بالزاي كما وقع في تلكم النسخ[٢٩].. ثم نظرته في فصل الزاي، لعل فيه وجهًا آخرَ، فلم يتنازلْ فيه لشيء من ذلك، بل لم يذكر لفظة الزماق بالزاي أصلا... [٣٠]».

استطاعتْ هذه المبادرةُ الجَريئَةُ أن تعيد للخزانة بعْضَ ألقِها القديم، لكنْ سرعان ما تسلّلَ إليها داءُ النهبِ والسّرقةِ من جديدٍ، حتى إذا وقف عليها الرحالةُ العالمُ محمد بن عبد السلام بن ناصر الدرعي[٣١] عام ١١٩٦هـ، لم يجد فوقَ رفوفِها شيْئًا مما سبقَ إلى مسامعِه من أخبارها المشوّقة، فكتبَ في حسرةٍ يقول: «وكانت لهذا الإمـام، وبَنيهِ من بعده خزانة كتب عظيمة، احتوتْ على دواوين غَريبَةٍ. ثم تلاعبت بها أيدي الحَدَثان، ومر الدهور والأزمان؛ فتفرقتْ شَذَرَ مذَرَ، حتى لم يبق منها إلا الأثر[٣٢]».

التّحبيس على المساجد:

انتشرتْ في فجيج عادةُ تحبيسِ الكتبِ على المساجدِ بصفةٍ خاصّةٍ؛ لكونها من أعظمِ الأماكن التي يمكن أن يؤخَذَ منها الثوابُ والبركاتُ. وتأتي الزوايا العلميّةِ والصوفيّةِ في المرتبةِ الثانيةِ من اهتمامِهم. ولم نجد فضاءاتٍ أخرى زيادةً على هذيْن. ونستحضِرُ لتأكيد الظاهرةِ النماذج الآتيةَ:

١/ النموذج الأول:

«الحمد لله وحده، حبس وتصدّق هذا التأليف الزهر الأنيق[٣٣] السيد أبو القاسم بن مَحمد بن عبد الجبّار[٣٤] على مسجد جدِّه سيدي عبد الجبار حُبُسًا مؤبّدًا، ووقْفًا مخلّدًا لا يُباعُ ولا يوهَبُ، ولا ينتقِلُ من هذا المسجد إلى مسجدٍ آخرَ. فمن بدَّل وغيّرَ فاللهُ حسيبُه يوم القيامةِ[٣٥]».

٢/ النموذج الثاني:

«الحمد لله وحده منزل الأحكام، والصلاة والسلام على رسولِ الله خيرِ الأنام. لِيَعْلَمْ الواقفُ على هذا الرسمِ أن الشّابَّ المكرّمَ عبد القادر بن يحيى اللّمعيزي اشترى هذا الكتابَ المباركَ[٣٦]. ثمّ إنه حبَّسه لله على أنه يُقرأُ في جامعِ سيدِنا وبركتِنا الجامعِ بين الحقيقة والشريعة سيدِنا محمد بن عبد الجبّار الفجيجي في يوم الجمعة وغيرِها على الدوام. وأنه يكون بيدِ مَن هو أهلٌ للقراءةِ من أولادِ سيدي محمد بن عبد الجبار

حُبُسًا مؤبَّدًا، ووقْفًا مخلّدًا. فلا سبيل لأحدٍ أن يبيعه أو يهبَه أو يُعوِّقَهُ بوجْهٍ من الوجوهِ عن مكانِه. قصد بذلك وجهَ اللهِ وثوابَه الجسيمَ. فمن بدّلَه أو غيّرَه بوجْهٍ من وجوهِ التفريطِ فاللهُ تعالى حسيبُه ومتولّي الانتقامِ منه، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلَبٍ ينقلِبون.

وثمَنُ هذا المجلّدِ المباركِ خمسةُ دنانيرَ ارْيال، مقبوضةٌ في يدِ مؤلِّفِه أحمد بن محمد بن أبي بكرٍ، وأن المحبِّس المذكورَ شرّكَ أباهُ يحْيى بن قرواش في الثواب. وحيزَ عن واهبِه بمعاينةِ البيِّنةِ العادلةِ[٣٧].

وعادةُ قراءةِ التصلِيَات النبويّةِ الواردة في دلائل الخيرات وتنبيه الأنام والشروحات التي عليها كانت مستمرّةً في مساجد فجيج إلى وقتٍ قريبٍ جدًا؛ ولهذا السبب كَثُرَ نَسْخُ تلكَ الكتب وتحبيسُها على مختلِف مساجد القصور. وبقيَ منها الآن نسخٌ محدودةٌ لدى بعضِ الخواصِّ بداخلِ فجيج وخارجِها.

٢/ النموذج الثالث:

«حبَّسَ الشريف الأصيل مولاي أحمد بن سعيد الفكَيكي كتاب تنبيه الأنام على جامع أولاد عثمان بن عطيّة، بتاريخ أواسط صفر من عام ١١٧٤هـ[٣٨].

٤/ النموذج الرابع:

«حبس هذا الجامع الصحيح الشيخ أبو كنبوش بن الطيب الجابري - رحمه الله - حبُسًا مؤبّدًا ووقفًا مخلّدًا، لا يباعُ ولا يوهبُ، ولا يُقْضى منه ديْنٌ، حبّسَه على الجامع الكائن في قصر العبيد، يُقرأُ في رمضانَ كلَّ سنةٍ، ولا ينتقلُ منه بحالٍ إلا إنْ تعذَّرَ من يقرؤُه في القصرِ المذكورِ، فيُصارَ حيثُ يأمن من تبديلِه وتغييره بقربِه. قصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة...[٣٩].

التحبيس على الزوايا:

لم نصادفْ أحدًا حبَّسَ مكتبتَه على الزّوايا بدءًا، وإن كان الأمرُ ساريًا بين الناسِ حسبَ الروايةِ الشفويّة. لكن المحقَّقَ أن المحبسين كانوا يفضلون أن تؤول كتبُهم إلى مسجدٍ أو زاويةٍ ما بعد انقراضِ المحبَّسِ عليهم، على نحو ما فعل المناصِري في حبُسِه المعقّبِ المذكورِ. ولا شكَّ أن اختيارَه كان يتوخّى ضمانَ استمرارِ نفعِ الكتُبِ إن هيَ سلمتْ من عَوادي الزمانِ وأخلصَ المحبَّسُ عليهم في حمايتِها.

التحبيس على غيرِ معَيّنٍ:

المفروض في رسوم التحبيس أن يُعيَّنَ المحبَّسُ عليه سواءً كان شخصًا ذاتيًا كفلان وفلان أو معنويّا كالمسجد والزاوية. وهذا هو الذي جرى عليه الحال في فجيج. إلا أننا وجدْنا استثناءً واحدًا حُبِّسَ فيه أحدُ الكتُبِ على غيْرِ معيّنٍ، بِشرْطٍ واحدٍ هو الانتفاعُ منه. ونصّ الحبُسِ:

«إلى من يقف على هذا الكتاب شرح الرسالة للشيخ التتائي[٤٠] من الأئمّةِ الأعلامِ ومَن دونهم... أن عبيْد الله محمدًا كاتبَه والسيد عاشور بن شقرون تعاوَنا على تحصيلِه بالكتابةِ بكاغده وما يليق بتسفيره، وكذلك السفْر الثاني أيضًا. ثم صيَّراهما وقفًا لا يُباعُ... لمن ينتفع منهما، إلا إن خيفَ التضييعُ. ويكون استقرارُهما عند من يحفَظُهما[٤١]».

والمعمولُ بِه في مثلِ هذه الحالاتِ أنْ يوضَع الكتابُ رهنَ إشارةِ من يريد قراءَتَه في مسجدِ القصرِ الذي ينتمي إليْه المحبِّس. وقد ذكروا لنا أن هذه الطريقةَ كانت موجودةً. غيرَ أنها قليلةٌ جدًّا قياسًا إلى التحبيسِ على المساجدِ.

** ظاهرة أحباس البخاري:

يتمتَّع صحيحُ البخاري في قلوبِ المغاربةِ عامّةً بمكانةٍ خاصَّةٍ، جعلتهم يفردونَه بمعاملةٍ متميِّزة، حتى إن بعضَ قضاةِ فجيج كانوا يستحلفون المتخاصمين على البخاري بعد كتابِ اللهِ العزيزِ[٤٢]، جامعين في ذلك بين الكتاب والسنّة.

وتبعًا لهذه المنزلةِ الرفيعةِ كان لأهل فجيج أسلوبٌ خاصٌّ في التعاملِ معه خلال شهر رمضان، حيثُ كان لِكلِّ قصرٍ صحيحُه وطقوسُ الاحتفاءِ به: تحتفِظُ به الأسرُ الميسورةُ في صندوقٍ فارهٍ كيْ تستطيع تغطيَةَ نفقاتِ الاحتفال بانطلاقِ مدارستِه وإقرائِه بعد عصرِ آخر أيامِ شعبانَ، يُعيّنُ خلاله السّاردُ والشارِحُ، وتبسطُ موائدُ الطعام، استشعارًا بحلولِ هذا التقليد السنويِّ المرعِيِّ. فإذا كان يوم عيد الفطر احتفل الناس قبل أداءِ صلاةِ العصر بختم الصحيح مرددين التسبيح المشهور في الحديثِ الذي خُتِمَ به الصحيح[٤٣]: «سبحان الله وبحمدِه سبحان الله العظيم» مائةَ مرّةٍ، ثم ترفعُ أكُفُّ الدعاءِ للمسلمين والمحبِّسين، ثم تُبْسَطُ الموائدُ، ويُسَلَّمُ الصندوقُ إلى ثَرِيٍّ آخرَ في انتظارِ العام القابل.

ومما تجدُر الإشارةُ إليه هنا أنّ موائدَ الختم لا يتكفّلُ بها الموسرون، بل هي أحباسٌ معلومةٌ التزمَ بها الأجدادُ من زمانٍ قديمٍ، وسمّوْها «أحباس البخاري». ولا تزال هذه العادةُ مستمرّةً إلى يومنا هذا لاسيّما في قصريْ: المعيز والوداغير على الرغم من التراجع الرهيبِ في عددِ المحبِّسين !

وقد اشتهر بكتابة صحيح البخاري ونسخِه، وتوزيعِه على القصورِ أسرتان عالمتانِ صوفيّتانِ هما:

١/ الأسرة السكونية بقصر الوداغير، ومن أبرز الخطاطين فيها الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر السكوني. وقد رأينا السفر الأخير بخطه[٤٤].

٢/ الأسرة الونشريسيَّة بقصر الحمّام الموَحَّدِ، قبل انشطارِه إلى الحمام الفوقي والسفْلي. اشتهر من بينهم الخطّاط النجيب سليمان بن محمد بن محمد بن سعيد بن سليمان الونشريسي[٤٥].

وإلى جانب أحباس البخاري المتعلِّقةِ بالإطعام، تنافسَ المحسنون والمحبّون للنبيِّ عليه السلام وللعلْمِ في تحبيس الجامع الصحيح والكتب الشارحةِ لمفرداته والكاشفةِ لِمعانيه. ويمكن أن نستحضِرَ في السياق الأولِ: حبُسَ الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن زيّان الودغيري وأخيه وابْنيْ أخيهما للصحيح على جامعيْ قصرِهم الأوسط والعتيق[٤٦]، وفي الثاني: تحبيسَ الشيخ التاج بن الطيب، ونقتطفُ منه أهمَّ ما وردَ فيه بعد الحمدلةِ والتصليَةِ:

«هذا الكتاب المبارك قد احتوى على جُمَلٍ من الفوائدِ من لغة الجامع الصحيح للبخاري. وإنْ كان جِرْمُه صغيرًا فإن فوائدَه تُزْهي[٤٧] وتعلو على الدواوين الكبار، وليس الخبرُ كالعِيانِ. ومن مارسَه وشعَر بمنهاجه يظهر له ما وصفناهُ.

وحُـبِّـسَ هـذا المجلّدُ على جامعِ أولاد عدّي أورْتدغير، يحضُرُ حيثُ قراءةُ البخاري في كلِّ سنةٍ إلى انقراض الساعة.

قصدَ بتحبيسِه محبِّسُه التاج بن الطيب بن عبّو بن زيّانَ وجهَ اللهِ في ذلك، إذ شرَكَ في الأجرِ أباه وأختيْه، لا يُباعُ...[٤٨].

** المرأة والتحبيس:

تؤكد وثائقُ الهباتِ والعطايا المحليّةُ أن المرأة الفجيجيّةَ كان لها باعٌ طويلٌ في تشجيعِ العلم، وحفظة القرآن، وخدمةِ بيوتِ الله. لكنّ مكرُماتِها لم تقف عند ذلك الحدِّ، بل تجاوزتْه إلى مكرُمةٍ أخرى مُلازمـةٍ ومُكمّلةٍ لها، ألا وهو تحبيس الكتُبِ النافعة، نافسَتْ به الرجلُ، ورغبتْ مثلَه فيما رغبَ به من الأجرِ والثوابِ. وللتدليلِ على ذلك نستدعي نموذجيْن اثنيْن:

-١- حُبُس فاطمة بنت الطيب الودغيريّة:

«الحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا.

الحمد لله، حبَّسَت الحرّة الجليلةُ فاطمةُ بنت الطيب بن حدُّ هذا المجلَّدَ المحتوي على حلِّ ألفاظِ تنبيه الأنام[٤٩]. قصدتْ بذلك وجهَ الله العظيم، وثوابَه الجسيمَ، والله لا يُضيعُ أجرَ المحسنين.

واحتسبتْ نصفَ الأجرِ لنفسِها، وربُعَ الأجر لأبيها، وربع الآخرَ لجدَّتها من أمها، حُبُسًا مؤبَّدًا، ووقفًا مخلَّدًا، لا يباعُ ولا يُهاب (يوهَبُ).

فمن سعى في تبديله أو تغييره فالله حاسبُه، وولي الانتقام منه. وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون...[٥٠].

والكتابُ الذي تقصدُه المحبِّسَة عنوانُه: «حبل الاعتصام في كشْفِ ما سدَلَ من الرواقِ على معاني كلماتِ تنبيه الأنام»[٥١]. ألفه الفقيه المتصوف أحمد السكوني الفجيجي[٥٢] رحمه الله تعالى.

-٢- حُبُس مريم بنت المير المعيزيّة:

فـي عـام ١٢٥١هـ، اشـتـرتْ مـريـم بنت جلول بن المير كتابَ: «بهجة الأسرار ومعدن الأنـوار[٥٣]»، بسبعة ريـالاتٍ إلا موزونتيْن، وحبَّسَتْه على والدها، المعروف بكنية بَّا جلّولْ. وهـذا الكتاب انْتَسخَه قبل عشرِ سنواتٍ من التاريخ المذكور[٥٤] بخطٍّ رائعٍ ماتعٍ الخطّاطُ المتألِّقُ: الحبيب بن يخلف بن جلّول بن المير. وكان الفراغ من كتابتها يوم الأربعاء فاتح محرم ١٢٤١هـ[٥٥].

** أنواع الكتب المحبّسة ومميزاتُها:

استنادًا إلى ما عثرْنا عليه من عقودِ الأحباسِ يمكن أن نؤكد في كثيرٍ من الاطمئنان: أن الأهالي كانوا مولَعين بتحبيسِ المصاحفَ في المقامِ الأولِ، يليها المصنفاتُ الحديثيّة، خصوصًا منها الجامع الصحيح للإمام البخاري وما تيسَّرَ من شروحه كما رأينا، وفي درجة مماثلَةٍ تأتي مخطوطات التصليات النبويّة يتقدَّمُها: دلائل الخيرات للشيخ الجزولي المتوفى عام ٨٧٠هـ، وتنبيه الأنام لابن عظوم القيرواني المتوفى عام ٩٦٣هـ، والكتب المحلّيَّةِ التي تتناولُ مفرداتِها ومعانيَها بالشرحِ والتحليل، مثل: حبل الاعتصام في كشف ما سدل من الـرواق على معاني تنبيه الأنام، وإتمام النعمة وسبب نيل الشفاعة والنجاة بكشْفِ القناع على ألفاظِ دلائل الخيْراتِ، وكلاهما للشيخ المتصوف أحمد بن أبي بكر السكوني المذكورِ آنفًا غيرَ بعيدٍ.

أما الخصائص التي تميِّزُ هذه الكتب كما لاحظنا فتتجلّى في تسجيل نص التحبيس على الصفحةِ الأولى أو الأخيرة من الكتابِ. وهو غالبًا ما يزيد على نصِّ الرسم العدلي المستقل بضوابطَ وشروطٍ تحفظُ للكتابِ حرمتَه واستدامةَ أداءِ رسالتِه العلميّةِ ووضعَه في خدمةِ جميع من يطلُبُه، مثل الإشارةِ إلى عدم إخراجه من محلِّه، أو السماح بنسخه طلبًا لتعميمِ المنفعةِ.

** مقاصد المحبسين وفوائد التحبيس:

واستنادًا إلى النماذِجِ التي استقيْناها من العقودِ المستشهَدِ بها المذكورةِ نُعيدُ الإقْرارَ بِأنّ مقاصد المحبسين وأهدافَهم تعدّدَت وتنوّعتْ، لكن الجامعَ الذي ألَّفَ بينها هو: الـوازعُ الدينيُّ والمنفعةُ الأخرويّةُ التي من أجلِها تنافسَ الفجيجيّون في الإكثارِ من فِعلِ الخيراتِ والمبرّاتِ، فلم نرَ حبُسًا خلا من هذه اللازمة: «قَصَدَ أو قصدَتْ بذلك وجهَ الله العظيم، وثوابَه الجسيمَ» أو ما أشبهَ تلكَ العبارةَ. ذلك أن الناسَ جميعًا كانوا واعين بأن نشر العلم النافع من الصدقاتِ التي يجري ثوابُها على صاحبِها بعد موتِه إلى يومِ القيامة، وأن تحبيسَ الكتب هو أحسنُ السبُل المتاحةِ للفاقدين للعلمِ والمعرفةِ.

عدا ذلك تباينتْ المقاصدُ والأهدافُ: مِنهم من اكتفى بالعائِدِ الأخْرويِّ المشترَكِ، ومنهم من استهدَفَ تحقيقَ مقاصد دُنْيويّةً، كلُّها نافعةٌ ناجعة، وقد مرَّ معنا منها أنواعٌ كالحرْصِ على تسلسُلِ العلْم في الذرّيّةِ كما فعلَ العلاّمةُ أحمد بن رحّو، ومنها برُّ الوالديْن والإحسان إلى أولي الأرحام مثلما فعل التاج بن الطيب بن عبّو وفاطمةُ بنت الطيب بن حدّو وغيرُهما.

أما فوائدُ التحبيس فتتجلّى أساسًا في حفظِ التراثِ من التشويه والضياعِ، وتشجيع الطلبة على الاجتهاد في التحصيل، ودعم الحركة العلميّة عمومًا في المناطق البعيدة عن المراكز. أضِفْ إلى ذلك تأمين حماية الكتب من النهبِ والبيْعِ وعدم تكرار المأساةِ العلميّة التي حصلَتْ لخزانةِ دار العدة.

** تحبيس مُؤَلَّفات الفجيجيين:

على الرغم من مساهمة الفجيجيين في إثـراء المشهد العلمي المغربي بمؤلفاتٍ شُهِدَ لها بالأصالة والتميّزِ، كتفسير الإمام سيدي عبد الجبار، ومفيدة اللبيب لابنه إبراهيم والفريد لحفيده أبي القاسم وسواها، فإننا لم نجد من حبَّسَها على أيِّ مسجدٍ من مساجد فجيج باستثناءِ شرحِ دلائل الخيْراتِ للسكوني المذكورِ سابقًا.

ولئنْ كان الأمـرُ كذلك بالنسبةِ لفجيج فإن العكسَ هو الحاصلُ في مناطق أخرى، حيث أقبل الناسُ بشغَفٍ على تحبيس عددٍ من تلك المؤلفاتِ، ليَنْهضَ فِعلُهم المحمودُ دليلاً على قيمتِها وأهميتِها وحاجة الطلبةِ إليها. ويأتي في طليعةِ هذه المُحَبَّساتِ مخطوطة شرح صغرى السنوسي المتوفى عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م[٥٦]، للفقيه العالم محمد بن بلقاسم الثوري[٥٧]، رأيت لها نماذج متعددةً، نكتفي منها بالآتي:

١. نسخةٌ حبّسَها السلطان مولاي عبد الحفيظ على جامعِ المواسين بمدينة مراكش في الثاني من ربيع الأول عـام ١٣٣٠هـ. ورقمُها: ٦/٣٥٠.

٢. نسخةٌ أخرى حبسها السلطان نفسُه على خزانة مولاي يوسف بمراكش أيضًا بتاريخ: ٢٤ رجب ١٣٣٠هـ. تحت رقم: ٣/٥٤٠.

٣. نسخةٌ أخرى حبسها أبو العباس سيدي أحمد بن [...][٥٨]على زاوية ماء العينيْن بطالعة فاس. وهي الآن من مشمولاتِ الخزانة الوطنيّة: ٩٢٧ د.

ومن الأعمال الفجيجيّة التي كثُرَ الإقبالُ على تحبيسِها: قصيدة روضة السلوان لإبراهيم بن عبد الجبار في القنص، وهي من روائعِه المطوّلاتِ، إذ بلغَ بها ٢١٧ بيتًا، وشرحها: ابن أخيه أبو القاسم في كتابه المعروف "الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد"[٥٩]. وممن حبَّسوها نذكُرُ مولاي الحاج الباعمراني على كلّيّةِ ابن يوسف بمراكش[٦٠].

** كلمة الختم:

أسهمتْ مبرّةُ تحبيسِ الكتُبِ في تنشيطِ الحركةِ العلميّةِ بفجيج دهرًا طويلاً من الزمن منذ نهاياتِ العصرِ المرينيِّ، بشكلٍ ظهرت آثـارُه على شتى الأصعدة، فانتشرت الزوايا العلميّة، التي خرّجتْ أجْيالاً متعاقبين من رجالات العلم والفقه والأدب، وكثُرَتْ المكتباتُ العامّة والشخصيّة التي ضمنت تنوُّعَ مصادرِ المعرفةِ وديمومتَها وتوافرَها في أيْدي الطلبة وتيسيرِ الوصولِ إليها في شتّى القصور. كما كان للتحبيسِ فضلٌ ظاهرٌ في التدريسِ وانتشارِ الحلقاتِ العلميّة، والتشجيعِ على التأليفِ والنسخِ والمتاجرةِ في الكتُبِ والكاغدِ، وحمايةِ المخطوطاتِ من الضياعِ والتلَفِ والاستئثارِ الشخصيِّ.

أضفْ إلى هاتيْن الثمرتيْن ثمراتٍ لذيذةً قد لا يُؤْبَه لها، منها: تخليدُ أسماء العدول والقضاة والفقهاء والمحبسين والنسّاخِ في الرسوم التي وصلتْنا، وإثبات التواريخ، وأسلوب الموثقين... ولا يخفى علينا ما لمثل هاته الإفادات من دورٍ لا يُنكَرُ في الكشْفِ عن جوانبَ كثيرةٍ من تاريخ فجيج الثقافي.

ومع ذلك فإن قسطًا وافرًا منها يوجد الآن بين أيدي أشخاصٍ لا يقْدُرونَ العلمَ حقَّ قدْرِه، وكأنهم يجهلون أنها أمانةٌ وأن الاستفرادَ بِها خيانةٌ، فبَدَل أن يستمِرّوا سلسلةً مباركَةً في إذاعةِ هذا الخيرِ ونشرِه، أسهموا شرَّ إسهام في قتْلِه. وقدْ كانت هذه السّوْأَةُ الكالحةُ من الأسبابِ المباشرةِ في تراجُعِ الحركةِ العلميّةِ ثم انطماسِها بفجيج، منذ أن وصَفَ ابن ناصرٍ حالتَها نهايةَ القرنِ الثانيَ عشَرَ الهجري كما أشرْنا آنفًا.

وثَمَّ معطياتٌ في غايةِ الدقةِ تُفيدُ بأن جزءًا مهمًّا من أعلاقِ خزانةِ دار العدّةِ ونفائسِها تفرّقَ شذَرَ مذَرَ في خزائن المغرب، بل تعدّاها إلى الخزائن الأوروبيّة. وهذا موضوعٌ آخرُ قد نتطرّقُ إليه في فرصةٍ أخرى بالشواهد القاطعة والأدلّةِ الدامغةِ.

** مصادر البحث ومراجعه:

- خير الدين الزركلي: الأعـلام: ٢٤٠/١ – دار العلم للملايين – بيروت – لبنان – ط١٥/٢٠٠٢م
- العربي هلالي ومحمد بوزيان بنعلي: تاريخ القضاء بفجيج - مطبعة الجسور – وجدة – المغرب – ط١/٢٠٠٧) – إصدارات: سلسلة تراث فجيج ، عدد: ٧.

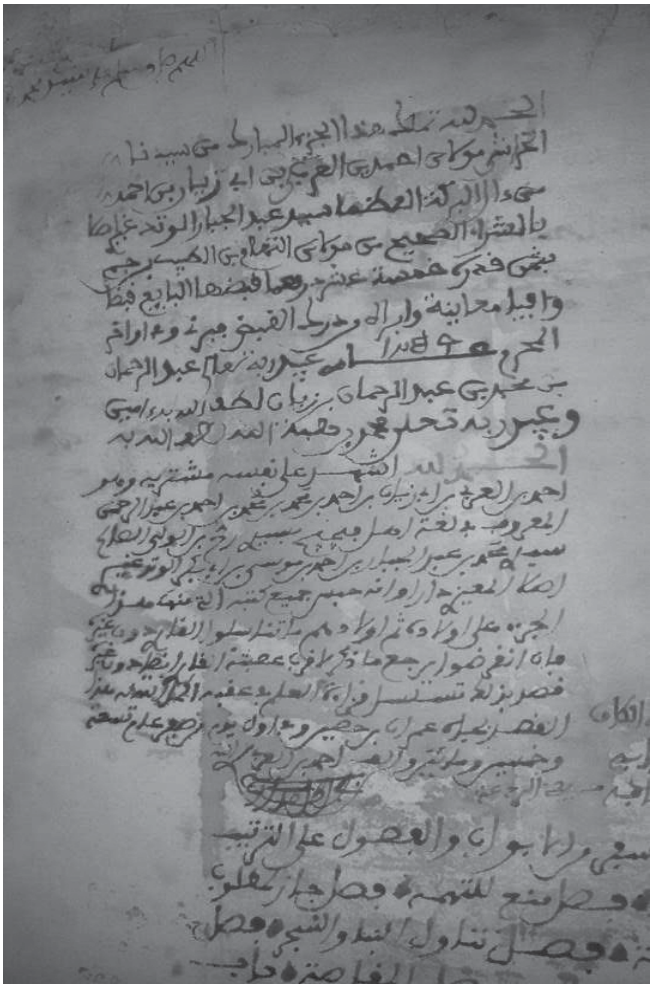
- مجموعة من المؤلفين: الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة - مطابع دار الصفوة للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة - مصر – ط١.
- محمد بن أحمد بن عثمان شمس الدين الذهبي: سير أعلام النبلاء – تحقيق جماعي بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط وتقديم بشّار عواد – مؤسسة الرسالة – ط٣/١٩٨٥م.
- محمد بوزيان بنعلي:

** الذهب الإبريز من تاريخ قصر المعيز – مطبعة الجسور – وجدة – المغرب – ط١/ ٢٠٢٢م)

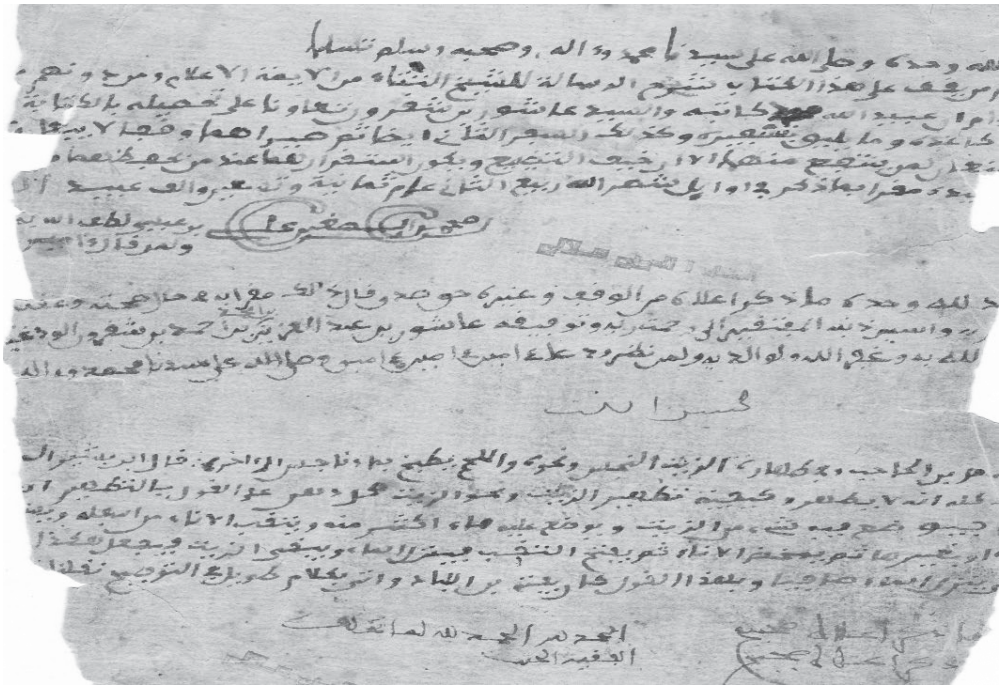
** فجيج أعلام الفكر والأدب بين العصريْن المريني والعلوي – مطبعة الجسور – وجدة - المغرب - ط١/٢٠٠٠

** واحة فكَيكَ تاريخ وأعلام – مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء – المغرب – ط١/١٩٨٧م)

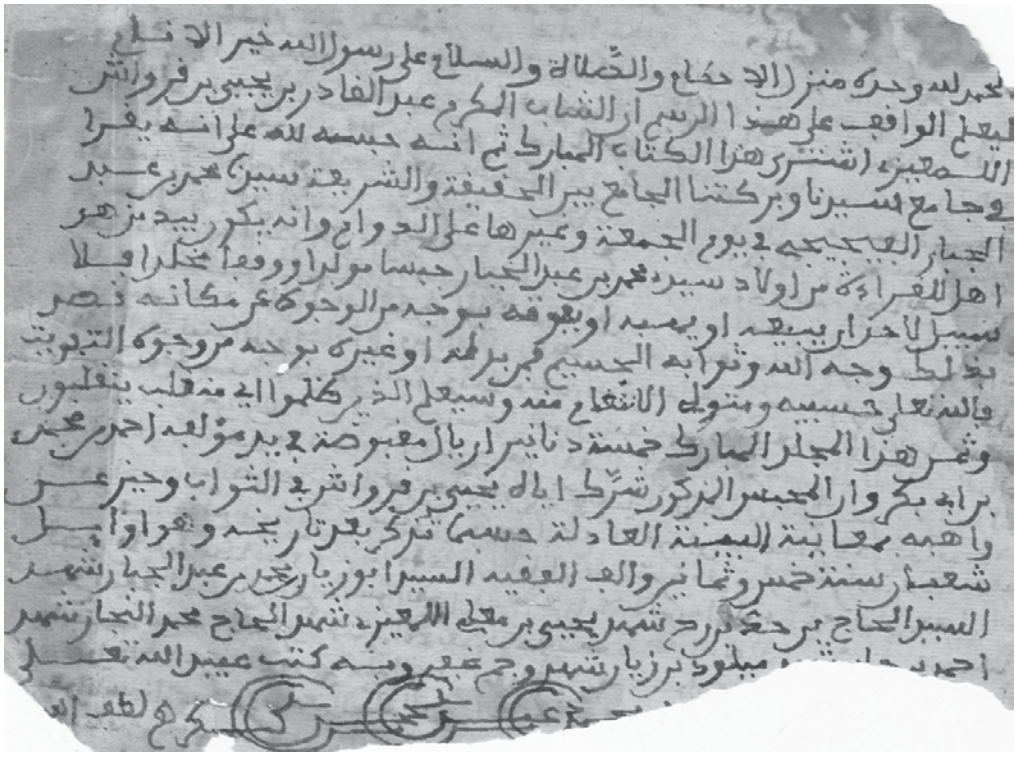
- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس – تحقيق: مجموعة من المختصّين - من إصدارات: وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت.



رسم حبس أحمد بن رحّو: ١٢٥٩هـ



رسم حبس محمد بن الصغير ومحمد بن عاشور الودغيريين: ١٠٩٨هـ



رسم حبس الشاب عبد القادر بن قرواش: ١٠٨٥هـ



حبس العالم محمد المناصري: ١١٩٣هـ. وتم تحيينه: ١٢٥٧هـ

الهوامش

١. عبد الجبار بن أحمد الفجيجي: من أكبر علماء المغرب ومؤسس الصرح الثقافي بفجيج. أسس خزانةً عظيمة سمّاها دار العدّة. له عدة مؤلفات طُبِع منها: المختار من تفسير سيدي عبد الجبار، ومختصر حياة الحيوان. توفي نحو ٩١٨هـ (انظر كتابنا، فجيج أعلام الفكر والأدب بين العصريْن المريني والعلوي: ١٣- ٨٣).

٢. صحيح مسلم: ١٦٣١.

٣. مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة: ٣٤/ ١٩٢.

٤. نفسه.

٥. العربي هلالي ومحمد بوزيان بنعلي، تاريخ القضاء بفجيج: ٤٤

٦. قصر المحارزة: يقع جنوب قصر الوداغير، وقد انقرضَ في منتصف القرن التاسعَ عشرَ، وتفرقت ساكنته في قصور الوداغير وزناكة وأولاد سليمان.

٧. كرزاز: من الواحات المنتشرة على جنبات وادي الساورة، وهي الآن بلديّة تابعة لولاية بشار في الجنوب الغربي الجزائري (عن موقع: ويكيبيديا).

٨. رسم حبس مؤرخ في: ٥ شوال ١١٩٣هـ. (مخطوط خاص).

٩. أحمد بن موسى الكرزازي: عالم صوفي جزائري. وهو مؤسس الطريقة الكرزازية الصوفية. ولد في فاس، وتوفي بكرزاز عام ١٠١٣هـ. له ديوان الرموز. (انظر حياته ومناقبه عند محمد بن مَحمد الكرزازي: المناقب المعزّيّة في مآثر الأشياخ الكرزازية، مخطوط خاص في حوزتي نسخة منه).

١٠. أحمد بن العربي بن رحو: من أبرز علماء فجيج، كان موسوعي المعرفة، تصدر للتدريس والقضاء والفتيا والتأليف، من مؤلفاتِه: روضة الأنس فيمن لا يُسأل في الرمسِ. توفي أواخر محرم عام ١٣١٠هـ/١٨٩٢م. (محمد بوزيان بنعلي، فجيج أعلام الفكر والأدب: ٢٥٥ إلى ٢٩١)

١١. الوتدغيري: نسبة إلى قصر وتدغير أو الوداغير بالنطق الحالي، وهو أكبر القصور العليا. قامت فيه نهضةٌ علميّةٌ كبيرةٌ (بنعلي محمد بوزيان، واحة فكَيكَ تاريخ وأعلام: ٧٠).

١٢. المعيزي: نسبة إلى قصر المعيز، الذي أنجب عددًا من العلماء في طليعتهم بنو عبد الجبار، وفيه تقع خزانتهم العظيمة. (محمد بوزيان بنعلي، الذهب الإبريز من تاريخ قصر المعيز: ١/ ٣٩ وما بعدها.

١٣. عمران بن حصيْن بن عبيْد بن خلَف الخزاعي: من صحابةِ رسولِ الله الكرام رضي الله عنهم. من فضائله أن الملائكةَ كانت تسلِّم عليه. توفي عام ٥٢هـ. (شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء: ٥٠٨/٢)

١٤. رسم حبس مؤرخ في: ١ صفر ١٢٥٩هـ (مخطوط خاص).

١٥. فاطمة كَاكَو - رحمها الله -، المخطوطات والخزانات العلميّة بفجيج: ٣٣ (بحث لنيل الإجازة ١٩٩٣/١٩٩٤).

١٦. صحيح البخاري: ١٣٦٧.

١٧. أبو العباس الهلالي: أحمد بن عبد العزيز الهلالي السجلماسي، من أشهر علماء المغرب، كان له باع طويلٌ في اللغة والأدب.

له مؤلفات كثيرةٌ ومتنوعة (انظر حياته بتفصيل في مقدمة تحقيقنا لرحلته: التوجه لبيت الله الحرام – مطبعة الجسور – وجدة – ط١/٢٠١٢).

١٨. رسالة مخطوطة (خاصة).

١٩. محمد بن إبراهيم بن عبد الجبار الجمالي الورتدغيري: الفقيه المفتي، من أبرز علماء فجيج، تخرج من القرويين، وتولى قضاء فجيج مدّةً طويلة. توفي في نهايات القرن ١٢هـ.(العربي هلالي ومحمد بوزيان بنعلي، تاريخ القضاء بفجيج: ٤٠).

٢٠. وثيقة مخطوطة (خاصة).

٢١. أبو العباس الهشتوكي: أحمد بن محمد بن داوود الجزولي، فقيه ومؤرخ وأديب مغربي، له ثلاث رحلات أشهرها: هداية الملك العلاّم والوقوف بالمشاعر العظام وزيارة النبي عليه الصلاة والسلام. توفي عام ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م. (الزركلي، الأعلام: ٢٤٠/١)

٢٢. أبو العباس الهلالي: سبقت ترجمته وشيكًا.

٢٣. ابن ناصر الدرعي: أحمد بن مَحمد بن ناصر الدرعي، من أئمة المغرب في الفقه والتفسير واللغة. كان شديد الشكيمة على أهل البدع. له مؤلفات عديدة منها: الرحلة الناصرية. توفي عام ١١٢٩هـ/ ١٧١٧م. (الزركلي، الأعلام: ٢٤١/١).

٢٤. القصد إلى كتابه: إتمام النعمة وسبل نيل الشفاعة والنجاة بكشف القناع على ألفاظ دلائل الخيرات (من إصدارات المجلس العلمي المحلي لإقليم فجيج – تحقيق جماعة من الباحثين – مطبعة الجسور – وجدة – ط١/٢٠١٨م).

٢٥. القصد إلى "حبل الاعتصام في كشْفِ ما سدل من الرواق على معاني كلمات تنبيه الأنام" وكان الفراغ من تأليفه ونسخه بخط يده آخر ربيع النبوي عام ١٠٨١هـ/ غشت ١٦٧٠ (مخطوط خاص، منه نسخة في حوزتي).

٢٦. الرحلة الناصرية، ج ١، ص: ٢٨. (المطبعة الفاسية – ١٣٢٠هـ).

٢٧. هذا جزء من كتاب الرسول عليه السلام إلى وفد بني نهد بن زيد مع طهفة بن أبي زهير النهدي، رواه غير واحد، جاء في "النهاية في غريب الحديث والأثر"، لابن الأثير (حرف الراء، باب الراء مع الميم): رمق (هـ) في حديث طهفة: "ما لم تضمروا الرماق" أي: النفاق. يقال رامقه رماقًا. وهو أن ينظر إليه شزرًا نظر العداوة، يعني ما لم تضق قلوبكم عن الحق يقال عيشه رماق: أي ضيق. وعيش رمق ومرمق: أي يمسك الرمق، وهو بقية الروح وآخر النفس.. .

٢٨. القصد إلى القاموس المحيط للفيروزابادي ـ انظره: ج ٣ / ص: ٢٤٦ (دار الجيل ـ بيروت ـ لبنان) وانظر أيضًا: لسان العرب: ١٠ / ١٢٦ (دار صادر ـ بيروت ـ لبنان).

٢٩. ربما قصد بالنسخ إلى كتاب الشفا للقاضي عياض رحمه الله، فقد ذكر حديث ما لم تضمروا الرماق، في الباب الثاني من القسم الأول: وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول (الشفا ـ ج ١ / ص ٧٤ ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ـ ط/ ١٩٨٨).

٣٠ . ابن أبي محلي ـ مهراس رؤوس الجهلة، ص: ٦٢.

٣١. محمد بن عبد السلام بن ناصر: حفيد العلامة المتصوف سيدي مَحمد بن ناصر الدرعي. عالم محدث رحالةٌ. له المزايا فيما حدث من البدع في أمّ الزوايا، والرحلة الكبرى

والصغرى وغيرُها من المؤلفات المفيدة. توفي عام ١٢٣٩هـ/ ١٨٢٤م. (الزركلي، الأعلام: ٦/ ٢٠٦)

٣٢. الرحلة الكبرى، ص: ٦٧ (مخطوط الخزانة الوطنيّة – الرباط – رقم: د ٢٣٢٧).

٣٣. عرَّف المحبِّسُ بهذا الكتاب وصاحبِه على ظهرِ الوثيقة فقال: "الحمد لله، كتاب الزهر الأنيق في خبر نبي الله يوسُفَ الصدّيق، على نبينا وعليه السلام، تأليف الشيخ العارف بالله الأستاذ المحقق، الزاهد الناسك، الإمام أبي القاسم السهيلي المراكشي، أفاض الله علينا من بركاتِه بمنِّه. كانت وفاتُه رضي الله عنه بمراكش، وصلّى عليه كافّةُ أهلِ مراكش خاصّةً وعامّةً، وازدحم الناسُ على جنازته ازدحامًا شديدًا. وقبرُه الآن بخارج باب الرّبّ معروف، اتخذه الناسُ مزارًا يتبركون به، ويتوسّلون إلى الله به، فيُستجابُ لمن شاء الله.

٣٤. أبو القاسم بن مَحمد بن عبد الجبار: أشهر آل سيدي عبد الجبار، وأغزرهم علمًا، له مؤلفات مفيدةٌ في الفقه والعقيدة والمنطق والأدب، منها: الفريد في تقييد الشريد وتوصيد الوبيد في شرح روضة السلوان لعمه إبراهيم، اللآلئ الحسان في نظم مختصر خليل، الحدّ المطّرد في ضبط مصطلح فن المعتقد. توفي في ١٠ رمضان عام ١٠١١هـ. (انظر ترجمته بتفصيل في كتابنا، فجيج أعلام الفكر والأدب بين العصرين المريني والعلوي: ١٥١ إلى ٢٣٥).

٣٥. وثيقة خطّيّة (خاصّة).

٣٦. القصد إلى كتابه تنبيه الأنام.

٣٧. رسم حبس مؤرخ في: أوائل شعبان ١٠٨٥هـ. (وثيقة خطيّة خاصّة)

٣٨. رسم حبس (مخطوطة خاصة)

٣٩. رسم حبس مؤرخ في: أواسط شعبان ١٠٦٧هـ (وهو على ظهر الصفحة الأولى من الجزءِ الثالث من الجامع الصحيح المنتسَخ في عام ١٠٤٠هـ - خاص).

٤٠. التتائي: محمد بن إبراهيم بن خليل التتائي، فقيه من علماء المالكية، وقاضي القضاة بالديار المصرية. له شرحان على المختصر وشرح على ابن الحاجب الفرعي وله مؤلفاتُ أخرى عديدةٌ. توفي عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م. (الزركلي، الأعلام: ٥/ ٣٠٢ – ٣٠٣)

٤١. رسم حبس مؤرخ في: أوائل ربيع الثاني ١٠٩٨هـ. (خاص).

٤٢. قانون فرع أولاد عمرو بقصر أولاد سليمان. (وثيقة خاصة).

٤٣. نص الحديث: "كَلِمَتانِ خَفِيفَتانِ علَى اللِّسانِ، ثَقِيلَتانِ في المِيزانِ، حَبِيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ: سُبْحانَ اللهِ العَظِيمِ، سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِهِ". (صحيح البخاري: ٧٥٦٣ - صحيح مسلم: ٢٦٩٤).

٤٤. العربي هلالي، فجيج تاريخ وثائق ومعالم: ٨٦ (الوثيقة الأولى).

٤٥. سليمان الونشريسي: هو سليمان بن محمد بن محمد بن سعيد بن سليمان الونشريسي، من قصر الحمام. فقيه ومحدث ومقرئ فجيج في عصره. رأينا له إجازة في الحديث وأخرى في علوم القرآن. توفي حوالي ٩٦٠هـ. (انظر ترجمته في كتابنا، بيوتات العلم والأدب بفجيج:١٥٨- مطبعة الجسور – وجدة – المغرب – ط٢٠٠٢/١).

٤٦. رسم حبس مؤرخ في: أوائل شوال ١٠١٩هـ وانظر أيضًا: (العربي هلالي، فجيج تاريخ

وثائق ومعالم، ص: ٨٦، وثيقة ٢١ – المطابع المغربيّة والدوليّة – طنجة – المغرب – ط١/١٩٨١م).

٤٧. أزهى يُزهي، أَزْهِ، إزهاءً، فهو مُزْهٍ.أزهى الشَّخصُ: تاهَ وتعاظمَ وتكبَّر. (أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: ١٠٠٥/٢ – مطبعة عالم الكتب – القاهرة - ط١/ ٢٠٠٨م).

٤٨. رسم حبس مؤرخ في: أوائل ذي الحجة ١٠٧٥هـ.

٤٩. تنبيه الأنام: القصد إلى كتاب: تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. وضعه الشيخ عبد الجليل بن محمد بن أحمد المعروف بابن عظوم القيرواني، المتوفى عام ٩٦٣هـ.

٥٠. إشهاد مؤرخ في: أواخر شوال ١١٧٨هـ - ١٧٦٥/٠٤/٢٠م.

٥١. مخطوطة خاصة، فرغ منها آخر ربيع النبوي ١٠٨٣هـ.

٥٢. أحمد السكوني: هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن السكوني بن أبي بكر، فقيه متصوف، توفي بعد عام ١١٠٤هـ. له عدد من المؤلفات كشرح دلائل الخيرات وشرح تنبيه الأنام وتقوية إيمان المحبين في كرامات شيخ متصوفة فجيج عبد القادر السماحي. وغير ذلك.(ترجمته في مقدمة تحقيق كتابه إتمام النعمة، المذكور سابقًا.)

٥٣. عنوانه الكامل: بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب الباز الأشهب الشيخ عبد القادر الكيلاني. ألفه الشيخ علي بن يوسف اللخمي الشطنوفي الشافعي، المتوفى عام ٧١٣هـ. (الزركلي، الأعلام: ٣٥/٤).

٥٤. فرغ من نسخه: يوم الأربعاء من شهر الله المعظم فاتح السنة المحرّم ١٢٤١هـ (١٨٢٥/٠٨/١٧م).

٥٥. مخطوطة خاصة.

٥٦. القصد إلى عقيدته الصغرى المسماة أم البراهين.

٥٧. محمد بن بلقاسم بن ناصر الثوري الزناقي: الفجيجي، عالم برع في علمي العقيدة والفقه. تعاطى التدريس والفتوى والقضاء. له شرح على صغرى االسنوسي. توفي بعد عام ١٠٤٨هـ. (العربي هلالي ومحمد بوزيان بنعلي، تاريخ القضاء بفجيج: ٤١

٥٨. بياض في الأصل قدر كلمة أو اثنتيْن.

٥٩. حققه المرحوم عبد الهادي التازي. ونشره المعهد الجامعي للبحث العلمي بالرباط عام ١٩٨٣ (مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء).

٦٠ تقع ضمن مجموع يحمل رقم: ٨/٤٦٢.

مَسْجِدُ الخَيْفِ وَعمرانُهُ خِلالَ الْعَصْرِ الْمَملُوكيِّ (٦٤٨- ٩٢٣هـ/١٢٥٠- ١٥١٧م)

د/ رضا السعيـــد إبراهيم محمد
جامعة الأزهر
مصر

المُقَدّمَةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عَلَى الْمَبْعُوثِ رَحْمَةً لِلْعَالِمِينَ، سَيِّدنَا مُحمَّد الْهَادِي الأَمِين، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَمَنْ اهْتَدَى بهَدْيِهِ إلى يَوْمِ الدِّين.

وبعد...

فَقَدْ أَمَرَ المَوْلى - عَز وجَل - عِبادهُ بِتَعميرِ وبنَاءِ الْمَسَاجِدِ، وَجَعلَ ذلك من أفضَلِ القُرُباتِ عند اللهِ تعالى، فقد أخـرَجَ الإمَـامُ الطَّبرَانيُّ في مُعجمِه، قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ». لذلك كَانَ أوّل عمل قام به النَّبيُّ ﷺ بعد الهجرة إلى المدينة المُنوَّرة هو بناء المسجد، ولم يكن مكانًا للعبادةِ وأداء الصلواتِ فحسب، بل كان مركزًا يلتقي فيه المسلمون: لتدارسِ العلومِ، ومكانًا للتربية والدعوة والإدارة.

وقد حرص سلاطين المماليكِ على عمارةِ المساجدِ وإصلاحِها، وأوقفوا الأوقافَ الكثيرةَ؛ لترميمِها والقيامِ على شؤونِها، في محاولةٍ منهم لصبغِ سلطنتِهم بالصبغةِ الشَّرعيَّةِ، ولم يقتصرْ اهتمامُ سلاطينِ المماليكِ ورعايتُهم على عمارةِ وتجديدِ الحَرَمَيْنِ الشَّريفَيْنِ فحسب، بل شملَ ذلك المساجد التاريخيَّةَ المقدَّسةَ في مكَّة المُكرَّمةِ والمدينةِ المُنوَّرة، من خلالِ تعميرِها وصيانتِها، وتخصيصِ الأموالِ الكافيةِ لهذا الغرض.

وانطلاقًا من ذلك، حازَ مسجدُ الخَيْفِ رعايةً واهتمامًا من: الخلفاءِ والسلاطينِ وكبارِ الأعيانِ في مُختلفِ العُصُورِ الإسلاميَّة، وتوالت عليه الإصلاحاتُ والتَّجديداتُ؛ لِفَضْلِه، ولِما له من أهميَّةٍ في أداءِ الحُجَّاجِ للمناسكِ في موسمِ الحجّ.

وقد شَهدَ المسجدُ عمارةً واسعةً في عصرِ سلاطينِ المماليكِ، وخاصَّةً في عهدِ السلطانِ الأشـرف قايتباي(٨٧٢–٩٠١هـ / ١٤٦٨–١٤٩٦م)، وقد ساعدتْ هذه الرّعايةُ المسجدَ على القيامِ بدورِه الدينيِّ والعلميّ، حيث نزلَ به

عددٌ كبيرٌ من أهلِ العلمِ.

أسباب اختيارِ موضوعِ البحث:

- مكانةُ المساجدِ في الحضارةِ الإسلاميَّة، فالمسجدُ هو العنوانُ البارزُ وشُعاعُ النورِ في دولةِ الإسلامِ.
- الإسهام في إبرازِ المعالمِ العمرانيَّة لمسجدِ الخَيْفِ، ودعم جُهُود حفظ التراثِ الإسلاميِّ.
- الرغبةُ في كشفِ اللثامِ عن التَّجديداتِ والإصلاحاتِ الَّتي مرَّ بها مسجدُ الخَيْف خلالَ عصرِ سلاطينِ المماليك.

أهدافُ البحثِ:

- بيانُ التَّغيرات الّتي طَرَأتْ على المسجدِ مُنذ العصرِ العباسيِّ حتَّى العصر المملوكيِّ.
- إبرازُ أثر عمارةِ سلاطينِ المماليكِ لمسجدِ الخَيْف، من حيث:

زيادةُ رقعتِه المساحيَّة.

زيادةُ عددِ أبوابِه.

تجديدُه وتنظيمُه بما يُناسبُ مكانتَه ووظيفتَه.

منهج الدارسة:

يعتمدُ البحثُ على المنهجِ الوصفيِّ والتحليليِّ، القائمِ على جمعِ المادَّةِ العلميَّةِ من مصادرِها الأصليَّة، ثمَّ صياغتِها بأسلوبٍ علميٍّ، من خلال تتبع نشأة مسجد الخيف وتطوره عبر العُصُورِ، ثمَّ وصف العناصر المعماريَّة للمسجد، مثل: التخطيط العام، والأروقة، والأبواب، ثمَّ إبراز جُهُود الخلفاءِ وسلاطينِ المماليكِ في إصلاحِ وتجديدِ مسجدِ الخَيْف.

إشكاليَّةُ البحثِ:

على الرَّغْمِ من كثرة الدِّراساتِ الَّتي تناولت عمارة المساجد الإسلاميَّة الكبرى، إلَّا أن عمارة المساجد الواقعة في المَشاعرِ المُقدَّسةِ – ومن بينها مسجد الخَيْف– لم تنل قدرًا من الاهتمام مقارنة بالحرمينِ الشَّريفينِ، رغم أهميّة المسجد الدِّينيَّة، وخاصَّةً في مشاعر الحج، ويمكن تحديد مشكلة البحث في السؤال الرئيس التالي: ما مظاهرُ اهتمامِ سلاطينِ المماليكِ بمسجدِ الخَيْف؟ والذي يندرج حوله عدة تساؤلات:

- ما فضل ومكانة مسجدِ الخَيْفِ؟
- هل حازَ مسجدُ الخَيْف اهتمامًا وعنايةً من الخلفاءِ والولاةِ قبل العصرِ المملوكي؟
- ما أبرز جُهُود سلاطين المماليك في عمارةِ مسجدِ الخَيْفِ؟

الدِّراساتُ السَّابقة:

- حسين عبد العزيز الشَّافعي: المساجد الأثريَّة في مكَّة المكرَّمة، مجلة قطاع الدراسات الإنسانيَّة، جامعة الأزهر، مصر، العدد ٧، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م. وتناول البحث تاريخ وعمارة المسجد الحرام، والمساجد في داخل مكَّة المُكرَّمة وأطرافها، وبلغ عدد المساجد التي تضمنها البحث ستة عشر مسجدًا، وركَّز على نشأة المسجد وموقعه وإصلاحاته عبر العُصُورِ.
- خالد الحميدي: مساجد المشاعر «التاريخ المشاهد»، مجلة الحج والعمرة، المملكة العربية السعودية، العدد٩١٨، ١٤٤٢هـ/٢٠٢١م. وأشار في عاجلة سريعة لأهمِّ المساجد التَّاريخيَّة، كمسجد الخيف،

والبيعة، والمنحر، والفتح، ومسجد نمرة، والمشعر الحرام، وغيرها.

خُطَّةُ البحث:

جاءت خُطَّةُ البحثِ موزَّعةً على عدَّةِ مطالب، وهي:

أولاً: تَسمِيةُ مَسْجِدِ الخَيْفِ بِهَذا الاسْمِ.

ثانيًا: فَضلُ مَسْجِدِ الخَيْفِ.

ثالثًا: عِمَارةُ مَسْجِدِ الخَيْفِ قبْلَ العَصْرِ الْمَملُوكيِّ

رابعًا: عِمَارةُ مَسْجِدِ الخَيْفِ خِلَالَ العَصْرِ الْمَملُوكيِّ.

تُعَدُّ الْمَساجِدُ هي البِيئَة المَتِينة الَّتي نَهضَتْ عليها حَضَارةُ الإسْلامِ، فالمَسْجدُ هو مَكانُ تَطهيرِ النُّفوسِ وتَزكِيةِ الأخلاَقِ، وتَربيةِ المُسْلِمين على السُّلوكِ القَويمِ، والمَسْجدُ ركنٌ أساسيٌّ ورَئيسٌ للتَّربيةِ الإسلاميَّةِ الصَّحيحةِ، وهو رَمزُ التَّرابُطِ الرَّوحيِّ والاجتماعيِّ في حياةِ النَّاسِ، وقد تَخَرَّج من المَساجِدِ الأئمَّةُ الكِبارُ، والقَادةُ الأعلاَمُ، لذلك نَالَ بناءُ المَسَاجِدِ وعِمَارَتها أهميَّةً كبيرةً لدى الخُلفَاءِ والسَّلاطينِ والأُمَراءِ وَكِبارِ الأعيَانِ.

أولًا: تَسمِيةُ مَسْجِدِ الخَيْفِ بِهَذا الاسْمِ:

الخَيْفُ: هو المنحدر من غلظ الجبل، وهو مَا ارْتَفَعَ عن مَوْضِعِ مَجرى السيلِ ومَسيلِ الْمَاءِ وانْحَدَرَ عَنْ غِلَظِ الْجَبَلِ، وخيف مِنَى[1] هو الموضع الذي يُنسب إليه مسجد الخيف؛ لأنّه فِي سَفْحِ جَبَلِهَا[2].

والخَيْفُ: مفرد أَخْيَافٌ؛ ومنه النَّاسُ أخياف، أيّ مختلفون، لذا قيل: النَّاسُ أخياف وشتى في الشيم، وقيل: الخيف الوادي، والخيف ما كان مجنبًا عن طريق الماء يمينًا وشمالاً متسعًا[3]. واسم الجبل الذي مسجد الخيف بأصله الصائح، وهو في سفح جبل مِنَى الجنوبي، وكان هذا الجبل يسمى الصابح، ثمَّ غلب عليه اسم جبل منى[4].

وَعَلَى الرَّغمِ مِن كثرَةِ المَصَادرِ التَّاريخيَّةِ الَّتي تَحدَّثت عن تَاريخِ مَكَّة المُكرَّمةِ وَعِمَارةِ المَسْجِدِ الحَرَامِ والمَشَاعِرِ المُقدَّسةِ إلاَّ أنَّها لم تَذكُر تاريخ تأسيس مَسْجِدِ الخَيْفِ، وَيُرَجَّح وجودُ البناءِ مُنْذ صَدرِ الإسلاَمِ؛ لِوُرودِ المَسْجِدِ في الأحَادِيثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ وأقوال الصحابة – رضوان الله عليهم –، ولكنه كان بسيطًا كطبيعة ذلك العصر، وَمِن ثَمَّ قَامَ الخليفةُ أبو جعفر المنصور(١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٤- ٧٧٥م) بإعادة بنائه وعمارته[5]، وعُـرِّف المسجد بمسجد العيشومة؛ لعيشومة بصحنه كانت خضراء في الحدب والخصب[6].

وقد جُدد مَسْجدُ الخَيْفِ في العَهْدِ السُّعوديِّ، وأَصبَحَ اليومَ جَامِعًا واسعَ الأرجَاءِ، كَثِير الأعمِدَةِ، مَفرُوشًا بِالبُسطِ الفَاخِرةِ، ولَهُ إمامٌ ثابتٌ[7].

ثانيًا: فَضلُ مَسْجِدِ الخَيْفِ:

وَرَدَت الكثيرُ من الأحَاديثِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ في فَضلِ مَسْجِدِ الخَيْفِ، لعَلَّ من أبرَزِها نُزولُ النَّبيّ ﷺ بالمسجد والصلاة به، فعن عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ قال: صلى بنا النّبيّ ﷺ فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ بِمِنَى وَحَدَّثَنَا رَسُول اللَّهِ ﷺ: « يَوْمٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ، فَلْيَنْظُرْ كُلُّ امْرِئٍ لِنَفْسِهِ»[8]. كَمَا كَانَ النّبيُّ ﷺ يجتمع به مع صحابته ويخطب فيهم[9].

وروي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَلَّى فِي مَسْجِدِ الْخَيْفِ سَبْعُونَ نَبِيًّا مِنْهُمْ مُوسَى»[10]. وَكَانَ العَدِيدُ مِن

مَسْجِدُ الخَيْفِ وَعِمرانُهُ خِلالَ العَصْرِ المَملُوكيِّ (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)

مَشَايخِ الأنصَارِ يَتَحرَّون مُصلَّى النَّبيّ ﷺ أمَامَ المنارة قريبًا منها، ولم يزل الناس وأهل العلم يصلون هنالك[١١].

وورد عن أبي هريرة ﷺ قوله: « لو كنتُ من أهل مكَّة ما أتى علي سبت حتَّى آتي مسجد الخَيْف فأصلي فيه ركعتين»[١٢].

كَذَلك نَزلَ بِه العَدِيدُ مِن التَّابِعين وكِبَارِ العُلمَاءِ والمَشَايخِ، وَتَبادَلُوا الفَتْوى والرَّأي فيمَا بَيْنهم، فها هو ذا وَهْب بْنِ مُنَبِّهٍ[١٣] كان يَلْتَقِي مع الحسن البصرِيُّ[١٤] في الموسم كُلَّ عَام في مسجد الْخَيْفِ إذا هَدَأَتِ الرِّجْلُ، ونامت الْعَيْنُ، ومعهما جُلاسٌ لَهُمَا يَتَحَدَّثُونَ إليهما[١٥].

وتناظَرَ الأَوزاعِيُّ[١٦] وسفيان الثَّورِيُّ[١٧] في مَسْجِدِ الخَيْفِ في مسألة رفع اليدين في الركوع والرفع منه[١٨]. وأَقامَ بِه الإمَامُ أحمدُ بن حنبل في سنة ١٩٨هـ/٨١٣م مُستَندًا إلى منارَته وَجاءَهُ أصحَابُ الحَديثِ، فَجَعَلَ يُعلِّمُهُم الفقْهَ والحَديثَ ويُفتِي لَهُم في المَنَاسكِ[١٩].

وكان للحكم بن عتيبة الكندي[٢٠] مجلس كبير؛ لتدارس العلم في مَسْجِدِ الخَيْفِ[٢١].

ثالثًا: عِمَارةُ مَسْجِدِ الخَيْفِ قبْلَ العَصْرِ المَملُوكيِّ:

كَانَت أوّل عمارة لمَسْجِدِ الخَيْفِ في العَصْرِ العَبَّاسيِّ في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور[٢٢](١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣-٧٧٥م)، فقد أولى الخليفة المنصور عنايةً كبيرةً بالحرمينِ الشَّريفينِ والمشاعرِ المُقدَّسةِ، حيث أمر في عام ١٣٩هـ/٧٥٦م بتوسعة المسجد الحرام من ناحية باب الندوة، وبنى مسجد الخَيْف؛ ليكون معلَمًا دينيًا يخدم الحجاج والمعتمرون[٢٣].

وفي ذلك يتضحُ اهتمام خلفاء بني العبَّاسِ بالمساجدِ والمَشاعرِ المُقدَّسَة، ومن بينها مسجد الخَيْف الَّذي جُدِّد وعُمّر لتيسير أداء مناسك الحج.

ثُمَّ تَوالَت عليه التَّجديداتُ والإصلاحاتُ في عُهودِ خُلفاءِ بني العبَّاسِ، حيث قام الخليفة المتوكل على اللـه[٢٤](٢٣٢-٢٤١هـ/٨٤٧-٨٥٦م) بعمارته مع المسجد الحرام[٢٥].

ثمَّ عُمر المسجد في سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م في عهد الخليفة المعتمد[٢٦]العباسي(٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٧٠-٨٩٢م)[٢٧].

وممَّن عَمرته كذلك والدة الخليفة العباسي الناصر أحمد[٢٨] واسمها مكتوب على بابه الكبير[٢٩].

وقد وَصفَ الأزرقِيُّ (ت: ٢٥٠هـ/٨٣٧م) المَسْجدَ بعد العِمَارةِ العَبَّاسيَّةِ للمَسْجدِ، فقال: ذرع مسجد الخَيْف من وجهه في طوله من حدته الَّتي تلي دار الإمارة إلى حدته الَّتي تلي عرفة، مائتا ذراع وثلاثة وتسعون ذراعًا واثنتا عشرة إصبعًا، وطوله ممّا يلي الجبل من حدته السفلى إلى حدته الَّتي تلي دار الإمارة؛ مائتا ذراع، وأربعة وستون ذراعًا وثماني عشرة إصبعًا، وعرضه مما يلي دار الإمارة؛ مائتا ذراع، وفي قبلة المسجد مما يلي دار الإمارة ثلاث ظلال[٣٠]، وفي شقه الَّذي يلي الطريق ظلة واحدة، وفي شقه الَّذي يلي أسفل منى ظلة واحدة[٣١]، وفيه من الأساطين[٣٢] مائة وثماني وستون أسطوانة، منها في القبلة ثماني وسبعون مما يلي بطن المسجد من ذلك أربع وعشرون، وفي شقه الأيمن أربع وثلاثون، وفي أسفله وهو الذي يلي عرفات: خمس وعشرون،

وفيه من القناديل مائة وواحد وسبعون قنديلاً منها في القبلة أحد وثمانون قنديلاً، وفي وسط المسجد؛ منارة مربعة عرضها ستة أذرع، واثنتا عشرة إصبعًا في مثله، وطولها في السماء؛ أربعة وعشرون ذراعًا، وفيها من الدرج إحدى وأربعون درجة، وفيها ثمان استراحات [٣٣].

وزار ابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ/٩٤٠م) المسجد وقال عنه: « بمِنى مسجد أكبر من جامع قرطبة، وهو مسجد الخَيْف، له مما يلي المحراب[٣٤] أربع بلاطات معترضة، سقفها من جرائد النخل، وعمدها مجصّصة[٣٥]، والمنبر على يسار المحراب، والباب الَّذي يخرج منه الإمام عن يمينه، وفي وسط صحن المسجد منارة، وفي كل جانب منها سقيفة»[٣٦].

وَقَامَ الوزِيرُ جمالُ الدِّين الأصبهانيُّ[٣٧] بتَجديدِ وَعِمارَةِ المَسْجدِ، إذ كانت لَهُ مَآثرُ حسنة بمكَّة المُكرَّمةِ، فأعاد تجديد وعمارة مسجد الخَيْفِ، وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وجدّد الحجر إلى جانب الكعبة، وزخرف البيت بالذهب، وبنى أبواب الحرم، وشيدها ورفع أعتابها صيانة للحرم، وبنى المسجد الذى على جبل عرفة، والدرج التي يطلع فيها إليه، وكان النَّاسُ يعانون في صعود شدة، وأجرى الماء إلى عرفات، وعمل البرك، وأجرى الماء في قنوات، وكان يعطى أهل مكَّة المُكرَّمة في كل سنة مالاً عظيمًا؛ ليجروا الماء إلى عرفات[٣٨].

ووصفه الرَّحّالةُ ابن جبير: « هو آخر مِنَى في توجهك أعني من المعمور منها بالبنيان، ... وهذا المسجد المبارك متسع الساحة كأكبر ما يكون من الجوامع، والصومعة وسط رحبة المسجد، وله في القبلة أربعة بلاطات يشملها سقف واحد، وهو من المساجد الشهيرة بركة وشرف بقعة، وكفى بما ورد في الأثر الكريم من أن بقعته الطاهرة مدفن كثير من الأنبياء صلوات الله عليهم»[٣٩].

رابعًا: عِمَارةُ مَسْجِدِ الخَيْفِ خِلَالَ العَصْرِ المَمْلُوكيِّ:

لم يَكُن اهتمامُ السَّلاطينِ والأُمراءِ مُقتصِرًا على الحَرَمَيْنِ الشَّريفَيْنِ، وإنَّما شَمَلَ المساجد التَّاريخيَّة الأخرى، وخاصَّة المساجد الَّتي تَقَعُ في المَشَاعرِ المُقدَّسةِ، والَّتي أصَابَهَا الهَدْمُ والتَّصدُّعُ مَعَ مُرورِ الزَّمنِ، فَقَامُوا بإصْلاحِها وتَجدِيدها، ويأتي على رأسها مسجد الخَيْف، ففي عام ٦٧٤هـ/١٢٧٥م أمر الملك المظفر[٤٠] صاحب اليمن بعمارة وتجديد مسجد الخَيْف، وأمر بإنشاء منارة له، واسمه مكتوب في لوح فيها[٤١].

وفي عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م عَمر شهاب الدين ابن المرجاني[٤٢] مسجد الخَيْف وأنفق على عمارته جملة كثيرة من ماله بلغت نحو عشرين ألف درهمًا[٤٣].

وقد تعرض المسجد لسيل عظيم في ذي الحجة سنة ٧٣٠هـ/مايو ٧٢٨م ملأ الفَسَاقِي[٤٤] الَّتي عند المعلاة، وخَرَّبَ الْبَسَاتِين[٤٥].

وفي آخر ذي الحجة سنة ٧٣٢هـ/ سبتمبر١٣٣٢م وقع بمكَّة المُكرَّمة أمطار وصواعق، ووقعت صاعقة قتلت رجلاً، ووقع في مسجد الخَيْف صاعقة فقتلت آخر[٤٦].

وقد خَصَّصَ السُّلطان الأشرف شعبان بن حسين[٤٧](٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٦م) مبلغ

ألف درهم لمسجد الخَيْف، منها خمسمائة درهم لعمارة المسجد وترميمه وصيانته، وخمسمائة درهم كأجر لبواب يَتَولّى حراسة المسجد، ويفتح بابه ويغلقه، ويقوم بتنظيفه وكنسه، ومنع مَنْ يتطرق إليه مِن أربَابِ التُّهمِ والفَسادِ، ومَنْ يقصد الدخول إليه بما يصان عنه المسجد، وعليه أنّ يحترز في ذلك كل الاحتراز ويجتهد في صيانته الاجتهاد التام؛ لتكون نظافته مستمرة على الدوام[٤٨].

وممَّن عمَّر المسجد الشيخ علي بن محمد البعداني[٤٩]، وقام ببناء بئر بالقرب منه [٥٠].

كـمَـا قـامَ الـسُّـلـطـان الـظـاهـر جقمق الـعلائـي[٥١](٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) بعمارة مسجد الخَيْف، وعَمَّر عين حُنَيْن[٥٢]، وأصلح مجاريها، وجدِّد في الحَرمِ الشَّريفِ عدَّة مواضع، وصرف في ذلك مالاً كثيرًا[٥٣].

وَوَصَـفَ الْـمُـؤَرِّخُ تَقِيُّ الدِّينِ الْفَاسِيُّ(ت: ٨٣٣هـ/١٤٣٠م) مَسْجِدِ الْخَيْفِ بعد عِدَّةِ تَجْدِيدَاتٍ لَهُ في الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ: هُوَ مَسْجِدٌ كَبِيرٌ مُرَبَّعٌ، فِي قِبْلَتِهِ أَرْبَعَةُ مَحَارِيبَ غَيْرُ مِحْرَابِهِ الْكَبِيرِ، ثَلَاثَـةٌ عَنْ يَسَارِهِ، وواحد عن يمينه، ومنبرُهُ درج عالية، وفي مُقدّمِهِ أربعة أرْوِقَة مَسقُوفة بآجر[٥٤] معقود بالنُّورةِ كالأَطباقِ، وله رواق[٥٥] آخر لاصق بجداره الذي يلي الطريق العظمى، غير مسقوف، وبابه الأعظم في نحو وسط هذا الجدار، وله باب آخر كبير في جداره المؤخر الَّذي يلي عرفات، وخوختان[٥٦] في جداره الَّذي يلي الجبل، وفي وسطه منارة مربعة بين يديها موضع مصلى النّبيّ ﷺ محوط بحجارة فيها محراب صغير، وفي طول المسجد فيما بين بابه الكبير والمنارة سقاية كبيرة معقودة في الأرض على أعمدة لها خمسة أبواب، تسقي الناس منها، وعن يمين القبلة من خارج الأروقة درجة لاصقة بالرواق الذي يلي الطريق، يصعد منه إلى أعلى سقف الأروقة المذكورة، وجدران المسجد عالية لها شرافات، وعلى باب المسجد الكبير نصب عال قد سقط أكثره، وقبة[٥٧] كبيرة كانت على المحراب سقطت أيضا مع جانب من وسط حائطه القبلي[٥٨].

وبلغ طوله من وسط حائطه القبلي إلى مؤخره: مائتا ذراع وعشرة أذرع، وعرضه من الجدار الذي فيه بابه الكبير إلى الجدار المقابل له الذي يلي الجبل: مائة ذراع وسبعة وتسعون ذراعا ونصف ذراع، وارتفاع جداره الذي يلي الجبل من داخله: ثمانية أذرع إلا ثلث، ومن خارجه: أربعة أذرع[٥٩].

وذرع الأروقة التي في مقدمه من جداره القبلي إلى مؤخرها: أحد وثلاثون ذراعًا، وذرع كل رواق منها طولاً من الجدار الذي يلي الطريق إلى الجدار الذي يلي الجبل: خمسة وثمانون ذراعا وثلثا ذراع، وعرضه: سبعة أذرع ونصف إلَّا الرواق الذي يلي الصحن فإنه سبعة فقط، وفي كل من جانبي هذا الرواق من الأبواب النافذة إلى صحن المسجد: ثلاثة أبواب: اثنان متلاصقان، وآخر مفرد يلي باب المسجد الكبير[٦٠].

أما عدد أساطينه: تبلغ أربع وثمانون أسطوانة في أربع صفوف، الأربعة المقدمة منه، منها في كل صف إحدى وعشرون أسطوانة، وعدد عقوده التي في الأروقة المقدمة: مائة وثمانية وستون عقدًا، منها في كل رواق: اثنان وعشرون

في عرضه، وفي كل صف: اثنان وعشرون في طوله[٦١].

ويُعَد السُّلطان الأشرف قايتباي المحمودي[٦٢](٨٧٢-٩٠١هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م) من أكثر سلاطين المماليك عنايةً واهتمامًا بعمارة المُقدسات الدِّينيَّة، حيث أولى الحرمين الشَّريفين والمشاعر المُقدَّسة بمزيد رعايته وعنايته، ومنها تجديده وعمارته لمسجد الخَيْف، ففي عام ٨٧٤هـ/١٤٧٠م قَامَ السُّلطان الأشرف قايتباي بعمارة وتجديد مسجد الخَيْف بعدما أصابه التصدع والهدم، وخُربت جدرانه، فبنى الجدران المحيطة به بالحجر والجص، وعمل له أربع بوائك[٦٣]، وبنى محراب بصدر الجهة القبلية بالرخام الأصفر المنحوت بيمينته ويسرته عمودان، فيه تاريخ باسم السُّلطان الأشرف قايتباي، وعلى المحراب قبة عظيمة مرتفعة محكمة العمل، يعلوها هلال من نحاس مبيض، وبُينت قبة كبيرة مثمنة عالية على المحراب الَّذي يتوسط المسجد أمام المنارة القديمة، قطر القبة ستون ذراعًا، وارتفاعها عشرون ذراعًا، وبأعلى القبة اسم السلطان، وهلال كبير من نحاس أبيض، كما بُنيت بوابة عظيمة مرتفعة معقودة بالرخام الأصفر المشهر بالرخام الأبيض محيط بالبوابة مكتوب منقوش أعلاه مؤرخ عليه اسم السلطان الأشرف قايتباي، وجميع ذلك مطلي بالذهب واللازورد[٦٤].

وبُنيت بوابتان للمسجد شرقية ويمانية، وأنشئ سبيل ملاصق له على يمين الداخل من باب المسجد بواجهة مبنية من الرخام الأصفر المنحوت المحكم العمل تحته صهريج كبير للماء، وعُمل للسبيل طاقات من الرخام، يتناول من الطاقات الماء المُعدّ للشرب، وبه أربعة شابيك كبار من جهاته الأربعة، وأرض السبيل مفروشة بالرخام الأصفر، وبه بيارة يستقى منها الماء من الصهريج على حوضه، وللسبيل خزانة لآلاته، وله بابان أحدهما: من الطريق، والآخر: داخل المسجد، كما بنى صهريج خارج المسجد، وعمل للمسجد بوابة هائلة مرتفعة معقودة بالرخام الأصفر المُشَهَّر بالأبيض يعلوها منارة مع بوابتين، ومُهدت أرض المسجد وما حوله من جهاته كلها، وبنى بجانبه دار سكن لأمراء الحج، وجملة ما صُرِّف عليه ثمانية آلاف ومئتان وتسعة وعشرون دينارًا أشرفيًا، وجدد عين عرفات، وكانت قد انْقَطَعت مُنْذ مائة وخمسين عَاما، فكان الْحجَّاج يقاسون فِي يوم عرفة من قلَّة المَاء ما لا صبر عليه، ثمَّ أصلح البرك وملأها بِالْمَاءِ[٦٥].

وكان القائم على العمارة الأمير سنقر الجمالي[٦٦] وأخوه شاهين الجمالي[٦٧]، وقد جاءت العمارة مغايرة تمامًا عن البناء القديم الذى وصفه الأزرقي في العَصْرِ العبَّاسيِّ، إذ بُني بطراز تتجلى فيه فطرة الإسلام من حيث البساطة وطبيعة البداوة، وقد أخذ تخطيط المسجد شكلاً مستطيلاً يبلغ طول الضلع الشمالي ١٤٧٥ مترًا، والضلع الجنوبي ١٣٢٥ مترًا، أمَّا طول الضلعين الشرقي والغربي ١٠٥ مترًا، ويبلغ عرض جدرانه ١٥ مترًا، وقد دُعمت تلك الجدران بدعامات من الخارج موزعة على مسافات شبه منظمة، وتبرز قليلاً من الداخل، وتُعَدُّ الواجهة الشمالية هي الواجهة الرئيسة، وفيها المدخل الرئيس، وهو أوسع وأعلى المداخل، بحيث يبرز عن الواجهة قرابة ٧٥ مترًا، وكان مكسوًا

بالرخام الأبيض والأصفر، ويعلو فتحة المدخل شريط كتابي من الرخام ملون باللون الذهبي يبدأ من الجهة اليمني وينتهي عند اليسرى ما نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم، عمَّر مسجد الخَيْف السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي سنة أربع وسبعين وثمانمائة». وبني بجوار المسجد دار لسكن أمير الحج أثناء إقامته بمِنَى[٦٨].

ولا شَكَّ أنَّ عِمَارةَ السُّلطانِ الأشْرفِ قَايتْباي للمَسْجدِ كَانَت مِن أوسَعِ التَّجدِيداتِ الَّتي شَهِدَها المَسْجدُ مُنْذ إنشَائهِ وحَتَّى العَصْرِ المَملُوكيِّ، حَتَّى حَدَا النَّهرَوانيِّ(ت: ٩٩٠هـ /١٥٨٢م) بالقَوْلِ: «إنَّ المسجد أثر عظيم باق إلى الآن من آثار المرحوم السلطان قايتباي»[٦٩].

والْجَديرُ بالذِّكرِ أنَّ تَوَالِي التَّجدِيداتِ والتَّرمِيماتِ لمَسْجدِ الخَيْفِ طَوَالَ العَصْرِ المَملُوكيِّ قد هَيَّأ المَسْجدَ لأدَاءِ رِسَالتهِ الدِّينيَّةِ والعلميَّةِ، وأَمَّهُ عددٌ مِن العُلمَاءِ؛ لِتَدارُسِ الْعِلمِ والفَتْوى، منهم على سبيل المثال:

سبأ بن شعيب اليمنى (ت: ٦٦٥هـ/١٢٦٧م) مفتى الحرمين الشَّريفين، كان ينزل بمسجد الخيف ويفتي به[٧٠].

وممَّن نَزَلَ وأَفْتَى بِه كَذَلِك: الإمام إبراهيم بن عبد الرحمن الفزاري[٧١](ت: ٧٢٩هـ/١٣٢٩م)، وقد اجْتَمعَ حَولهُ الناس[٧٢].

وشهاب الدين أحمد بن محمد الرباحي[٧٣] جَاوَرَ بِمَكَّة المُكرَّمة سَنَة، وَنَزلَ بِمَسْجدِ الخَيْفِ، ودفن بجواره[٧٤].

وأحمد بن سعد الخيفي المكي[٧٥] الَّذي سمع بمسجد الخَيْف[٧٦].

وحسن بن عبد المحسن بن أبي العميد بن خَالِد الخيفي، نَزلَ بِمَسْجدِ الخَيْفِ، وَكَتَبَ عَنهُ العَدِيدُ مِن طُلَّابِ العِلْمِ[٧٧].

ومَجْمَلُ القَوْلِ: إنَّ مسجِدَ الخَيْفِ حَظِي بِعِنَايَةٍ وَاهْتِمَامٍ مِن الخُلَفَاءِ وَالسَّلَاطِينِ؛ لما له مِن أَهَمِّيَّةٍ تَارِيخِيَّةٍ في مَكَّةَ المُكَرَّمَةِ، يُضافُ إلى ذلك مَكَانَتِهِ الدِّينِيَّةِ الْمُتَمَيِّزَةِ كأحدِ المَسَاجِدِ الَّتِي صَلَّى فيها النَّبِيُّ ﷺ؛ لذا لَقِي المَسْجِدُ رِعَايَةً وَعِنَايَةً مِن الخُلَفَاءِ وَالحُكَّام على مَرِّ العُصُورِ الإسْلَامِيَّةِ، وَخُصُوصًا في العصرِ المَمْلُوكِيِّ، إذ أُجْرِيَت له العديد من الإصلاحَاتِ والتَجْدِيداتِ.

الْخَاتِمةُ

الحمدُ لله في الْبَدْءِ وَالْخِتَامِ والصَّلاة والسَّلام على خيرِ الأنامِ، وعلى آله وصحبه الْكِرَامِ.

نتائجُ البحثِ:

أوَّلًا: تَبَوَّأَ مسجِدُ الخَيْفِ منزِلةً رفيعةً ومكانةً دِينِيَّةً مرمُوقَةً في نُفُوسِ الخُلفاءِ وَالسَّلاطِينِ عبرَ العُصُورِ، لفَضْله، وَوُقُوعِهِ في قلبِ المَشَاعِرِ المُقَدَّسَةِ، وقد ثبت أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى وخطب فيه، وأقام به عَدَدٌ كَبِيرٌ من الصَّحَابَةِ الكرامِ –رضي الله عنهم– ومن بعدهم كبارُ التَّابِعِين.

ثانيًا: كَشَفَ البَحْثُ أَنَّ أَوَّلَ عِمَارة لمَسْجِد الخَيْفِ في العصرِ العبَّاسيِّ كانت في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، ثُمَّ تَوَالَى خلفاءُ بني العَبَّاسِ على ترميمِهِ وتَجْديدِهِ.

ثالثًا: كان للوزِيرِ جمال الدِّين الأصبهَانِيّ المعروف بـ «الجَوَادِ» جُهُودُ جليلة في عمارَةِ المسجِدِ، إذ أنفق في سبيل ذلك أموالًا جزيلةً،

وقد وَثَّقَ أَثَرَ هذه العمارة عددٌ من الرَّحَّالَةِ والمُؤَرِّخِين، من أبرزهم الرَّحَّالة ابن جُبير.

رابعًا: أَبْدَى عددٌ من سلاطين المماليكِ اهتمامًا بالِغًا بتجديدِ المسجِدِ والعناية به، ومنهم السُّلطان جَقْمَق(٨٤٢–٨٥٧هـ / ١٤٣٨–١٤٥٣م)، وكذلك السُّلطان الأشرف شعبان (٧٦٤–٧٧٨هـ /١٣٧٧م)، الَّذِي أَوْلَى المسجِدَ عنايةً خاصَّةً بتعيينه عمالاً لخدمتِهِ والقِيامِ على شُؤُونِهِ.

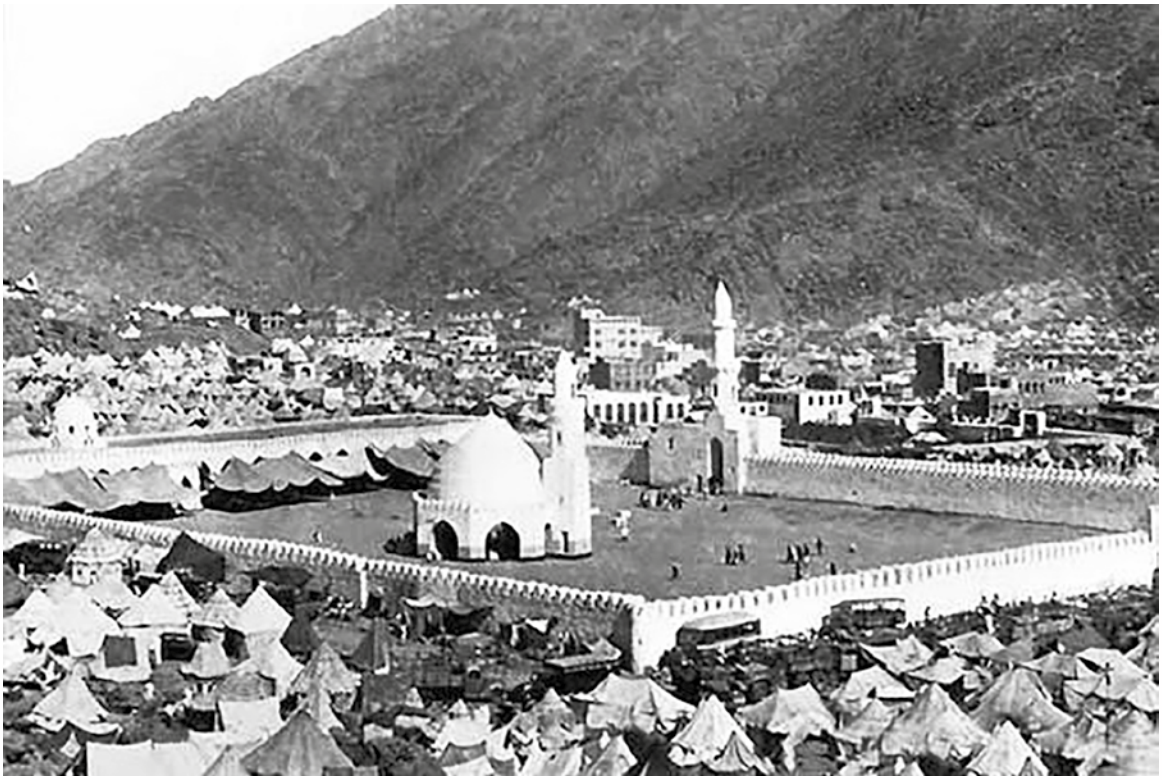
خامسًا: تُعَدُّ أعمالُ السُّلطان الأشرف قايتباي(٨٧٢–٩٠١هـ/١٤٦٨–١٤٩٦م) من أَبْرَزِ التَّجديداتِ والإصلاحاتِ الَّتي أُجريت للمسجدِ خِلَال العصرِ المملُوكِيِّ، إذ أمر بإنشاء أربع مَظَلَّاتٍ، وَقُبَّةٍ كبيرَةٍ تتوسَّطُ المسجِدَ، وأقام له بَوَّابتين في مدخلِهِ، ومَهَّدَ أَرْضه وما يُحيطُ به مِن جهاتٍ مُتعدِّدةٍ، كما أنشأ إلى جوارِهِ دارًا لِسَكن أُمَراءِ الحَجِّ.

سادسًا: لَمْ تَقْتَصر جُهُودُ عمارةِ المسجِدِ على الخُلفاءِ والسَّلاطِين، بل شَارَكَ فيها كبارُ الأعْيَان وَأَهْلُ الخيرِ من أصحابِ اليسارِ، منهم: الشَّيخُ علي البُعْدَانِي، وشهابُ الدِّين ابن المَرْجَانِي، فقد كانت بَصَمَاتٌ واضِحَةٌ في تجديدِ المسجِدِ والعنايةِ به.

هذا، فإنْ كان اجتهادي صائبًا فَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ، وإنْ كان غير ذلك فأرجو أن يكونَ لي أجر المجتهد.

وصلى اللَّهُمَّ وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.





مسجد الخيف قبل تجديده في العهد السعودي



مسجد الخيف من الداخل



قائمة المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

* **الأزرقي: (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي ت: ٢٥٠هـ/٨٣٧م).**

١. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: علي عمر، ط١، مكتبة الثقافة الدينية.

* **الأصفهاني: (أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت: ٤٣٠هـ/١٠٣٨م).**

٢. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م

* **ابن بامخرمة: (الطيب بن عبد الله بن علي بامخرمة ت: ٩٤٧ هـ/١٥٤٠ م).**

٣. قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: بو جمعة مكري، خالد زواري، ط١، دار المنهاج، جدة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨ م.

* **ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف بن تغري بردي الظاهري ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م).**

٤. المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت.

* **ابن جبير: (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ت: ٦١٤هـ/١٢١٧م).**

٥. رحلة ابن جبير، ط١، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د ت.

* **ابن الجوزي: (جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي ت: ٥٩٧هـ/١٢٠١م).**

٦. مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مصطفى محمد حسين الذهبي، ط١،

دار الحديث، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

* **الحاكم: (أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري ت: ٤٠٥هـ/١٠١٤م).**

٧. المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

* **ابن حجر: (أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م).**

٨. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

* **الحموي: (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م).**

٩. معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د ت.

* **الحنبلي: (عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي ت: ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م).**

١٠. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، ط١، دار بن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

* **ابن خلكان: (شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م).**

١١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٣٩١هـ/١٩٧١م.

* **الدمشقي: (محمد بن عبد الله الدمشقي ت: ٨٤٢هـ/١٤٣٨م).**

١٢. توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

* **الذهبي: (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ت: ٧٤٨ هـ/١٣٤٧م).**

١٣. سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

* **سبط ابن الجوزي: (شمس الدين يوسف بن عبد الله ابن الجوزي ت: ٦٥٤هـ /١٢٥٦م).**

١٤. مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: محمد بركات، كامل محمد الخراط، وآخرون، ط١، دار الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

* **السخاوي: (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت: ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م)**

١٥. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ط١، الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.

١٦. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت.

١٧. وجيز الكلام في الذيل على تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد، عصام فارس الحرستاني، أحمد الخطيمي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

* **السيوطي: (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ت: ٩١١هـ/١٥٠٦م).**

١٨. تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط١، مكتبة نزار الباز، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م

* **ابن شمائل: (عبد المؤمن بن عبد الحق بن شمائل القطيعي ت: ٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م).**

١٩. مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ /١٩٩١م.

* **ابن الضياء: (محمد بن أحمد ابن الضياء المكي ت: ٨٥٤هـ/١٤٥٠).**

٢٠. تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم، أيمن نصر، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

* **الطبراني: (سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني ت: ٣٦٠هـ/٩٧١م).**

٢١. المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د ت.

* **ابن عبد ربه: (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت: ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م).**

٢٢. العقد الفريد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٩٣م.

* **العصامي: (عبد الملك بن حسين العصامي المكي ت: ١١١١هـ/١٦٩٩م).**

٢٣. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل التوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

* **العليمي: (العماد عبد الرحمن بن محمد العليمي ت: ٩٢٨هـ/١٥٢٢م).**

٢٤. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان نباتة، مكتبة دنديس، عمّان، د ت.

* **الفاسي: (تقي الدين محمد بن أحمد بن علي المكي الفاسي ت: ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م).**

٢٥. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٢٦. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

* **الفاكهي: (أبو عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي ت: ٢٧٥هـ/١٣٢٥م).**

٢٧. أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

* **القلقشندي: (أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م).**

٢٨. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.

* **ابن كثير: (إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت : ٧٧٤هـ/١٣٧٢م).**

٢٩. البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م.

* **المزي: (جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزي ت: ٧٤٢هـ/١٣٤١م).**

٣٠. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

* **ابن منظور: (محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأنصاري ت: ٧١١هـ/١٣١١م).**

٣١. لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٨م.

* **النهرواني: (محمد بن أحمد بن محمد النهرواني ت: ٩٩٠هـ/١٥٨٢م).**

٣٢. الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق: هشام عبد العزيز، ط١، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د ت.

* **النويري: (أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الدائم النويري ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٣م).**

٣٣. نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

ثانيًا: المراجع:

١. **أحمد فؤاد باشا:** معجم المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي، ط١، مركز تحقيق التراث العربي، القاهرة، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

٢. **راشد سعد القحطاني:** أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٣. **عاتق بن غيث الحربي:** معالم مكة التأريخية والأثرية، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٤. **عاصم محمد رزق:** معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٥. **محمد علي عبد الحفيظ:** دراسات في تاريخ العمارة الإسلاميَّة، ط١، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

ثالثًا: الرسائل والأبحاث العلمية:

١. **آمنة حسين محمد علي:** طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢. **فرج الحسيني:** نقش كتابي بصهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة يسجل مآثر السلطان قايتباي المعمارية والحربية، مجلة أبجديات، القاهرة، العدد ١٣، ١٤٣٩ه/٢٠١٨م.

٣. **مشعل نايف عايض:** الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

الهوامش

١. مِنَى: سُمِّيت بذلك؛ لما يمنى فيها من الدماء أيّ يراق، وبينها وبين مكة ثلاثة أميال، وهي تشبه القرية مبنية على ضفتي الوادي، ومنى قرية بشرقي مكة، تنحو إلى القبلة قليلا خارجة عن الحرم، وأوّل ما يلقى منها الخارج من مكة إليها، جمرة العقبة، بعد يوم النحر أيام التشريق، وبها مسجد الخَيْف، وهو مسجد عظيم متّسع الأرجاء. ابن عبد ربه: (أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ت: ٣٢٨هـ /٩٤٠م) العقد الفريد، ط١، دار

الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٩٣م، ج٧، ص٢٨٧، القلقشندي: (أحمد بن علي القلقشندي ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ج٤، ص٢٦٢.

٢. ابن شمائل: (عبد المؤمن بن عبد الحق القطيعي البغدادي الحنبلي ت: ٧٣٩هـ/١٣٣٩م) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ج١، ص٤٩٥.

٣. الحموي: (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د ت، ج٢، ص٤١٢، ابن منظور: (جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأنصاري(ت: ٧١١هـ/١٣١١م) لسان العرب، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ/١٩٩٨م، ج٩، ص١٠٢.

٤. عاتق بن غيث: معالم مكة التأريخية والأثرية، ط١، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج١، ص٩٩.

٥. مشعل نايف عايض: الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٣١٩.

٦. الفاكهي: (محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي ت: ٢٧٥هـ/١٣٢٥م) أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج٤، ص٢٣١.

٧. عاتق بن غيث: معالم مكة، ج١، ص٢٧١.

٨. الحاكم: (أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري ت: ٤٠٥هـ/١٠١٤م) المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج٢، ص٧٧.

٩. الطبراني: (سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ت: ٣٦٠هـ/٩٧١م) المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط٢، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د ت، ج١١، ص٢٦٦.

١٠. الطبراني: المعجم الكبير، ج١١، ص٤٥٢.

١١. الأزرقي: (أبو الوليد محمد بن عبد الله الأزرقي ت: ٢٥٠هـ/٨٣٧م) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، دراسة وتحقيق: علي عمر، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، د ت، ج٢، ص١٦٧، الفاسي: (تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي ت: ٨٣٢هـ/١٤٢٨م) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط١، دار الكتب العلمية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج١، ص٣٥٠.

١٢. الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٥٠.

١٣. وهب بن منبه اليماني، تابعي جليل، وله معرفة بكتب الأوائل، وله صلاح وعبادة، روى عن معاذ بن جبل، وأبي هريرة، ورُويت عنه أقوال حسنة وحكم ومواعظ، توفي بصنعاء سنة ١١٠هـ/٧٢٨م. ابن كثير: (إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، دار الفكر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ج٩، ص٢٧٦.

١٤. أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، ولد في المدينة المنورة في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ومات بالبصرة عام ١١٠هـ/٧٢٨م. ابن خلكان: (شمس الدين

أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان ت: ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت،١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج٢، ص٦٩.

١٥. ابن الجوزي: (جمال الدين عبد الرحمن بن علي الجوزي ت: ٥٩٧هـ/١٢٠١م) مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: مصطفى محمد الذهبي، ط١، دار الحديث، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج١، ص٢٢٧.

١٦. عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي؛ نسبة إلى محلة الأوزاع، وهي قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق، ولد ببعلبك ونشأ بالبقاع يتيمًا في حجر أمه، كان إمام أهل زمانه، مات ببيروت مرابطًا عام ١٥٧هـ/ ٧٧٤م. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص١١٥.

١٧. أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي؛ كان إمامًا في علم الحديث وغيره من العلوم، وأجمع النَّاس على دينه وورعه، مات بالبصرة عام١٦١هـ/٧٧٧م. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٨٦.

١٨. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٠، ص١١٦.

١٩. الأصفهاني: (أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ت: ٤٣٠هـ/١٠٣٨م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٤، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ج٩، ص١٦٤، الذهبي: (شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ت: ٧٤٨هـ/١٣٤٧م) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، ط٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ج١١، ص٣٠٩.

٢٠. الحكم بن عتيبة الكندي الكوفي، عالم أهل الكوفة، ولد عام ٤٦هـ/٦٦٦م، وحدِّث عن شريح القاضي، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، مات عام ١١٥هـ/٧٣٣م. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٥، ص٢٠٨.

٢١. المزي: (جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزي ت: ٧٤٢هـ/١٣٤١م) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٧، ص١١٧.

٢٢. أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، ولد سنة ٩٥هـ/٧١٤م، بويع بالخلافة بعهد من أخيه، كان من أكثر بني العباس هيبة وشجاعة وحزمًا ورأيًا، مات عام ١٥٨هـ/٧٧٥م. السيوطي: (عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي ت: ٩١١هـ/١٥٠٦م) تاريخ الخلفاء، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط١، مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١، ص١٩٣.

٢٣. النويري: (أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري ت: ٧٣٣هـ/١٣٣٣م) نهاية الأرب في فنون الأدب، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٢٢، ص١٠٨.

٢٤. المتوكل على الله جعفر بن المعتصم العباسي، ولد سنة ٢٠٥هـ/٨٢١م، وبويع بالخلافة في سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م، فأظهر الميل إلى السُّنَّة، ونصر أهلها، ورفع المحنة، وكتب بذلك إلى الآفاق، مات عام ٢٤٧هـ/٨٦١م. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج١، ص٢٥٢.

٢٥. الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٢٨١.

٢٦. المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل بن المعتصم، ولد سنة ٢٢٩هـ/٨٤٤م، وفي أيامه دخلت الزنج البصرة وأحرقوا وخربوا

وسبوا، مات عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ج١، ص٢٦٤.

٢٧. الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٥٣.

٢٨. زمرد خاتون، كانت كثيرة البرّ والمعروف والصَّدقات، متفقدة لأرباب البيوت، حجت فأنفقت ثلاثمائة ألف دينار، وكان معها نحو ألفي جمل، وتصدقت على أهل الحرمين، وأصلحت البرك، وتوفيت في سنة ٥٩٨هـ /١٢٠٢م. سبط ابن الجوزي: (شمس الدين يوسف بن عبد الله سبط ابن الجوزي ت: ٦٥٤ هـ/١٢٥٦م) مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: محمد بركات، كامل الخراط، ط١، دار الرسالة العالمية، دمشق، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م ،ج٢٢، ص١٢٨.

٢٩. ابن الضياء: (محمد بن أحمد ابن الضياء المكي الحنفي ت: ٨٥٤هـ/١٤٥٠) تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق: علاء إبراهيم، أيمن نصر، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م، ج١، ص١٣٢، آمنة حسين محمد علي: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٣٥٤.

٣٠. مفردها ظلة، وتُطلق على المساحة أو الجزء المحيط بالصحن، ويتألف عادة من عدد من الأروقة، ومن المعروف أنَّ المساجد الجامعة الأولى كانت تتألف من أربعة ظلات، أكبرها ظلة القبلة، ويقابلها ظلة المؤخرة بالإضافة إلى الظلتين الجانبيتين . محمد علي عبد الحفيظ: دراسات في تاريخ العمارة الإسلاميَّة، ط١، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٨.

٣١. الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٧٤.

٣٢. العمود أو السارية، وهو العمود ذو البدن الدائري قطعة واحدة من الحجر أو الرخام. عاصم محمد رزق: معجم المصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٧.

٣٣. الأزرقي: أخبار مكة، ج٢، ص١٧٥.

٣٤. جمعها محاريب، أُطلق على المكان الذي ينفرد فيه الملك بعيدًا عن النَّاسِ، ومجلس النَّاسِ ومجتمعهم، ومنه محراب المسجد أو مقام الإمام وموضع انفراده فيه، وقيل: إنَّه مأخوذ من المحاربة؛ لأن المصلي يحارب كلاً من الشيطان ونفسه بإحضار نفسه وجوارحه للصلاة . عاصم محمد رزق: معجم مصطلحات العمارة، ص٢٦٢ .

٣٥. هو خام من كبريتات الكالسيوم المهدرة وضرب من الحجارة تطحن وتحرق لتستخدم في البناء، ومن مكوناته الصمغ ومساحيق الرخام . عاصم رزق: معجم المصطلحات المعمارية، ص٦٣.

٣٦. ابن عبد ربه: العِقد الفريد، ج٧، ص٢٨٧.

٣٧. الوزير جمال الدين أبو جعفر محمد بن علي الأصبهاني، المعروف بالجواد؛ لجوده، وزير صاحب الموصل قطب الدين مودود بن زنكي، كانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف، ومفزعًا لكل مكروب، ولم يكن في زمانه من يضاهيه ولا يقاربه في الجود والكرم، والإحسان والإفضال، كان كثير الصَّلات، عزيز البرّ والصَّدقات، وبنى على مدينة رسول الله ﷺ سورًا، وكانت الأعراب تنهبها وتغير عليها، فكان الخطيب يقول على المنبر: اللهمَّ صن حرم مَن صان حرم نبيك، مات عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م. ابن كثير:

البداية، ج١٢، ص٢٤٩ ، النويري: نهاية الأرب، ج٢٧، ص١٧٦، ابن الضياء: تاريخ مكة، ج١، ص١٣٢.

٣٨. ابن الضياء: تاريخ مكة، ج١، ص١٣٢.

٣٩. ابن جبير: (محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي ت: ٦١٤هـ/١٢١٧م)رحلة ابن جبير، ط١، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ج١، ص١٣٧، ١٣٨.

٤٠. الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول، صاحب اليمن، ولي السلطنة بعد أبيه، سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م، وتولَّى أمر الحرم وعمارته، وفى سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م، حج، فعمَّت صدقته بيوت مكة، وأحسن إلى الحاج، ونثر الذهب والفضة على الكعبة، وغسلها، وحمل الماء بنفسه، وكساها، وعمل للكعبة بابًا، وأقام بها، وله بمكة مآثر باقية إلى الآن منها: عمارة المواليد، وعمارة مأذنة مسجد الخيف، وجدّد مسجد عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - بالطائف، مات عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م. الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج٦، ص٢٥٣.

٤١. الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٥٤.

٤٢. شهاب الدين أحمد بن عمر الهمداني الدمشقي الشهير بابن المرجاني، جاور بمكَّة المُكرَّمة، وحدِّث، وجاور بالمدينةِ المُنوَّرة أيضًا، توفى بدمشق سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م. الفاسي: العقد الثمين، ج٣، ص٧٢ .

٤٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤، ص٩٦.

٤٤. مفردها فسقية، وهي حوض من الرخام ونحوه مستدير الشكل غالبًا في وسطه نافورة تمج الماء فيه. عاصم رزق: معجم المصطلحات المعمارية، ص٢١٣.

٤٥. الفاسي: شفاء الغرام، ج٢، ص٣٢١.

٤٦. الفاسي: شفاء الغرام، ط١، ج٢، ص٣٢١.

٤٧. السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون، ولد سنة ٧٥٤هـ/١٣٥٣م، ولي السلطنة بعد خلع السلطان المنصور محمد بن المظفر حاجي عام ٧٦٤هـ/١٣٦٣م، ومات عام ٧٧٨هـ/١٣٧٧م، وكانت مدة ملكه أربعة عشر عامًا وشهرين وعشرين يومًا. ابن تغري بردي: (جمال الدين يوسف بن تغري بردي الظاهري ت: ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، د ت، ج٦، ص٢٣٣.

٤٨. راشد سعد القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١١٦.

٤٩. نور الدين علي بن محمد بن يحيى البعداني اليمني المكي، قطن مكَّة المُكرَّمة أكثر من أربعين سنة، وأجاز له إبراهيم بن أحمد بن عبد الهادي، وأحمد بن أقبرص، كان قائمًا بحوائج من يقصده، كثير السخاء، لا سيَّما أهل الحرمين الشَّريفين، وحظي بمنزلة ومكانة عند سلاطين اليمن وأمراء مكة ومصر، وكان بينه وبين أبي فارس صاحب المغرب مكاتبة وصحبة بحيث كان يرسل إليه للبيمارستان كل عام مبلغًا جيدًا، وأمَّا صاحب مكة حسن بن عجلان فكان يجلّه ويعظّمه حتَّى قال: ما رأيتُ في المشايخ أعرف بأحوال الطوائف على اختلاف طبقاتهم، مات عام ٨٣١هـ/ ١٤٢٨م. السخاوي: (شمس الدين محمد بن

عبد الرحمن السخاوي ت: ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، د ت، ج٦، ص٢٦.

٥٠. السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة،ط١،الكتب العلمية، بيروت،١٤١٤هـ/١٩٩٣م،ج٢، ص٣١.

٥١. السلطان جقمق بن عبد الله العلائي الظاهري، سلطان الديار المصريَّة والبلاد الشَّاميَّة والأقطار الحجازيَّة، عمَّر في أيامه أشياء كثيرة من مساجد وجوامع وقناطر وجسور وغير ذلك، وكان جوادًا، مُغرمًا بحب الأيتام والإحسان إليهم وإلى غيرهم، مُحبًّا للعلماء والفقهاء والصالحين، يقوم لمَنْ يدخل عليه منهم، مات عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. الحنبلي: (عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي ت: ١٠٨٩هـ/١٦٧٨ م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، ط١، دار بن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ج٩، ص٤٢٥.

٥٢. عين عذبة الماء غزيرة، أجرتها أم جعفر زبيدة زوج هارون الرشيد، وهي تنبع من وادي نعمان، ثمَّ تمر في عرفات فتقطع وادي عُرنَة إلى الخَطْم، ثمَّ تنحدر إلى مِنى؛ فمكة، وكانت مصممة بطريقة انسيابية انحدارية، وكانت سقيا أهل مكة، إلى أن أُجريت عيون أخرى في العهد الحديث، وتبعد حوالي ٣٦ كيلو متر عن المسجد الحرام، وهي العين المعروفة اليوم بعين زُبَيْدة. عاتق بن غيث: معالم مكة، ج١، ص٨٨.

٥٣. العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٩، ص٤٢٥.

٥٤. لفظ فارسي معرب، معناه اللبن إذا طبخ لكي يستخدم في البناء، وهو عبارة عن مادة صلبة مقاومة للحريق والتلف، كانت تصنع يدويًا، أو بقوالب من الطين أو الوحل، وتوضع في الشمس لتجفّ. عاصم رزق: معجم المصطلحات، ص١١، أحمد فؤاد باشا: معجم المصطلحات العلمية في التراث الإسلامي، ط١، مركز تحقيق التراث العربي، القاهرة، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص١٠.

٥٥. يختلف معناه في المسجد عن معناه في البيت، فيُطلق في المسجد على المساحة المسقوفة المحصورة بين صفين من البوائك، كما يُطلق على المجموعة من البلاطات، فيقال: مثلاً رواق القبلة، أمَّا في البيوت الإسلاميَّة فيُطلق على الوحدة السكنية المكونة من دور وقاعات. محمد عبد الحفيظ: دراسات في تاريخ العمارة، ص٦.

٥٦. الخوخة هي كوة حائطية لتوصيل الضوء والهواء إلى داخل البناء. عاصم رزق: معجم المصطلحات المعمارية، ص١٠١.

٥٧. معلم معماريّ تميزت به أغلب الأبنية الدِّينيَّة عند المسلمين، والقباب جمع قبة، وهي بناء محدوب أشبه بكرة مشطورة من وسطها، أو بناء دائري مقعر من الداخل مقبب من الخارج يتألف من دوران قوس على محور عمودي ليصبح نصف كرة تقريبًا، وتُقام مباشرة فوق مسطح أو ترتفع على رقبة مضلعة أو دائرية أو على مثلثات كروية لتسهيل الانتقال من المربع إلى المثمن، ثُمَّ إلى الدائرة. عاصم رزق: معجم مصطلحات العمارة، ص٢٢١.

٥٨. الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٥١.

٥٩. الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٥١.

٦٠. الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٥٢.

٦١. الفاسي: شفاء الغرام، ج١، ص٣٥٢، ٣٥٣.

٦٢. الأشرف قايتباي الجركسي المحمودي الظاهري، سلطان الديار المصرية، ولد عام ٨٢١هـ/١٤١٨م، ولي السلطنة عام ٨٧٢هـ/١٤٦٨م، كان له عناية بالحرمين الشَّريفين، أقام مدرسة بمكة المكرمة، وأخرى بالمدينة المنورة، وأقام بجوارها رباطًا وخلاوي للفقراء وخزانة كتب وسبيل ومكتب للأيتام وغير ذلك، ووافته المنية عام ٩٠١هـ/١٤٩٦م. السخاوي: الضوء اللامع ، ج٦، ص٢٠١، التحفة اللطيفة، ج٢، ص٣٨٢، ٣٨٣.

٦٣. مفردها بائكة، وهي صف من الأعمدة تعلوه عقود. محمد علي عبد الحفيظ: دراسات في تاريخ العمارة، ص٣.

٦٤. السخاوي: وجيز الكلام في الذيل على تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد، عصام فارس الحرستاني، أحمد الخطيمي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص٨١١، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠٦.

٦٥. السخاوي: وجيز الكلام، ص٨١١، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٠٦، العصامي: (عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي ت: ١١١١هـ/١٦٩٩م) سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل التوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ج٤، ص٥٤.

٦٦. سنقر الزيني أبو السعادات الرومي الجمالي، ولد عام ٨٣٥هـ/١٤٣٢م، ترقى حتى عمل الشادية على عمائر السلطان قايتباي بمكة المكرمة والمدينة المنورة، وأضيفت له الحسبة بمكة وغيرها، مات عام ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٤٣٠.

٦٧. الأمير شجاع الدين شاهين الرومي القاهري الجمالي الحنفي، أحد الأمراء العشراوات، ولد في سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٥م، تعلم الكتابة وأجادها، وتميّز وشارك في الفضائل، وندبه السلطان للوقوف على عمارته في مكة ونواحيها، كإجراء عين عرفة، وعمارة مسجدي نمرة والخيف، ثمَّ استقرَّ في مشيخة الخدم بالمدينة النبويَّة سنة ٨٩١هـ/١٤٩٦م، مات بالمدينة المنورة في سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م. السخاوي: التحفة اللطيفة، ج١، ص٤٣٨.

٦٨. فرج الحسيني: نقش كتابي بصهريج يعقوب شاه المهمندار بالقاهرة يسجل مآثر السلطان قايتباي المعمارية والحربية، مجلة أبجديات، القاهرة، العدد ١٣، ١٤٣٩ه/ ٢٠١٨م، ص١٣٢.

٦٩. النهرواني: (محمد بن أحمد بن محمد النهرواني ت: ٩٩٠هـ/١٥٨٢م) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، ط١، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، د ت، ص٢٤٢.

٧٠. الفاسي: العقد الثمين، ج٤، ص١٧٠.

٧١. برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن بن سباع الفزاري الدمشقي، برع في الفقه وأصوله، وأتقن العربية وتفنن وجوَّد الكتابة، ونشأ في تصون وخير وإكباب على العلم، وتخرج به الفضلاء. ابن حجر: (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط٢، مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، الهند، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ج١، ص٣٦.

٧٢. ابن بامخرمة: (الطيب بن عبد الله بن علي بامخرمة الحضرمي ت: ٩٤٧ هـ/١٥٤٠م) قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، تحقيق: بو جمعة مكري، خالد زواري، ط١، دار المنهاج، جدة، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ج٦، ص١٩٠.

٧٣. شهاب الدين أحمد بن محمد الرباحي المغربي المالكي، كان من العدول بالقدس الشريف، وكان يؤذن بالمسجد الأقصى الشريف، توجه الى الحجاز الشريف في سنة ٨٧٤هـ/١٤٧٠م، مات سنة ٨٧٥هـ/١٤٧١م. العليمي: (العماد عبد الرحمن بن محمد العليمي ت: ٩٢٨هـ/١٥٢٢م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، د ت، ج٢، ص٢٥٠.

٧٤. العليمي: الأنس الجليل، ج٢، ص٢٥٠.

٧٥. شهاب الدين أحمد بن سعد الخيفي المكي، حفظ القرآن الكريم وحدِّث، وسمع من عبد الكريم الحلبي، وأبي اليمن الطبري، وعائشة بنت عبد الهادي، وغيرهم، كان مباركًا، مات بمكَّة المُكرَّمة سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٥م. السخاوي: الضوء اللامع،ج١، ص٣٠٤

٧٦. السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٣٠٤ .

٧٧. الدمشقي: (محمد بن عبد الله بن مجاهد الدمشقي ت: ٨٤٢هـ/١٤٣٨م) توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٣، ص٣٥١.

المؤثرات الداخلية للرياضيات التي أدت إلى انحسار تطورها في أواخر الحضارة العربية الإسلامية

أحمد محمد جواد الحكيم
باحث أكاديمي
العراق

مقدمـــة

شهدت الحضارة العربية الإسلامية عصرًا ذهبيًا من الازدهار العلمي، كان للرياضيات فيها نصيب وافر، إذ قدّم العلماء العرب والمسلمون إسهامات جليلة في فروعها الأساسية؛ كالحساب والهندسة والجبر وحساب المثلثات. غير أن هذا الازدهار لم يستمر على الوتيرة ذاتها، وبدأ وهج الرياضيات العربية في الانحسار خلال العصور المتأخرة، بدءً من القرن الخامس عشر الميلادي أو قبله (هناك اختلاف على ذلك كما سنرى لاحقًا). وقد كان هذا الانحسار نتيجة تداخل مجموعة من المؤثرات أو العوامل المعقدة، بعضها نابع من صميم الوسط العلمي للرياضيات نفسها، وبعضها الآخر مرتبط بالتحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عصفت بالعالم الإسلامي آنذاك، ومؤثرات أخرى تتصل بمدى اهتمام الحكام والولاة ونحوهم، برعاية العلم والعلماء. لكننا في هذه الدراسة، لن نتناول جميع هذه القضايا، إنما سنبحث عن المؤثرات الداخلية والتحديات المتأصلة في الممارسة العلمية للرياضيات نفسها، بمعنى محتواها وتركيبها، التي أثرت سلبًا في قدرتها على التطور والابتكار. ومن أهمها التحوّل من الابتكار إلى التقليد والتكرار، وانتشار ظاهرة الشرح والاختصار والتلخيص، واجتناب استعمال رموز الأرقام العشرية، واستمرارية استعمال حساب الجمّل حتى بعد ظهور رموز الأرقام العشرية، والتوسع كثيرًا في التعامل مع الكسور الحسابية، والافتقار إلى نظام فعال للتعبير الرمزي، والمبالغة في بحث الجوانب النظرية المجردة للأعداد، وغياب أسماء تختصر تكرار بعض مصطلحات الجبر والحساب، والتوجه نحو نظم الشعر لحفظ قوانين الرياضيات. هذه هي المحاور الأساسية في هذه الدراسة، التي سنبدؤها ببعض الموضوعات الأساسية.

موضوعات أساسية

قبل الدخول في دراسة المؤثرات الداخلية للرياضيات التي أدت إلى انحسار تطورها، عند العرب والمسلمين، لابد من توضيح بعض الموضوعات التي لها صلة بهذه المؤثرات.

١. القصد من انحسار تطور الرياضيات

إن المقصود من انحسار أو تضاؤل تطور علوم الرياضيات، هو انعدام الإبداع والابتكار واختفاء ظهور موضوعات جديدة في هذا العلم، بمعنى أن العلماء لم يستمروا في تطوير نظريات جديدة، أو إنتاج طرائق حسابية أو جبرية ونحوهما جديدة، أو توسيع آفاق البحث في الرياضيات. غير أن هذا لا يعني انعدام ظهور مؤلفات، تمثل شروحات أو تعليقات أو تلخيصات لمحتويات معينة من علوم الرياضيات في فترة من فترات تطوره. وعلى هذا الأساس لا يمكن تحديد محتوى الرياضيات، وحصرها ضمن موضوعات معينة؛ لأن ذلك سيمنع حصول الجديد والمفيد، كما فعل أبو بكر الصولي (ت: ٣٣٦هـ/٩٤٧م) بقوله عن محتوى الحساب: "أجمع الحسّاب من كل جنس وملة بكل خط ولغة على أن تراكيب الحساب لا تعدو أربعة: عدد يضرب في عدد، أو قسمة عدد على عدد، أو إلقاء عدد من عدد، أو زيادة عدد على عدد"[١].

٢. تعدد في الألفاظ التي تصف الانحسار

لم يكن هناك لفظًا أو كلمة واحدة متفقًا عليها، عند الكتّاب، لوصف الفترة التي بدأ فيها انحسار علوم الرياضيات أو العلوم في زمن الحضارة العربية الإسلامية، لذلك نجد تعددًا في هذه الألفاظ في مؤلفاتهم سواء كانت عربية أو غير عربية. ففي اللغة العربية نجد هناك كلمات مثل: أفول، تقهقر، انحطاط، ركود، تراجع، تدهور، تضاؤل، اضمحلال، تناقص، ضعف، انهيار، جمود، سقوط، توقف، انحدار. أما في اللغات غير العربية، كالإنكليزية مثلاً، هناك:

fall, decline, succumb, turned away, drop, extinguished, decay, stagnate, suppression, faded.

وكمثال؛ نذكر أحد النصوص التي تصف فترة الانحسار، من مقال: "الرياضيات والفلك والبصريات"، لخوان فيرنيه (هكذا يُنطق بالإسبانية) في كتاب «تراث الإسلام»، وهو ترجمة عن الإنكليزية، حيث يستعمل كلمة "decay"[٢]، وقد تُرجمت إلى "**اضمحلال**" فيقول: "يتبين من تطور العلوم الدقيقة في عالم الإسلام، أنها مرت بثلاث مراحل واضحة المعالم: وتتمثل المرحلة الأولى منها في العمل الذي قام به مترجمون ونقله... إلخ، وتلت فترة التمثل هذه سنوات النضج في الإنجاز العلمي... إلخ. وأخيرًا جاءت سنوات **الاضمحلال** التي استمرت عدة قرون، لكن هذا **الاضمحلال** كان يوقفه بين الحين والحين ظهور عبقري لامع بين الشعوب التي دخلت الاسلام"[٣]. ومع تعدد هذه المصطلحات فإننا نفضل استعمال كلمات مثل: انحسار، تضاؤل، انحدار.

٣. تباين في تحديد فترة الانحسار

اختلف المؤرخون على تحديد تاريخ انحسار تطور العلوم بما فيها الرياضيات، عند العرب والمسلمين، لأسباب كثيرة، وهي خارج نطاق

هذه الدراسة. فضلاً عن ذلك هناك من لا يحدد فترة الانحسار، وعوضًا عنها يحدد فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية، التي تشير بطريقة غير مباشرة إلى تاريخ التوقف. فمثلاً، يقول مؤرخ الرياضيات روز بول: "إن الدراسات العربية استمرت بالازدهار حتى القرن الخامس عشر (الميلادي)»[٤]. ويقول مؤرخ العلوم جورج سارتون: "بعد خمسة قرون من الصدارة أو الريادة، فإن الحضارة العربية قد انتهت تحت ضغط التقلبات السياسية، و... إلخ، وبدأت نهضة جديدة للرياضيات في أوربا الغربية"[٥]. لكنه لم يحدد بداية القرون الخمسة.

أما الذين حددوا فترة توقف تطور الرياضيات، سنذكر منهم، مؤرخ العلوم رشدي راشد، الذي يشرحها بصورة أخرى، وهي الحد الفاصل بين الرياضيات العربية والأوربية، فيقول: "وهكذا نجد أن الخط الفاصل الجديد لم يتحقق إلا في نهاية القرن السابع عشر. ومن هنا فإن إسهام الرياضيين العرب يندرج داخل تشكيلة متماسكة تمتد منذ القرن التاسع وحتى النصف الأول من القرن السابع عشر (الميلادي)»[٦]. كذلك يحدد مؤرخ العلوم فؤاد سزكين نهاية البيئة الثقافية العربية الإسلامية فيقول: "إن الإبداع أخذ يضعف حوالي منتصف القرن ١٦م إلى أن ركد منذ منقلب القرن ١٦م إلى ١٧م، بغض النظر عن حالات استثنائية قليلة"[٧]. ويحدد عبدالمنعم ماجد، تاريخ سقوط الحضارة الإسلامية بحوالي القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي[٨]. كذلك يحددها مؤرخ الرياضيات فيكتور كاتز، فيقول: "بحلول القرن الخامس عشر (الميلادي)، أصبحت الحضارة العلمية الإسلامية في حالة انحدار"[٩]. ويرى عالم الفيزياء، برنال، التوقف بشكل آخر فيقول: "كان من الواضح بعد القرن الحادي عشر، أن أفضل أيام العلوم الإسلامية قد انقضت، بالرغم من أنه لم يحدث انهيار لافت للنظر، فقد كان لا يزال هناك علماء متألقين كأفراد"[١٠]. أما مؤرخ العلوم رنيه تاتون، فقد كان أكثر تفصيلاً عن حقبة العلم العربي، من حيث انتشارها، ومن ثم تراجعها، فيقول: "تقع حقبة العلم العربي الكبرى عمليًا بين القرن ٨م والقرن ١٢م من عصرنا... وبنهاية القرن الثالث عشرم انتهت الحقبة العظيمة للعلم العربي... وفي النصف الأول من القرن ١٤م أخذ العلم العربي يتراجع بوضوح... وفي النصف الثاني من القرن ١٤... تأكد بتراجع مجمل العلم الإسلامي... وفي النصف الأول من القرن ١٥ م، تتميز هذه الحقبة بصورة أساسية بالتدهور شبه الكامل للعلم العربي، وهو تدهور خفف من حدّته قليلاً، الازدهار المؤقت للمدرسة الرياضية والفلكية في سمرقند... ويعتبر تاريخ تدمير مرصد سمرقند حوالي ١٤٦٠م النهاية الأخيرة للعلم العربي الوسيطي، وقد ثبت انحدارًا سوف يستمر حتى القرن التاسع عشر"[١١]. قد يكون أحد أسباب هذا التباين، هو الخلط بين بداية الانحسار، وبين توقف تطور الرياضيات. كما يحدد غريفوريان وروجانسكيا نهاية التقدم العلمي وبداية تدهور الرياضيات بقولهما: «وكان القرن الخامس عشر (للميلاد) هو القرن الأخير للتقدم العلمي في المقاطعات الشرقية للدولة الإسلامية. وكان مقتل أولغ بك[١٢] وتدمير مرصد سمرقند... بداية لتدهور العلوم الرياضية والميكانيكية والفلكية في الشرق في العصر الوسيط... وتحول مركز

العمل في المسائل الميكانيكية والفلكية والرياضية من الشرق إلى غرب أوربا»[١٣].

٤. معاناة نفسية واجتماعية لعلماء الرياضيات

لابد أن نشير إلى أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية لعلماء الرياضيات، ومعاناتهم النفسية تؤثر حتمًا على أعمالهم ونشاطاتهم، يتضح ذلك من خلال ما كتبه هؤلاء العلماء في مقدمة مؤلفاتهم، نذكر منهم: **إبراهيم بن سنان بن ثابت بن قرة** (ت: ٣٣٥هـ/٩٤٦م)، يقول في مقدمة رسالته "في وصف المعاني التي استخرجها في الهندسة وعلم النجوم": "وقد كانت لنا رغبة التعلم،... لكن حالت دونه حوائل، ومنعت عنه موانع، واتصل الشغل بما لم نستدعه، ولا اخترناه، ولا سلكنا بجهدنا سبيلًا يؤدي إليه: من نكبات متتابعة، وثلم في الحال، وخوف في خلال ذلك محوج إلى الاستتار ولم يكن معه الاستقرار في موضع واحد. ودعت الضرورة، بما تقدم من الحال، إلى النظر في أمور المعاش وقطعت هذه الأمور وغيرها، الفكر عن نظر في علم، بعدما كنا نظرنا فيه، وجهدنا في تحصيله. فجرى امتناعنا من التزيد مجرى الضرورة التي يتسع معها العذر»[١٤]. **وأبو سعيد أحمد بن محمد بن عبد الجليل السجستاني**، ويلقب أيضًا بالسجزي (ت: حوالي ٤١٤هـ/١٠٢٤م)، وقد بيّن معاناته في مقدمة كتابه عن «الشكل القطاع»، إذ يقول: "... فإن الكتاب إذا فارق واضعه وبعد عن موضح مشكله فلن يعدم سوء تحكم فريق من الناس فيه وطعنهم عليه أما مخالفة ما جرت به عاداتهم في الإبانة أو الاختصار أو الإطالة وإما بغير ذلك مما ينهى به بعضهم عن بعض فيكون تسرعهم إلى استقصار واضعه وذمهم له على حسب طاعتهم لأهوائهم، هذا مما نحن مدفوعون إليه بهذه البلدة التي نحن بها فإن جمهور أهلها يرون النظر في الهندسة كفرًا ويعتدّون الجهل بها فخرًا ويستحلون قتل المعتقد لصحتها صبرًا مع مالها من تأييد الرأي ورياضة النفس وتعويدها السلوك في سبيل الحقائق»[١٥]. لم يذكر السجستاني اسم البلدة، لكن بعد الاطلاع على سيرته، نعتقد أنها «شيراز» من بلاد فارس. **وأبو الريحان البيروني** (ت: ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) في مقدمة كتابه "تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن"، حين يشكو أهل زمانه: "إذا نظرت إلى أهل زماننا وقد تشكلوا في أقطاره بشكل الجهل، وتباهوا به وعادوا ذوي الفضل، وأوقعوا بمن اتسم بعلم، وساموه أنواع الظلم والضيم"[١٦]. **وعمر الخيام** (ت: ٥٢٦هـ/١١٣١م)، في مقدمة "رسائله"، يذكر الشيء ذاته، حين يتحدث عن صعوبة حل بعض مسائل الرياضيات فيقول: «ولم أتمكن من التجرد لتحصيل هذا الخير والمواظبة على الفكر فيه لاعتراض ما كان يعوقني عنه من صروف الزمان، فإنا قد مُنينا بانقراض أهل العلم، إلا عصابة قليلي العدد كثيري المحن، همهم افتراص غفلات الزمان ليتفرغوا في أثنائها إلى تحقيق وإتقان علمٍ. وأكثر المتشبهين بالحكماء في زماننا هذا يلبسون الحق بالباطل فلا يتجاوزون حد التدليس والترائي بالمعرفة. ولا ينفقون القدر الذي يعرفونه من العلوم إلا في أغراض بدنية خسيسة، وإن شاهدوا إنسانًا معنيًا بطلب الحق وإيثار الصدق، مجتهدًا في

رفض الباطل والزور وترك المراءاة والخداع، استحمقوه وسخروا منه والله المستعان على كل حال، وإليه المفزع»[١٧].

٥. شواهد عن مستوى الرياضيات في فترة الانحسار

سوف نقدم بعض الشواهد عن مستوى فروع الرياضيات، في مؤلفات القرون المتأخرة التي بدأ منها الانحسار. ومعظم هذه الشواهد صادرة عن مؤرخين أو محققين لهذه المؤلفات. نذكر هنا ما يقوله يوسف قرقور عن الإنتاج الرياضي بالغرب الإسلامي في الفترة ما بين القرنين ٣هـ/٩م و ٦هـ/١٢م، من خلال الأعمال الرياضية لابن قنفذ القسنطيني (ت: ٨١٠هـ/١٤٠٧م): "يتضح مما سبق أن ابن قنفذ لم يأت بمبرهنة جديدة أو خوارزمية جديدة في علم الحساب، وهذه الظاهرة ليست خاصة به، لأن الأبحاث الحديثة لم تظهر أي تجديد عند كل رياضيي هذه الفترة في المغرب الكبير وفي الأندلس"[١٨]. وينتقد، أحمد سعيدان، المستوى العلمي لكتاب "الكفاية" للإربلي (لم يحدد سعيدان عصر الإربلي عند تحقيقه كتاب الكفاية) بقوله: «إذا صح أن هذا الذي يصفه الإربلي في كتابه الكفاية، يمثل بمستواه ومضمونه، الحساب العملي الذي ورثه العرب... فإنه بلا ريب حساب هزيل»[١٩]. ويصف أحمد سعيدان، مثلًا، كتاب «اختصار الجبر والمقابلة» لابن بدر[٢٠] (عاش في القرن السابع الهجري) أنه يفتقر إلى الإبداع، فيقول: «ربما كان كتاب ابن بدر ناجحًا في وقته، بوصفه كتابًا للمتعلم يعرفه بمبادئ الجبر ومسائله المتنوعة. ولكنه بالتأكيد -في نظر الدارس الذي يتقصى تطور علم الجبر بعد عصر الكرجي والسموأل- ينم عن مرحلة خمول ذهني نفتقد فيها الإبداع والاندفاع"[٢١]. ويصف محمد سويسي، في كتاب: كشف الأسرار عن علم حروف الغبار للقلصادي (ت: ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)، بقوله: "هو ملخص وجيز في الحساب والجبر في متناول المبتدئين"[٢٢]. وكذلك يصف سعيدان كتاب «مراسم الانتساب في معالم الحساب» ليعيش بن إبراهيم الأموي الأندلسي (ت: بعد ٧٧٤هـ/١٣٥٣م)، فيقول: "وأما كتاب الأموي... وهو رسالة قصيرة، فيها تجنب للتطويل، ولكنها تعلّم من لم يتعلم"[٢٣]. ويبدي أحمد سعيدان، تقييمه لكتاب «تلخيص أعمال الحساب» لابن البناء المراكشي (ت: ٧٢١هـ/١٣٢١م) بقوله: «إلا أن الكتاب ذاته، إنما هو، كما يدل عليه اسمه: تلخيص، أنه أشبه بمذكرات مما يعطيه في هذه الأيام معلم قلق لطالب كسول، وهذه المذكرات لا تعلّم ولكنها تذكّر. وهي لا تفيد من لم يسبق له أن تعلّم. لأنها تلخيص للذكرى. بقي كتاب التلخيص سنين طويلة يعول عليه في المدارس المغربية. أخلص مما تقدم إلى أنه لا يفيد وحده من يبحث عن الأصالة والإبداع في الفكر الرياضي المغربي»[٢٤]. ويقول سعيدان أيضًا: "إن شهرة الكتاب لم تكن ناتجة عن براعة في عرض المادة أو إبداع في الابتكار، وإنما نتجت لأن الكتاب شديد الإيجاز، سهل الحفظ، في زمن كان الدرس فيه حفظًا عن ظهر قلب، وكانت الحضارة فيه آيلة إلى زوال»[٢٥]. ويحدد محمد أبلاغ انحسار أحد فروع الرياضيات وهو الهندسة، فيقول: "في كل الرياضيات المغربية بعد القرن ٧هـ/١٣م لم يتم تأليف أي كتاب هندسي نظري، حيث تم

إهمال الهندسة إهمالًا كبيرًا اللهم ما كان من الاهتمام بالتكسير أي حساب المساحات للحاجة العملية لها، وهي معرفة لا تتعدى على كل حال المبادئ الأولية في الهندسة»[٢٦]. ويصف أحمد بن علي بن عمر بن صالح الإربلي، في كتابه «الكفاية»، مستوى المتعلمين الضعيف، الذي يعزوه إلى أسلوب العلماء في التأليف والتعليم، فيقول: «إنه لما خلا الناس من طالب متحفظ وراغب متيقظ، ورفضوا صناعة الحساب، وجهلوا براعة الآداب ومكانة الكتاب ولا يفرق أحدهم بين القشرة واللباب، ولا يعلم هل أخطأ في حسابه أم أصاب، فعذرتهم لوجهين: تطويل المتقدمين وتقصير المتأخرين»[٢٧]. "وكذلك تشرح سونيا برينتيس" في كتابها «العلم والتعليم: تعليم العلوم وتعلمها في المجتمعات الإسلامية»، عن تعليم الرياضيات فتقول: "هناك العديد من نصوص التدريس التي أفادت المبتدئين، ومن ثم فهي ابتدائية جدًا. وعددها الكبير يحجب حقيقة حدوث التعلم والتعليم على مستوى أعلى أيضًا، وإن كان ذلك أقل على ما يبدو"[٢٨].

أسباب متعددة الجوانب متداخلة وراء انحسار تطور الرياضيات

يشير ازدهار الرياضيات، في فترة الحضارة العربية الإسلامية، إلى العصر الذهبي للتقدم الفكري من القرن الثامن للميلاد إلى الخامس عشر للميلاد تقريبًا، وأثناء هذه الفترة كان دور العلماء، ليس فقط حفظ المعارف القديمة لحضارات الإغريق والهنود والفرس، مثل ما يدّعي بعض مؤرخي الغرب، إنما قاموا بمساهمات عظيمة مثل: ابتكار الجبر، وإنشاء حساب المثلثات، والتقدم في الكسور العشرية، غير أن هذه الفترة المميزة من الجدة والإبداع لم تستمر على الوتيرة نفسها، إنما ضعفت وبدأت بالأفول، وانحسرت في النهاية. وعلى هذا الأساس بقي السؤال الدائم عن أسباب هذا الانحسار؟ الذي لابد من التصدي له لمعرفة ما جرى في تلك الفترة، لأخذ العبرة منها للسير في طريق التطوير والتقدم. غير أن هناك من لا يريد أو لا يرغب بمناقشة هذا الموضوع، كما عند المستشرق الفرنسي "كارا دي فو"، وهو أمر غريب، سنبين ما يقوله: "وقد يتبادر إلى الذهن أحيانًا هذا السؤال: ما هي أسباب وقوف النشاط العقلي في العالم الإسلامي؟ ما علة هذا الجمود الفجائي بعد فترة من النشاط العظيم المثمر؟ هذا السؤال على كل حال يثير بعض المعضلات الغامضة في سيكولوجية الشعوب العامة، وأنا نفسي لا أملك آراء خاصة في هذا كما ولست أرى ضرورة لهذه المحاولة"[٢٩]. وكما ذكرنا في المقدمة، أن أسباب انحسار تطور الرياضيات، لا يمكن فصلها عما يحدث في المجتمع من تحولات، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى أن هذه الأسباب أو العوامل، تتسم بالتعدد والتداخل. لهذا سيكون تركيزنا عن العوامل الذاتية، الداخلية للرياضيات بوجه عام، إذ كانت هناك اتجاهات في الرياضيات ضمن التقليد العربي الإسلامي، لعبت دورًا مهمًا في وقف تقدم الرياضيات وتطورها. ولابد أن نشير إلى أن مؤرخ العلوم "رشدي راشد" يرى أن هناك عقبتان أبطأتا انتشار الرياضيات عند العرب والمسلمين هما: انعدام الجرأة في استخدام الأعداد السلبية، ثم ضعف التعبير الرمزي[٣٠].

أولًا، التحـوّل من الابتـكار والتجديد إلى التقليد والتكرار

كـان الابتكـار فـي البدايـة، سمـة مميزة للرياضيات العربية الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى اكتشافات جديدة. لكن مع مرور الوقت، بدأ بعض العلماء في التمسك بالأساليب التقليدية والمحافظة على الممارسات القديمة. لذلك شهدت فروع الريـاضيـات الأسـاسيـة مثل: الحسـاب والجبر والهندسة ركودًا ملحوظًا في الابتكارات الجوهريـة، إذ لم يستمر البـاحثون في تطوير نظريات جديدة أو توسيع آفاق البحث الرياضي بشكل كبير كما حدث في الـعصور السابقة. وعوضًا عن ذلك ساد الاعتمـاد على الأعمال السابقة دون تقديم أفكار مبتكرة: مما قلل من النشاط العلمي، وأدى إلى انحسار الإبداع في الرياضيات. يؤكد ذلك ما ذكرهما "غريفوريان وروجانسكيا": "... وإن نشاط الأجيال اللاحقة من العلماء كان بشكل أساسي منصب على الاقتباس والنقل»[٣١]. ولابد من الإشارة إلى أن الأمر لا يخلو من أن هناك إبداعـات للعلماء العرب والمسلمين أثناء فترة الانحسار غير أنها ضئيلة بالنسبة للمؤلفات الأصيلة في المراحل السابقة. إن أحد المظـاهر التي تتسم بها فترة انحسار تطور الرياضيات، هي طبيعة الإنتاج المعرفي العلمي للمشتغلين بالرياضيات، فإذا كانت أعمالهم لا تحقق المعايير الخاصة بالتأليف، كأن تكون رصينة، أصيلة، تضيف شيئًا جديدًا إلى مجال الرياضيات، وأن تكون متميزة بالجدة، أو أن أعمالهم كانت تتسم بإعادة تدوير المادة بصيـاغـات أخرى، أو تـقـليد السـابـقين أو مختصرات، فإن ذلك يقلل من شأن المشتغلين بالرياضيات، لأن ذلك يعني أنه لم يكن هناك تطويرٌ أو ابتكـارٌ لموضوعـات جديدة. ويذكر محمد بن موسـى الخوارزمـي (ت: بعد ٢٣٢هـ/٨٥٠م)، في مقدمة كتابه «الجبر والمقابلة»، معايير الإنتاج الفكري فيقول: "ولم يزل العلماء في الأزمنة الخالية والأمم الماضية يكتبون الكتب، مما يصنفون من صنوف العلم... إما رجل سبق إلى ما لم يكن مستخرجًا قبله فورثـه من بـعده. وإمـا رجل شرح مما أبقى الأولون ما كان مستغلقًا فأوضح طريقه وسهل مسلكه وقرب مأخذه. وإما رجل وجد في بعض الكتب خللاً فلمّ شعثه[٣٢] وأقام أوده[٣٣] وأحسن الظن بصاحبه غير راد عليه ولا مفتخر بذلك من فعل نفسه"[٣٤]. ويبيّن أبو كامل شجاع بن أسلم (ت: ٣١٨هـ/٩٣٠م) الموضوعات التي أضافها في كتابه «الجبر والمقابلة»، زيادة عن محتوى كتاب الخوارزمي، «الجبر والمقابلة»، فيقول: "ووصلت به إلى أصول منغلقة وقياسات غير مفتحة ففرعت منها مسائل كثيرة يخرج أكثرها إلى غير الضروب الستة الي ذكرها الخوارزمي في كتابه... فولفت كتابًا في الجبر والمقابلة ورسمت فيه بعض ما ذكره محمد بن موسى الخوارزمي في كتابه ليكون مستغنيًا بنفسه عنه، وبينت شرحه، وأوضحت ما ترك الخوارزمي إيضاحه وشرحـه... ليكون ذلك زيادة للعلماء لحساب الجبر والمقابلة على ما عندهم منه"[٣٥]. ويشرح هذه الحالة أيضًا أبو الريحان البيروني (ت: ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) عند مقارنتها بطريقة تأليف كتابه «القانون المسعودي»، فيقول: "ولم أسلك فيه مسلك من تقدمني من أفاضل المجتهدين في حملهم من طالع أعمالهم واستعمل زيجاتهم[٣٦]

على مطايا الترديد إلى قضايا التقليد"[٣٧]. وفي الاتجاه ذاته يبيّن الإقليدسي (ت: بعد ٣٤١هـ/٩٥٣م)، بقوله: "إني لما نظرت في كتب من تقدم من العلماء بحساب الهند،... لم أر واحدًا منهم عمل ما عملته منه، إذ كان كل واحد منهم قد أتى ببعض ما ذكره قبله، وزاد عليه ما سنح له فكره وما قدمته له قريحته، وما زاد في ذلك على من كان قبله"[٣٨]. كما يذكر السموأل المغربي (ت: ٥٧٠هـ/١١٧٥م) في مقدمة كتابه «الباهر في الجبر»، معايير التأليف والأمانة العلمية: "قال السموأل بعد حمدالله على سني آلائه،... هذا الكتاب الذي جمعنا فيه أصول صناعة الجبر والمقابلة، وبرهنا منها على ما لم نجد أحدًا برهن عليه، وكملنا بما أودعناه من الأعمال المبتكرة والأشكال المبتدعة ما كان في أيدي الناس من هذه الصناعة، وعللنا فيه ما زعم فيثاغورس أنه أدركه بطريق الوحي، وجئنا به صفوًا منزهًا من التمويهات والشوائب، لم نخلط كلامنا بكلام من تقدمنا، لكنا نسبنا إلى أقدم من نقل ذلك عنه"[٣٩]. والشيء الرائع عند بعض العلماء العرب والمسلمين، هو بيان الغرض من تأليف كتبهم والمصادر التي اعتمدوها، على سبيل المثال؛ ما ذكره يعيش بن إبراهيم الأموي (ت: بعد ٧٧٤هـ/١٣٥٣م)، في مقدمة كتابه «مراسم الانتساب في معالم الحساب» فيقول: "فالغرض من هذا الكتاب... ضبط قواعد الأعمال المنقولة عن أعلام العلماء المتقدمين، وربط قوانينها بحدودها المعقولة، على حكم الحكماء المحققين"[٤٠]. ويعلق محقق هذا الكتاب، أحمد سليم سعيدان، بقوله: "فجعل كتابه من نمط الملخصات التي توجز للقارئ القواعد بعد أن يكون قد درس تفاصيلها وبراهينها وحل أمثلة عليها"[٤١]. ونعتقد أن الأمر ليس صعبًا بالنسبة للمختص بالعلوم، الخبير، أن يحكم على هؤلاء المشتغلين من ناحية التأليف الإبداع. ومن ناحية أخرى يقوم بتصنيفهم حسب مستويات إنتاجهم الفكري، كما فعل، على سبيل المثال، مؤرخ العلوم رنيه تاتون في كتابه تاريخ العلوم العام[٤٢]. ومن خلال ملاحظة مؤلفات علماء الرياضيات من القرون المتأخرة، نجد أن تركيز كثير منها على إبقاء الأعمال القائمة، وشرحها والتعليق عليها واختصارها، عوضًا عن تطوير الإنجازات الأصلية. لهذا فإن التركيز قد تحوّل من الاستكشاف الفعال وتوسيع حدود الرياضيات إلى تعزيز المعرفة الموروثة وتكرارها. إن هذا التحول الداخلي الفكري يعني أن التوجه والتقدم نحو الجديد في الرياضيات قد ضعف وانحسر. ولهذا فقد شهدت فروع الرياضيات، في المراحل المتأخرة من الحضارة العربية الإسلامية، ركودًا ملحوظًا في الابتكارات الجوهرية. وبذلك لم يستمر العلماء في تطوير نظريات جديدة أو توسيع آفاق البحث الرياضي بشكل كبير كما حدث في القرون السابقة. وعوضًا عن ذلك ساد الاعتماد على الأعمال السابقة دون تقديم أفكار مبتكرة، مما قلل من الحراك العلمي وأدى إلى انحسار الإبداع في الرياضيات. ويتضح التقليد والتكرار من موضوعات الحساب، مثلاً، في كتاب «خلاصة الحساب» للعاملي (ت: ١٠٣١هـ/١٦٢٢م)، الذي يقول عن مصادر محتوى كتابه: «وهذه رسالة حوت الأهم من أصوله ونظمت المهم من أبوابه وفصوله وتضمنت منه فوائد لطيفة هي خلاصة كتب

المتقدمين وانطوت منه على قواعد شريفة هي زبدة رسائل المتأخرين وسميتها خلاصة الحساب»[٤٣]. ولبيان التحول من الابتكار إلى التقليد، نأخذ مثالاً آخر عن تطور الجبر عند علماء الحضارة العربية الإسلامية، منذ تأسيسه ومن ثم تطويره في المراحل المتقدمة، ومن ثم ركوده وتوقف الابتكار والتوسع في المراحل المتأخرة، ويشرح ذلك أحمد سعيدان بقوله: «أسس الخوارزمي علم الجبر، وأقام عليه أبو كامل بناء، وأعلى الكرجي والسموأل صرح هذا البناء، حتى صار علمًا واسعًا يشتمل على الحساب ولا يشتمل فيه. بكتابي الفخري للكرجي، والباهر للسموأل، وجهود الخيامي والطوسي وزملائهما في حل المعادلات التكعيبية، وصل علم الجبر العربي... إلى ذروته... وبعد الذروة بدأ... بالانحدار والتقلص. لقد تركزت أذهان الرياضيين في المغرب العربي على جبر الخوارزمي»[٤٤]. إن ركود موضوع الجبر في العصور المتأخرة الذي أشار له سعيدان، لا يتفق كليًا مع ما ذكره مصطفى موالدي، إذ يقول هذا الأخير عند تحقيقه كتاب: «أساس القواعد في أصول الفوائد» لكمال الدين الفارسي (ت: ٧١٨هـ/١٣١٩م): "إن علم الجبر الذي أسسه الخوارزمي وتابعه أبو كامل وأغناه الخيام والكرجي ومدرسته،... ثم استأنفه الفارسي وغيره من الرياضيين العرب حتى بداية القرن السابع عشر شكل سلسلة متصلة دائمة التطور»[٤٥]. ونحن نرى أن الجبر لم يشكل سلسلة دائمة التطور، عند علماء الحضارة العربية الإسلامية المتأخرين، ولهذا نتفق مع ما ذكره سعيدان، بدليل أن الفارسي، مثلاً، في كتابه الذي ذكرناه قد أعاد المسائل الجبرية الست للخوارزمي[٤٦] دون ذكر ما طوره العلماء الذين ذكرناهم سابقًا. والدليل على ما ذهب إليه سعيدان، هو أن الخوارزمي في كتابه «الجبر والمقابلة» قد صنف المعادلات إلى ست أقسام من الدرجة الأولى والثانية، ولكن الكرجي والسموأل وعمر الخيام توسعوا وأضافوا، على سبيل المثال؛ حل المعادلات من الدرجة الثالثة. في المقابل ركز العلماء في المراحل المتأخرة على تصنيفات الخوارزمي وبعض من مسائل العلماء الذين جاؤوا من بعده، من ناحية الشرح والتعليق فحسب. عدا بعض الاستثناءات، كما في كتاب «إعداد الإسرار في أسرار الأعداد» لابن فلوس المارديني (ت: ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، فإنه توسع إلى حل معادلات من الدرجة الثالثة[٤٧]. غير أن هناك من بقى على استعمال الحالات الست للخوارزمي، كما ورد في كتاب «اختصار الجبر والمقابلة» لابن بدر، عاش في القرن السابع الهجري[٤٨]، وأرجوزة ابن الياسمين (توفي ذبيحًا في مراكش سنة ٦٠١هـ[٤٩]/١٢٠٤م). ويرى يوسف قرقور أن هذه الأرجوزة لم تأت بشيء جديد، فيقول: "والملاحظ أن ابن الياسمين لم يأت بجديد بالنسبة لما جاء به التقليد الجبري العربي للفترة الأولى (عصر الخوارزمي). وكذا بالنسبة للفترة الثانية (فترة أبي كامل والكرجي والسموأل)"[٥٠]. ويتضح ذلك من قراءة هذه الأرجوزة، وهي عبارة عن تلخيص لحل المعادلات من الدرجة الأولى والثانية التي ذكرها الخوارزمي. ويؤكد ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) في مقدمته أن أهل الغرب الإسلامي قد استعملوا وشرحوا المعادلات الست

للخوارزمي، وكأنهم لم يطلعوا على التطور الذي حصل عليها، فيقول: "وكتابه (يقصد كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي) في مسائله السّتّ من أحسن الكتب الموضوعة فيه. وشرحه كثير من أهل الأندلس... وقد بلغنا أنّ بعض أئمّة التّعاليم من أهل المشرق أنهى المعادلات إلى أكثر من هذه السّتّة الأجناس، وبلغها إلى فوق العشرين واستخرج لها كلّها أعمالا وأتبعه ببراهين هندسيّة"(٥١). والأمر المؤسف أن هناك من العلماء من يعتقد أن الحالات أو الأبواب الست الجبرية هي التي انتهى إليها العلماء كما يقول الشيخ محمد بن عبدالله بن محمد بن فيروز الحنبلي الإحسائي (ت: ١٢١٦هـ/١٨٠١م) في كتابه "هداية طلاب قوانين الحساب إلى معالم الحساب»: "وهذه الأبواب الستة الجبرية التي انتهت إليها أفكار الحكماء، فإذا ورد عليك باب منها..."(٥٢).

ثانيًا، انتشار ظاهرة الشرح والاختصار والتلخيص

كان تركيز علماء الرياضيات في المراحل المتقدمة من الحضارة العربية الإسلامية، منصبًا على البحث والترجمة والابتكار، مما أدى إلى اكتشافات جديدة، غير أن هذه الأولويات المعرفية، قد تحولت وتغيرت، إذ أصبح هناك اهتمام كبير في الشرح والتعليق والتلخيص والاختصار للمعرفة السائدة، وإبقاء أعمال العلماء السابقين دون تطوير في أغلب الأحيان، عوضًا عن توليد نظريات أصيلة في الرياضيات أو توسيع المعرفة من خلال أبحاث جديدة. وقد بيّن عبدالقاهر البغدادي (ت: ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) في كتابه "التكملة في الحساب" أن هناك نوعان من الكتب الحسابية، شرح مطوّل، وآخر مختصر، كما يقول: "أما بعد، فأني نظرت في الكتب الحسابية، فوجدتها نوعين: أحدهما على حد الاستقصاء - في أبوابه، دون فصوله؛ والآخر على حد الاختصار الذي يعرفه الماهر في الحساب، دون المبتدئ فيه"(٥٣). ويمكن ملاحظة بروز ظاهرة الشرح والاختصار والتلخيص، بسهولة من خلال تتبع طبيعة مؤلفات الرياضيات في العصور المتأخرة، من ناحية محتواها وعناوينها. والأمر لا يقف على الكم الهائل من الشروح، الذي يتضمن شرح لأحد المؤلفات لمرة واحدة، إنما لأكثر من ذلك بكثير. أضف إلى ذلك نجد شروح على الشروح، أو تلخيص على التلخيص، أو شرح التلخيص، أو أن المؤلف يقوم بشرح كتابه، أحيانًا أكثر من مرة واحدة، وهكذا. ويرى محمد إبلاغ أن بداية بروز هذه الظاهرة كان عند ابن البناء المراكشي (ت: ٧٢١هـ/١٣٢١م)، فيقول: «...تأليف ابن البنا لكتابه الشهير «تلخيص أعمال الحساب» الذي هو عبارة عن تجميع دقيق للقواعد الحسابية...، وسيقوم ابن البنا بشرح كتابه هذا في كتاب سمّاه «رفع الحجاب عن وجه أعمال الحساب»...، فإنه يعكس الاتجاه الذي سيسود فيما بعد على مستوى التأليف والبحث الرياضي أي انتشار ظاهرة الشرح والاختصار"(٥٤). وفي الإطار ذاته يقول محمد إبلاغ أيضًا: "فكل الكتب الرياضية التي ألفت ابتداء من القرن ٦هـ/١٤م الموجودة اليوم هي إما شروح أو أراجيز أو مختصرات على التلخيص (يقصد كتاب ابن البناء) باستثناء كتاب القطرواني "رشفة الرضاب في العمل بثغور الحساب"(٥٥). ومن أكثر

المؤلفات التي لاقت شرحًا و تلخيصًا واختصارًا، هي: (١) "خلاصة الحساب"، لبهاء الدين العاملي (ت: ١٠٣١هـ/١٦٢٢م). (٢) "الأرجوزة الياسمينية في الجبر والمقابلة"، لابن الياسمين (ت: ٦٠٠هـ/١٢٠٥م). (٣) "تلخيص أعمال الحساب"، لابن البناء المراكشي (ت: ٧٢١هـ/١٣٢١م). (٤) "نزهة النظار في قلم (أو في صناعة) الغبار"، وكذلك: "منظومة المقنع في الجبر والمقابلة"، لإبن الهائم (ت ٨١٥هـ/١٤١٢م). ولا بد من الإشارة إلى أن هذا التغير في الاهتمام والتركيز على الشروح ونحوها، أدى بشكل طبيعي إلى تأخير أو إبطاء وتيرة التطوير. وبهذا الإطار نذكر ما يقوله ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) عن سلبيات كثرة التأليف والاختصارات: "اعلم: أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التأليف، واختلاف الاصطلاحات في التعليم، وتعدد طرقها". ثم يمضي بالقول: "ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق وأنحاء في العلوم يولعون بها، ويدونون منها برنامجًا مختصرًا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار الألفاظ، وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن. وصار ذلك مخلاً بالبلاغة وعسرًا على الفهم... فقصدوا إلى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأركبوهم صعبًا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها"[٥٦].

ومن الذين انتقدوا الشروح والاختصارات المؤرخ "أحمد سعيدان" في كثير من مؤلفاته كما سنرى لاحقًا. أما المؤرخ "جورج صليبا" فيرى عكس ذلك، فهو يعتبر الشروح والتعليقات كنقطة ارتكاز يبين من خلالها وبالدليل الملموس مدى الإبداعية والأصالة التي انطوت عليها هذه الشروح وليبرز في الآن نفسه أن هذا النمط من الكتابة والتأليف كان هو النمط الطبيعي الذي يلجأ إليه الكتّاب آنذاك للتعبير عن أفكارهم وآرائهم المتسمة بالإبداعية والجدة[٥٧]. كذلك يدافع "مصطفى مواليدي" عن الشروح، دون أن يذكر عملية الابتكار عند العلماء، في مقدمته لكتاب «إرشاد العُجم لأعمال الجذور الصم» لمحمد بن أبي الفتح الشافعي المصري (كان حيًا سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م) عن اهتمام العلماء في القرنيين ٩ و١٠ الهجريين/ ١٥ و١٦ الميلاديين، فيقول: "اهتم العلماء بوضع الأراجيز والكتب المركزة جدًا، مما دفع بعض العلماء إلى تأليف الشروح والحواشي والتعليقات على ذلك النوع من المؤلفات، بهدف تبسيطها لطلاب العلم، ومن ثم انصبت جهود العلماء على وضع مؤلفات تدريسية"[٥٨]. إن كثرة الشروح والاختصارات والتعليقات، على محتوى مادة الرياضيات، تكون مفيدة، في كثير من الأحيان للمتعلم المبتدئ، كما يبيّن ذلك ابن الأكفاني (ت: ٧٤٩هـ/١٣٤٨ م)، حين يصنف كتب العلوم بحيث تناسب مستوى المتعلمين، فيقول: "وأما كتب العلوم فإنها لا تحصى كثرة،... ولكن تنحصر من جهة المقدار في ثلاثة أصناف: مختصرة أوجز من معناها وهذه تُجعل تذكرة لرؤوس المسائل ينتفع بها المشتهى للاستحضار، وربما أفادت بعض المبتدئين الأذكياء،... ومبسوطة تقابل المختصرة، ويُنتفع بها للمطالعة، ومتوسطة لفظها بإزاء معناها ونفعها عام"[٥٩]. ومع ذلك فإن هذا لا يبرر الاهتمام الواسع والمبالغة في تأليف الشروح والاختصارات

والتلخيص، لأنها قد تكون أحد المؤشرات على ضعف مستوى هؤلاء المتعلمين، التي نلاحظها من انحدار في الفترة المتأخرة من الحضارة العربية الإسلامية، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، فهي تدل على تدني الاهتمام بالإبداع والابتكار. ولهذا نجد عند متابعة الإنتاج الفكري في علوم الرياضيات، أن الشروح والتعليقات والاختصارات عن مؤلفات سابقة قد بدأت منذ النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي تقريبًا، وهو تاريخ تراجع العلم العربي، حسب ما يبين رنيه تاتون، الذي ذكر أن النظام الأعرج قام بشرح عدة كتب من كتب الطوسي، كما شرح الرياضي الفلكي ابن قنفذ القسنطيني (بعض كتب) ابن البناء المراكشي، وكتب ابن الهائم المصري كتبًا أولية حول الفلك والرياضيات[٦٠]. وخير شاهد على ما ذكرناه هو طبيعة المؤلفات العربية الكثيرة للشروح والتعليقات والاختصارات، لكننا قبل ذلك سنبين ما يكتبه المؤلفون عن سبب استعمالهم هذا النوع من الكتابة، نذكر ما يقوله بدر الدين محمد بن محمد سبط المارديني (ت: ٩١٢هـ/١٥٠٦م)، في كتابه "رقائق الحقائق في حساب الدرج[٦١] والدقائق»، الذي يمثل شرحًا واختصارًا إلى كتاب «كشف الحقائق في حساب الدرج والدقائق»، لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن المجدي (ت: ٨٥٠هـ/١٤٤٧م)، يقول المارديني: "ولم أقف على مقدمة شافية في هذا الفن (يقصد الأعمال الفلكية) غير مقدمة... شهاب الدين أحمد بن المجدي... المسماة بكشف الحقايق في حساب الدرج والدقايق، ولا أعرف في هذا الفن مصنفًا قبلها وإنما يوجد كلام قليل غير كاف في مقاصد هذا العلم لكنه (أي ابن المجدي)... أطال فيها بالإشارة إلى طريق الأقدمين من المفتوح[٦٢] والغبار[٦٣] وإشباع القول... فحصل في عبارته صعوبة بحيث لا يكاد بعضها يفهم إلا بعد تأمل طويل فأردت أن أختصر منها مقدمة نافعة... وأبسط المواضع التي بالغ في اختصارها، بالعبارة السهلة والأمثلة الكثيرة الواضحة وأعرض عن الإشارة إلى طريق الأقدمين وعن ما لا حاجة إليه وسميتها رقايق الحقايق في حساب الدرج والدقايق"[٦٤]. ومن المؤلفات الأخرى لسبط المارديني التي تعتمد على الشرح والاختصار، هي كتاب «تحفة الألباب في علم الحساب» الذي يقول فيه: "وهذا مختصر سهل لمن يريد الشروع في الفرائض من أولي الألباب"[٦٥]. وللمارديني أيضًا شرح لأرجوزة ابن الياسمين، المعروفة، وقد أطلق على هذا الشرح اسم «اللمعة المارديني في شرح الياسمينية في الجبر والمقابلة»، جاء في مقدمته: "فهذا تعليق على الأرجوزة الياسمينية في علم الجبر مختصر جدًا لم يسألني فيه أحد وإنما ولعت به من البطالة والكسل هروبًا من الاشتغال والملل"[٦٦]. وللمارديني مؤلفات أخرى، معظمها تتسم بالشروح[٦٧]. أضف إلى ذلك هناك شروح عديدة على أرجوزة ابن الياسمين، كما ذكرنا، فمثلاً ذكر اليعقوبي اثنا عشر شرحًا[٦٨]. ونحن نضيف لها شرحًا آخر هو «مبادئ السالكين في شرح رجز ابن الياسمين» لابن قنفذ القسطنطيني[٦٩] (ت: ٨١٠هـ/١٤٠٧م). كما أن جلال شوقي ذكر ثلاثة عشر عالمًا قاموا بشرح هذه المنظومة[٧٠]. ولابد من الإشارة إلى أن هناك أمثلة كثيرة عن تلك المؤلفات التي تحوي

الشروح والتلخيصات، بخاصة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، ولا يمكن الإحاطة بها، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لابد من التأكيد أننا في هذا العرض لا نريد الانتقاص من قيمة هذا الإنتاج الفكري للعلماء العرب، إذ أنها ذات قيمة عالية في التوضيح والتبسيط، لكنها في الوقت ذاته لا تحوي على موضوعات جديدة مبتكرة. وقد وصف أحمد سعيدان هذا الإنتاج، خير وصف، إذ يقول عن ابن البناء المراكشي (ت: ٧٢١هـ/١٣٢١م)، بخصوص كتابه «تلخيص أعمال الحساب»: "هو خلاصة لكتاب مغربي سابق، يفيد الطالب في المراجعة، وقلما يفيدنا في تتبع علم الحساب في تقدمه. إلا أن الكتاب اشتهر في المغرب، وكثر شرّاحه"[٧١]. ويبيّن سعيدان تقييمه لأعمال ابن البناء فيقول: "وقد لا يكون ابن البناء من المبتكرين في الحقل الرياضي، ولكنه بالتأكيد في ضوء غزارة إنتاجه، ووضوح نصوصه ونهجه العام، كان رياضيًا من الطراز الأول"[٧٢]. ويُعد كتاب «تلخيص أعمال الحساب» لابن البناء المراكشي من أكثر المؤلفات التي لاقت شرحًا وتلخيصًا، والغريب أن ابن البناء قام هو أيضًا بشرح كتابه، تحت عنوان: "رفع الحجاب عن وجوه أعمال الحساب». كما يعدد محمد المنوني، ثمان وعشرين شرحًا لهذا الكتاب، منها: كتاب «حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب» لابن قنفذ: أحمد بن حسن بن علي ابن الخطيب القسنطيني، (ت: ٨١٠هـ/١٤٠٧م). واختصر ابن قنفذ من «حط النقاب» (أي اختصر كتابه) شرحًا وجيزًا باسم: "التلخيص في شرح التلخيص". ومن الشروح: شرحان مطول ومختصر على "تلخيص الحساب" كلاهما من تأليف القلصادي: علي بن محمد بن محمد القرشي، الأندلسي البسطي، (ت: ٨٩١هـ/١٤٨٦م)[٧٣]. ومن الشروح الكثيرة نذكر أيضًا، ما يبيّنه أحمد سعيدان عن شروح كتاب الكرجي (ت: ٤١٠هـ/١٠٢٠م) "الكافي في الحساب" فيقول: "ظل يستعمل وظلت تكتب عنه الشروح حتى أواخر العهد الإسلامي، ومن هذه الشروح كتاب «الشرح الشافي لكتاب الكافي» لمحمد بن علي بن أحمد الشهرزوري (القرن ١٢م)"[٧٤]. ومن شروح الكتب العديدة، نذكر كتاب «أساس القواعد في أصول الفوائد» لكمال الدين الفارسي (ت: ٧١٨هـ/١٣١٩م)، هو شرح لكتاب "الفوائد البهائية في القواعد الحسابية" لعبدالله بن محمد الخوام البغدادي (ت بعد ٧٢٤هـ/١٣٢٤م). ونظرة سريعة إلى مؤلفات ابن الهائم المصري المقدسي (ت: ٨١٥هـ/١٤١٢م) التي تخص الرياضيات، نجد كثيرًا منها هي شرح وتلخيص، أغلبها لمؤلفاته هو نفسه، وقسم قليل هو تلخيص أو شرح لمؤلفات غيره، كما أن هناك من شرح واختصر مؤلفات ابن الهائم. ولمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتاب "المعونة في علم الحساب الهوائي" لابن الهائم[٧٥]. وفي نهاية هذه الفقرة، يمكن الرجوع إلى كتاب «جامع الشروح والحواشي "لعبدالله محمد الحبشي[٧٦]، للاطلاع على العدد الهائل من الشروح. وحتى الشروح أحيانًا تتضمن صعوبات، فعلى سبيل المثال؛ يبيّن مهدي عبدالجواد صعوبة مادة بعض كتب القلصادي (ت: ٨٩١هـ/١٤٨٦م)، وهو «بغية الطالبين على جذور ابن الياسمين»، فيقول:

«ولا يدرس هذا الكتاب للطلبة المبتدئين لصعوبة مادته بل لا يقرأه إلا من تحصل منهم على خبرة عالية في العمليات الحسابية وفي حساب الكسور مع تطبيقاتها في مسائل الميراث والمعاملات»[٧٧].

فإذا كان شرح الياسمينية صعبًا، فكيف يكون مستوى الأرجوزة الياسمينية الأصل؟! مما سبق يمكننا أن نلاحظ القضايا الآتية:

١. **هناك عددًا كبيرًا، غير مألوف**، من الشروح والاختصارات والتعليقات والحواشي، لكثير من المؤلفات.

٢. **وجود شروح أو حواشي لمؤلفات، هي بالأساس شروح إلى مؤلفات أخرى**، أي شرح على الشرح. على سبيل المثال حاشية بعنوان: "فرائد عوايد جبرية على شرح السبط للماردينية"، لشمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفني (ت: ١١٨١هـ/١٧٦٧م)[٧٨]، وشرح السبط للماردينية هي شرح للأرجوزة الياسمينية.

٣. **هناك شروح لمؤلفات هي بالأساس تلخيص لمؤلفات أخرى**، فمثلاً كتاب «الحاوي في علم الحساب» لابن الهائم، وهو مختصر تلخيص ابن البناء المراكشي[٧٩].

٤. **قيام المؤلف نفسه بشرح أو اختصار أحد كتبه**، على سبيل المثال: قام ابن الهائم بشرح قصيدته «المقنع في علم الجبر والمقابلة»، ثلاثة شروح واختصارات، هي: "الممتع"، و«المسرع»، و«المسمع»[٨٠].

٥. **حدوث الدورانية في التأليف**، بمعنى أن الكاتب يؤلف أو يلخص أو ينظم شعرًا على ضوء كتابًا آخر، ثم يعود إلى شرح ما كتبه، فكأنه عاد إلى نقطة البدء. على سبيل المثال: كتاب "منية الحساب" لابن غازي المكناسي الفاسي (ت: ٩١٩هـ/١٥١٣م) هو أرجوزة نظمها على ضوء كتاب «تلخيص أعمال الحساب لابن البناء»[٨١][٨٢]. ثم يعود ابن غازي نفسه ويشرح أرجوزته "منية الحساب" تحت عنوان: "بغية الطلاب في شرح منية الحساب"[٨٣].

ثالثًا، اجتناب استعمال رموز الأرقام العشرية

إن رموز الأرقام العشرية في العدّ والحساب، تعني استعمال الطرق الهندية، لتمثيل الأعداد برموز خاصة، التي نستعملها في زماننا الحالي، وقد دخلت هذه الرموز من الهند في بدايات الدولة العباسية، وبدء حركة الترجمة، من الهند، وقد شرحها عالم الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي في كتابه عن الحساب وتُرجم إلى اللاتينية بعد ذلك، لكن النسخة العربية مفقودة إلى الآن. والشيء الغريب الذي حدث بعد دخول الأرقام الهندية، أن قسمًا من العلماء العرب والمسلمين، بخاصة من معاصري الخوارزمي وما بعده، لم يستعملوا هذه الأرقام، وإن استعملوها ففي نطاق محدود جدًا، مع أن الخوارزمي قد نصح باستخدامها، كما يذكر ديفيد براغميني في كتابه «الرياضيات» فيقول: "وكان أكبر الدعاة الأوليين إلى هذه الطريقة الرياضي العربي «الخوارزمي» الذي عاش في بغداد وكتب سنة ٨٢٥ م كتابًا في الأرقام الهندية نصح فيه التجار والرياضيين في كل مكان بتبني هذه الطريقة الجديدة الآتية من المشرق. إلا أنهم تلكؤا في الإصغاء إلى نصيحته الحكيمة"[٨٤]. إن

نزعة التوجه نحو الإغريق وإهمال الرياضيات الهندية، لاحظها مؤرخ الرياضيات ديرك ستروك في كتابه «موجز تاريخ الرياضيات» بقوله: "كتب الكرخي (١٠٢٩م تقريبًا) جبرًا مفصلاً، مقتديًا بديوفانتس، ولديه موضوعات مشوقة عن الجذور الصماء... كما أشار إلى نزعة محددة نحو الإغريق. وكان إهماله للرياضيات الهندية حدث بصورة منتظمة"[٨٥]. ومن العلماء الذين لم يستعملوا الأرقام الهندية نذكر منهم على سبيل المثال: ثابت بن قرة (ت: ٢٨٨هـ/٩٠١م) في كتابه "الأعداد المتحابة"، وأبو الوفاء البوزجاني (ت: ٣٨٨هـ/٩٩٨م) في كتابه "في ما يحتاج اليه الكتّاب والعمال وغيرهم من علم الحساب" والكرجي (ت: ٤١٠هـ/١٠٢٠م) في كتبه كـ "الكافي في الحساب"، وأبو الريحان البيروني (ت: ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، مثلًا في كتابه «القانون المسعودي»، وعمر الخيام (ت: ٥٢٦هـ/١١٣١م) في "رسائله"، والسموأل المغربي (ت: ٥٧٠هـ/١١٧٥م) في كتابه "الباهر في الجبر"، ونصير الدين الطوسي (ت: ٦٧٢هـ/١٢٧٤م) في كتابه "جوامع الحساب بالتخت والتراب"، ومؤيد الدين العرضي (ت: ٦٦٤هـ/١٢٦٦م)، في كتابه "الهيئة"، وابن الهيثم (ت: ٤٣٢هـ/١٠٤١م) في كتابه "سمت القبلة"، حيث يستخدم الألفاظ العددية. لكن يبقى التساؤل، عن سبب اجتناب بعض العلماء العرب والمسلمين، الطريقة الهندية التي تتضمن الرموز في الأرقام وغيرها. هناك تفسيرات مختلفة، منها ما يقوله أبو بكر الصولي (ت: ٣٣٦هـ/٩٤٧م): "وقالوا (يقصد الكتّاب في الدولة العباسية): الحساب الهندي أخرج لكثير العدد إلا أن الكتّاب اجتنبوه لأن له آلةً، ورأوا أن ما قلت آلته وانفرد الإنسان فيه بآلة من جسمه كان أذهب في السر، وأليق بشأن الرياسة، وهو ما اقتصروا عليه من العقد بالبنان وإخراج رؤوس الجمل في أواخر السطور، وحط التفصيلات عنها واحدًا دون آخر وفرعًا دون أصل»[٨٦]. وهنا يفضّل الصولي حساب عقود الأصابع. وهناك سبب آخر يذكره مؤرخ الرياضيات كاجوري في كتابه «تاريخ مبادئ الرياضيات»، فيقول: «من الملاحظ، لقد ابتعد العرب في الشرق، بمرور الأيام، أكثر فأكثر عن التعاليم الهندية في الحساب والجبر، وتأثروا أكثر بعلوم الإغريق. وتحولهم هذا يوجب الأسف، لما للهند من أفكار جديدة. وبرفض هذه الأفكار، سدّ العرب في وجوههم السبيل للتقدم. وهكذا نجد الكرخي[٨٧] في بغداد، الذي عاش في بداية القرن الحادي عشر (للميلاد)، قد ألّف كتابًا في الحساب، خاليًا من الأرقام الهندية، وجميع الأعداد في مؤلفه مكتوبة تمامًا بصورة كلمات. ومن جهة أخرى فقد اتبع كليًا في مؤلفه الأساليب الإغريقية تقريبًا. وهناك كتابٌ آخر مميز ومتمكن هو أبو الوفاء، في النصف الثاني من القرن العاشر (للميلاد)، ألف كتابًا في الحساب ليس فيه أي رقم من الأرقام الهندية. لكن السؤال هو؛ لماذا تجاهل هؤلاء المؤلفين الكبار الأرقام الهندية؟ إنه بالتأكيد أمر يستوجب الحيرة. يعتقد كانتور[٨٨] أن سببه قيام حركتين متنافستين في ذلك العصر، إحداها اتبعت الرياضيات الإغريقية بصورة قطعية تقريبًا، والأخرى سارت على الطريقة الهندية»[٨٩]. والشيء الغريب أن كثيراً من العلماء المتأخرين لا يستعملون الأرقام الهندية،

مثلاً أبو عبدالله محمد بن القاسم بن محمود بن تيمية الحنبلي (ت: ٦٢٢هـ/١٢٢٥م) في كتابه «المسعد لذوي الألباب في علم الحساب»، وكمال الدين الفارسي (ت: ٧١٨هـ/١٣١٩م)، في كتابه «أساس القواعد في أصول الفوائد»، وأبو الحسن تاج الدين علي بن عبدالله الأردبيلي التبريزي (ت: ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م) في كتابه «رسالة في الحساب»، وبدر الدين محمد بن محمد سبط الماردينى (ت: ٩١٢هـ/١٥٠٦م)، في كتابه «تحفة الأحباب في علم الحساب»، وأيضًا في كتابه «شرح متن اللمع في الحساب»، أما ابن الهائم (ت: ٨١٥هـ/١٤١٢م)، فلا يستعمل الأرقام الهندية، إنما الألفاظ العددية، في مؤلفاته مثل: كتاب «متن الوسيلة في علم الحساب»، وكتاب «الممتع في شرح المقنع»، وكتاب «اللمع في الحساب». وهنا لا بد من الإشارة أنه لا داعي لذكر حسنات نظام رموز الأعداد المكاني العشري والفرق بينه وبين نظام الحروف العددية، أو الألفاظ العددية؛ لأنها أصبحت معروفة في زمننا الحالي، غير أن بعض علماء الحضارة العربية الإسلامية لم يدركوا حسنات وفوائد الترقيم المكاني بسرعة، وهكذا اجتنبوه لفترة طويلة، مما نعتقد أنه أثر على وتيرة تطور الرياضيات.

رابعًا، استمرارية استعمال حساب الجمّل حتى بعد ظهور رموز الأرقام العشرية

إن حساب الجمّل يعني استعمال حروف اللغة العربية لتمثيل الأعداد، ويسمى أيضًا «الأحرف العددية»، وتعود جذوره إلى الفينيقيين، كما يقول تاتون: "اخترع الفينيقيون في الألف الأول الذي يسبق تأريخنا هذا (أي للميلاد) نمطًا جديدًا من الترقيم قيل عنه نمط الأحرف العددية. تبنى كل من العبرانيين والإغريق هذا النظام وكيفوه حسب أحرف لغاتهم"[٩٠]. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يُعد استعمال هذا الحساب عند الإغريق وبحروفهم نفسها هي الأقدم عند العرب؛ لأنها كانت تُستعمل زمن الدولة الأموية، بخاصة في بلاد الشام، كما تشرح ذلك "زغريد هونكة": ففي ولايته، كان الخليفة عبدالملك بن مروان،... قد حرّم استخدام اللغة اليونانية، ولكنه لم يستطع أن يلغي نظام الأرقام والأعداد اليونانية بل وتركها على ما كانت عليه؛ لأنه لم يجد آنذاك نظامًا أحسن منها ليستعين به"[٩١]. وعند البدء بترجمة المؤلفات الإغريقية في بدايات الدولة العباسية، دخلت طريقتهم لكتابة الأعداد بالحروف الأبجدية، لكن هذه المرة اخترع العرب ألفباء عددي[٩٢]، نابع من الحروف العربية وليس اليونانية، تقليدًا للطريقة الإغريقية. الغريب، أن من العلماء من يفضّل حساب الجمل على الأرقام الهندية، "كما يذكر نصير الدين الطوسي" (ت: ٦٧٢هـ/١٢٧٤م) في كتابه «جوامع الحساب بالتخت والتراب»، أن حساب الجمّل أخف من الحساب الهندي في الحسابات الفلكية، فيقول: "حساب الجمل مشهور، وهو على ترتيب حروف أبجد هوز... وتستعمل هذه الرقوم في التقاويم والزيجات. والحساب بها أخف من الحساب برقوم الهند"[٩٣]. وقد استعمل طريقة الأحرف العددية أو حساب الجمّل، بعد ظهور الأرقام الهندية عدد من العلماء العرب والمسلمين، المتقدمين نذكر منهم: أحمد بن عبدالله حبش الحاسب المروزي (ت: ٢٦٠هـ/٨٧٤م)، في زيجه الذي يُدعى "الزيج

الدمشقي"، وأبو عبدالله محمد بن سنان بن جابر الحراني المعروف بالبتاني (ت: ٣١٧هـ/٩٢٩م) في زيجه الذي يُدعى "الزيج الصابئ"، وأبو بكر الكرجي (ت: ٤١٠هـ/١٠٢٠م) في كتابه "الكافي في الحساب"، وأبو نصر منصور علي بن عراق (ت: ٤٢٧هـ/١٠٣٦م) في كتابه "رسالة جدول الدقائق"، وابن سينا (ت: ٤٢٧هـ/١٠٣٧م) في كتابه "الشفاء" (قسم علم الهيئة)، وأبو الريحان البيروني (ت: ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) في مؤلفاته مثل "القانون المسعودي" و"الآثار الباقية عن القرون الخالية"، و"مقالة في راشيكات الهند"، و"التفهيم لأوائل صناعة التنجيم"، وعمر الخيام (ت: ٥٢٦هـ/١١٣١م) في "رسائله"، والسموأل المغربي (ت: ٥٧٠هـ/١١٧٥م) في كتابه «الباهر في الجبر». كما أن الخوارزمي الكاتب (ت: ٣٨٧هـ/٩٩٧م) يشرحها في كتابه «مفاتيح العلوم».

ولابد من الإشارة إلى أن أبو الوفاء البوزجاني (ت: ٣٨٨هـ/٩٩٨م) لم يستعمل حساب الجمل في كتابه «في ما يحتاج إليه الكتاب والعمال وغيرهم من علم الحساب»، وكذلك الكرجي (ت: ٤١٠هـ/١٠٢٠م) لم يستعمل حساب الجمل، وهذا يخالف ما جاء في موسوعة تاريخ العلوم العربية: "ويعود العمل الأقدم الذي نعرفه حول نظام الجمل لأبي الوفاء البوزجاني (القرن العاشر). وبعده بقليل نجده عند الكرجي في الكافي في الحساب»[٩٤].وبعد مراجعتنا النسخة الإنكليزية التي تُرجمت منها هذه الموسوعة تبيّن لنا أنه قد وقع خطأ في ترجمة النص الأصلي. ومن المعروف أن طريقة الأحرف العددية صعبة ومعقدة بخاصة عند التعامل مع الأعداد الكبيرة والعمليات الحسابية الأساسية، لهذا كانت أحد العوامل الداخلية التي حالت دون تقدم الرياضيات ومرونة استعماله، كما يشرح صعوبة هذه الطريقة "جون ماكليش" في كتابه "العدد": "لم تتمكن الأعداد المكتوبة بالحروف الأبجدية غير العملية، رغم الاستعانة بالورق والقلم والحبر من التلاؤم بيسر مع الحسابات السهلة، واستبعدت من هذه الحسابات حساب المجاميع المعقدة"[٩٥]. ولابد من الإشارة أن طريقة الأحرف العددية أو حساب الجمّل، كانت منتشرة ومعروفة، حتى خارج الوسط العلمي، على سبيل المثال نجدها عند المتنبي (ت: ٣٥٤هـ/٩٦٥م) بقوله:

ذي ذنبٍ أجرد غير أعزل

يخط في الأرض حساب الجمل[٩٦]

ومن المؤسف أن استعمال "حساب الجمّل" أو الأحرف العددية قد امتد إلى فترة طويلة، الأمر الذي نعتقد أنه ساهم في تأخير أو إبطاء تطور الرياضيات ومن ثم انحساره. إن هذا الامتداد يشير أيضًا إلى التأخر في استعمال الأرقام الهندية. ومن العلماء الذين استعملوا الأحرف العددية أو شرحوها في فترة متأخرة، مع أن بعضهم استعملها بجانب الأرقام الهندية هم: أبو علي الحسن بن علي المراكشي (ت: ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، له كتاب «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات»، يستعمل فيه الأحرف العددية. وكمال الدين الفارسي (ت: ٧١٨هـ/١٣١٩م) في كتابه "أساس القواعد في أصول الفوائد" يستعمل الأحرف العددية، ولا يستعمل الأرقام الهندية. ونظام

الدين الحسن بن محمد الحسين النيسابوري، المعروف بنظام الأعرج (ت: ٧٣٠هـ/١٣٣٠م)، في كتابه "الشمسية في الحساب" يستعمل الأحرف العددية. وغياث الدين الكاشي (ت ٨٣٩هـ/١٤٣٦م)، في كتابه «مفتاح الحساب» استعمل الأحرف العددية بجانب الأرقام الهندية، في أكثر من فقرة، وبدر الدين سبط المارديني (ت: ٩١٢هـ/١٥٠٦م) في كتابه "رقائق الحقائق في حساب الدرج والدقايق» يستعمل الأحرف العددية، ولا يستعمل الأرقام الهندية، وابن غازي المكناسي الفاسي (ت: ٩١٩هـ/١٥١٣م)، في كتابه "بغية الطلاب في شرح منية الحساب"، ومحمد باقر اليزدي (ت: ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م) في كتابه "عيون الحساب".

وسوف نذكر أبياتًا من منظومة «منية الحساب» لابن غازي، وهو من المتأخرين، يستعمل فيها حساب الجمل في شعره، فيقول:

للزوج والفرد صحيحه انقسم

والزوج عن ثلاثة قد ابتسم

فزوج الزوج مثل (لب) و(مد)

وزوج فرد مثل (مب) و(يد)

وزوج هذين كـ(شد) و(صد)

وفرد أول وفرد المفرد[97]

إن (لب)، و(مد)، و(مب)، و(يد)، و(شد)، و(صد)، هي أعداد بحساب الجمل. ويؤكد ابن غازي استعماله حساب الجمل بقوله:

فاكتب ورتب تحت ما قد سطرا

أجب وده متى ما كررا

واضرب بكل منزل فيما يلي

من الحروف بحساب الجمل

واطرح بها وبق فوق ما فضل

واجمعه آحادًا وبالطرح احتفل[98]

لهذا نجد استعمال حساب الجمل استمر لقرون متأخرة، مع أن هناك العديد من مؤلفات العرب والمسلمين تفسر وتوضح استعمال الحساب بالأرقام الهندية، نذكر منها: «الفصول في الحساب الهندي» للأقليدسي (ت: بعد ٣٤١هـ/٩٥٣م)، و"أصول حساب الهند" لكوشيار بن لبان الجيلي (ت: ٤٢٠ هـ/١٠٢٩م)، و"المقنع في الحساب الهندي" للنسوي (ظهر حوالي ١٠٣٠م)، و"المقالات في علم الحساب"، لابن البناء المراكشي (ت: ٧٢١هـ/ ١٣٢١م). وقد انتهى استعمال الأحرف العددية أو حساب الجمل، كما يقول بطرس البستاني الذي لم يحدد تاريخ هذا الانتهاء: "إلا أنها قد هُجرت استغناءً عنها بالأرقام الهندية إلا في التاريخ الشعري"[99]. والتاريخ بالشعر هو: لون بديعي ابتكره الشعراء... وذلك بإيراد بيت أو جملة منه يكون حاصل جمع قيمة حروفه بحساب الجمّل هو تاريخ المناسبة التي يعنونها، وبقي هذا اللون معروفًا إلى مطلع القرن العشرين[100]. وقال ابن شبيب في المستنجد:

أصبحت لب بني العباس كلهم

إن عددت بحروف الجمل الخلفا

المستنجد هو الثاني والثلاثون من الخلفاء و «لب» جُمّل حروفها اثنان وثلاثون[101]. لأن: ل=٣٠، و ب=٢، فالمجموع هو ٣٢.

خامسًا، التوسع كثيرًا في التعامل مع الكسور الحسابية

لم يقتصر التعامل مع الكسور الحسابية، على الإجراءات المعروفة كالجمع والطرح والضرب والقسمة، إنما اعتمد العلماء العرب والمسلمين مسالك جديدة نذكر منها: تقسيم الكسور إلى أنواع جديدة وإدخال مفهوم «الأصم» من ضمنها؛ وتحويل الكسر المفرد إلى عدة كسور؛ وتحويل الكسور الاعتيادية إلى كسور ستينية؛ كل هذا ولّد صعوبات في تعلم مبادئ الحساب أو الجبر.

١. تصنيف الكسور إلى أنواع جديدة وإدخال مفهوم الأصم فيها

يُعد أبو الوفاء البوزجاني (ت: ٣٨٨هـ/٩٩٨م) من أوائل علماء الحضارة العربية الإسلامية الذين بحثوا بإسهاب في موضوع الكسور في كتابه «ما يحتاج إليه الكتاب والعمال وغيرهم من علم الحساب»، فقد قسّم الكسور تقسيمًا جديدًا فيقول: "والكسور عند حساب المعاملات وأصحاب الدواوين تنقسم إلى أربعة أنواع هي: الرؤوس ـ المركب ـ المضاف ـ الأصم. فالرؤوس هو كل كسر يمكن أن يلفظ به مفردًا من غير إضافتها إلى كسر آخر، مثل النصف والخمس والعشر. والمركب هو كل كسر مركب من الرؤوس، مثل ثلاثة أرباع، أربعة أخماس، خمسة أسباع. فالمضاف هو كل كسر تكون حكايته من إضافة إلى آخر، مثل نصف سدس، ثلث سبع. والأصم هو الكسر الذي لا يمكن تحصيله بهذه الأنواع الثلاثة من الكسور. وهو مثل جزأين من أحد عشر، ومثل ثلاثة أجزاء من ثلاثة عشر، ومثل أربعة أجزاء من سبعة عشر»[١٠٢]. إذن الكسر الأصم، هو الكسر الذي يكون مخرجه أي مقامه عددًا أوليًا فوق العشرة. وهذا النوع هو مفهوم جديد؛ لأن الأصم كان بالأساس يمثل العدد الذي لا جذر له. لذلك يحدث تداخلاً ويسبب أحيانًا التباساً وإبهاماً. فضلاً عن ذلك أن تعريف الكسر الأصم لا يشمل الكسور المفردة الأساسية أو الرؤوس، حسب تعبير البوزجاني، وهي: النصف والثلث إلى العشر. وهنا أيضًا يحدث الالتباس والصعوبة.

٢. تحويل الكسر المفرد إلى مجموعة كسور

إن الكسور في اللغة العربية، التي لها ألفاظ مستمدة من أسماء الأعداد (باستثناء النصف)، هي تسعة: النصف، الثلث، الربع، إلى العشر. وتسمى الكسور الأساسية، أو الرؤوس. ولا يفضل علماء الرياضيات العرب والمسلمون استعمال غيرها، بمعنى إذا كان هناك كسور لا تتضمنها هذه الألفاظ التسعة فينبغي التعبير عنها في حدود هذه الكسور التسعة. لهذا ليس لديهم مانع من تحويل أي كسر مفرد، خارج هذه الكسور التسعة، إلى كسرين أو أكثر منها، إذا أمكن ذلك، وإذا لم يتمكنوا، فالكسر يسمى "أصم"، وفي هذه الحالة يجري تقريبه بالكسور الأساسية أيضًا (وليس بالكسور العشرية كما في زماننا الحالي). إن عملية تحويل الكسر المفرد إلى مجموعة كسور، كانت معروفة عند بعض العلماء في القرون المتقدمة، هي في الحقيقة، عكس ما نجريه في عصرنا الحالي، أي تحويل كسرين أو أكثر إلى كسر واحد، ويبررون هذا الإجراء بقولهم، حسب ما ينقله أحمد سعيدان:

"إن العربية تحوي تسعة أسماء للكسور هي النصف والثلث و... إلى العشر، فينبغي إذن أن يعبر عن كل كسر عدا هذه بدلالتها، إما بالإضافة كما في نصف سدس، أو بالعطف كما في ثلث وربع، أو بالاستثناء كما في نصف إلا سبع"[١٠٣]. وقد أجرى العلماء عملية تحويل الكسر المفرد إلى عدة كسور في موضعين؛ أحدهما، تحويل الأنواع الأخرى من الكسور، تسمى «منطقة» التي لم تكن صماء إلى كسور مفردة أساسية، أي إلى الرؤوس. أما الموضع الآخر؛ فهو تحويل الكسور الصماء إلى كسور غير صماء من أجل تقريبها وهنا الأصم لا يعني العدد الذي لا جذر له. **الموضع الأول، يتصل بالرؤوس التي ذكرها البوزجاني**، وعددها تسعة هي: نصف، ثلث، ربع، خمس، سدس، سبع، ثمن، تسع، عُشر. وتُعد هذه الكسور معلومة، مُنطقة (غير صم)، وكل كسر خارج هذه الرؤوس، فينبغي التعبير عنه إذا أمكن، بدلالة هذه الكسور (أي الرؤوس). ولهذا يقول البوزجاني: "فإذا أردنا أن ننسب عددًا من عدد فينبغي أن نجعله رأسًا أو رأسين فإنه أحسن من المركب المضاف، وذلك مثل ستة وثلاثين من ستين، فإنا نسبناه بنصف وعشر، وهما رأسان، وكان أحسن من نسبتنا إياه بثلاثة أخماس، وهو المركب وإن كانت الستة والثلاثون من الستين ثلاثة أخماسها"[١٠٤].كأن نقول نصف السبع للتعبير عن الكسر، حينئذ يسمى مُنطقًا. على سبيل المثال؛ يقول البوزجاني أيضًا: "فإذا أردنا أن ننسب عددًا من عدد... مثل ستة وثلاثين من ستين، فإنا نسبناه بنصف وعشر،... وكان أحسن من نسبتنا إياه بثلاثة أخماس"[١٠٥].

ولنأخذ مثالاً من كتاب «الشمسية في الحساب» لنظام الأعرج، لنرى كيف يتم جمع الكسور التي تصبح كسرًا واحدًا، ثم يُحوّل هذا الكسر إلى مجموعة من كسور الرؤوس، وهنا تكمن الصعوبة: «أردنا أن نجمع ثلثين وثلاثة أرباع وأربعة أخماس. المخرج المشترك ستون. ثلثاه أربعون، وثلاثة أرباعه خمسة وأربعون، وأربعة أخماسه ثمانية وأربعون. مجموعها مائة وثلاثة وثلاثون. قسمناه على ستين، خرج اثنان وبقي ثلاثة عشر. نسبناه من الستين بالسدس ونصف العشر، فمجموع الكسور المفروضة اثنان وسدس ونصف العشر»[١٠٦]. **الموضع الثاني، هو تحويل الكسور الصماء إلى كسور غير صماء، مركبة من كسرين أو أكثر.** وفي هذا الإطار يقول البوزجاني: "فإن كان عدد لم يمكنا أن نجعله رأسًا فينبغي أن ننسبه بكسر مركب أو مضاف، فإنه أحسن من الأصم، والكتاب وأصحاب الدواوين يستقبحون كسور الأصم جدًا، حتى إذا أرادوا أن ينسبوا شيئًا من الكسور الصم حطوها رؤوسًا أو مركبًا أو مضافًا، ونسبوها بالتقريب، وكان التقريب أحب إليهم من الصحيح وهو أصم. وذلك مثل ثلاثة أجزاء من أحد عشر فإنه يكون بالتقريب ربعًا وخمس تسع، وأيضًا خمسًا وثلثي تسع، وهذا عندهم أحسن من قولهم ثلاثة أجزاء من أحد عشر"[١٠٧]. ويعلق مصطفى موالدي على العملية الأخيرة فيقول: "نجد الكتّاب يستبدلون الكسور الصم بكسور من أشكال أخرى أكثر تعقيدًا، ولا تساوي القيمة الحقيقية للكسر الأصم"[١٠٨].

٢. استعمال الكسور الستينية في العمليات الحسابية

يلجأ بعض العلماء عندما تكون هناك حاجة، مثلاً لجمع المقادير الكسرية وطرحها، إلى تحويل هذه المقادير إلى كسور ستينية؛ لتسهيل توحيد مقامات كسورها حيث من الممكن أن يصبح المقام المشترك العدد ستين. غير أن هذه العملية ليست يسيرة؛ لأنها تحتاج إلى عمليات أخرى صعبة إلى حد ما. إن الكسور الستينية، هي جزء من النظام العددي الستيني لتمثيل الأعداد الحقيقية، إذ يكون الأساس فيه العدد ستين، عوضًا عن العدد عشرة الذي نستعمله حاليًا. ولأن العدد ستين، له قواسم كثيرة، فإن إجراء العمليات الحسابية تكون أكثر سهولة في النظام الستيني. ومن المعروف أن البابليين القدماء استخدموا هذا النظام من أجل التخلص من الكسور، وكتابتها كأجزاء من الستين. فالثلث مثلاً يكتب بالعدد ٢٠، والربع بالعدد ١٥، وهكذا. ولا تزال آثار هذا النظام باقية إلى الآن في تقسيمنا الساعة إلى دقائق وثواني، وأيضًا في قياس الزوايا. وكان يستخدم هذا النظام الفلكيين القدماء والعرب والمسلمين على حد سواء. ويُسمى هذا النظام في الكتب العربية، كما يقول أحمد سعيدان: "حساب الستين، طريق المنجمين، حساب الزيج، حساب الدرج والدقائق"[١٠٩]. ونحن هنا لا نريد البحث في طريقة كتابة الأعداد بالنظام الستيني، ولا كيفية إجراء العمليات الحسابية، إنما نريد أن نبيّن أن بعض العلماء العرب والمسلمين قد بحثوا كثيرًا في هذا النظام، بخاصة إجراء العمليات الحسابية على الكسور بعد تحويلها إلى النظام الستيني، كما يقول دونالد هيل: "والفلكيون منهم حافظوا على السلّم الستيني للأعداد الصحيحة والكسور ولكن أغلب الناس تخلوا عنه في الأعداد الصحيحة وكتبوها على السلّم العشري واستبقوه في الكسور. وهكذا صنع العرب أو هم هكذا وجدوه"[١١٠]. وهي العملية التي انتهت فيما بعد وحل محلها استعمال النظام العشري. وقد أخذ العرب والمسلمون، النظام الستيني من الإغريق، وهؤلاء أخذوه عن البابليين. ولهذا فإن الذي أعطى قيمة أكثر للنظام الستيني، ومنع استخدام النظام العشري في الكسور هو بطليموس في كتابه «المجسطي»، كما يقول جورج سارتون: "لقد رفع «المجسطي» مرتبة الكسور الستينية، وبذلك منع الانتقال الطبيعي من الأعداد العشرية إلى الكسور العشرية"[١١١]. كما يبيّن رنيه تاتون استخداماته في أوربا ومثالبه فيقول: "نجد هذا النوع من الاستخدام... في أوربا حتى القرن السابع عشر (الميلادي)، وهو يشكل ضعفًا واضحًا في التقنية الإغريقية للحساب"[١١٢]. وينتقد أحمد سعيدان طريقة استخدام النظام الستيني للتخلص من الكسور الصماء بقوله: "أما الكسور التي تحوي أعدادًا غير الأعداد ٢، ٣، ٥، ٧ مثل : ١١/١ و ٣١/٣ فكانت تعتبر «صماء»، يتوجب تحويلها بواسطة التقريب إلى الكسور المعروفة «المُنطقة». وقد كرس أبو الوفاء في حسابه العديد من الصفحات من أجل تقديم أفضل الطرق لتحويل هذه «الأجزاء» إلى كسور. والطريقة الأساس لذلك كانت: استخدام السلم الستيني...، هذه الطريقة تسهل الحسابات العملية، ولكنها تمثيل ساذج غير رياضي وغير قابل للتعميم"[١١٣]. ويمكن الرجوع مثلاً إلى

كتاب «الكفاية» للإربلي والاطلاع على مدى الإسهاب والتوسع في موضوع النسبة والكسور، حيث نجد صفحات عدة مخصصة إلى نسبة الأعداد من الستين، ونسبة الكسور إلى الستين، ونسبة الكسور مع الصحاح من الستين، وغيرها من موضوعات النسبة[١١٤].

سادسًا، الافتقار إلى نظام فعال للتعبير الرمزي

إن أحد الأسباب الأخرى الرئيسية لتعطيل تطور الرياضيات، بخاصة الحساب والجبر، في زمن الحضارة العربية الإسلامية، هو غياب إشارات رمزية للتعبير عن العمليات الأساسية في الحساب، كالجمع والطرح والضرب والقسمة والتجذير والأسس والمساواة، وكذلك عدم وجود أسلوب علاماتي للمفاهيم الجبرية وتمثيل الكميات وتركيب المعادلات. وعن انعدام تقنية الترميز يقول رنيه تاتون: "هي في غاية الأهمية بحيث إنها تمنع كل عملية تجريد وكل تعميم ولا تتيح لهذا العلم مجال التصعيد"[١١٥]. ويجعل فريدريك بل، الترميز أحد أهم عاملين في تعطل تطور الرياضيات فيقول: "هناك عاملان (تاريخيان) تسببا في تعطيل تطور الحساب وغيره من فروع الرياضيات وهما: عدم وجود نظام فعال للترميز، وصعوبة وربما انعدام الاتصال بين المكتشفين لنظريات جديدة"[١١٦]. أضف إلى ذلك طبيعة الرموز التي كانت تستعمل لتمثيل الأرقام، وقد ذكرنا ذلك سابقًا. وفي هذا المجال ينتقد توبياز دانزج العرب بشدة على هذا الغياب، وذلك في كتابه «العدد لغة العلم»، بعد أن يثني على الحضارة الإسلامية، بقوله: "ومع هذا كله، فإن العرب لم يقدموا ذرة واحدة للتدوين بالرموز. ولعل هذا من أغرب الظواهر في تاريخ الرياضيات. فالعرب الذين تبنوا جبر الهنود، لم يحتفظوا بنظامهم المختصر، بل على النقيض من ذلك عادوا إلى الجبر الكلامي الإغريقي"[١١٧]. وهذا الرأي غير دقيق جدًا، إذ قدّم العرب بعض الرموز لكن في العصور المتأخرة، كما هو الحال عند عالم الرياضيات أبو الحسن علي بن محمد القلصادي (ت: ٨٩١هـ/١٤٨٦م) في كتابه "كشف الأسرار عن علم الغبار". ويؤكد ذلك محمد الهادي عبد الرحيم في قراءته لكتاب «التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد اللائحة» للقلصادي بقوله: "إن علماء الرياضيات المغاربة الذين عُثر في أعمالهم على رموز جبر هم ابن الياسمين وابن قنفذ وابن المجدي والحصّار (القرن ١٢م) والقلصادي"[١١٨]. ومع ذلك يمكن ملاحظة غياب التدوين الرمزي منذ كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي (ت: بعد ٢٣٢هـ/٨٥٠م)، وهو يستخدم الألفاظ للدلالة على "الجذر"، و"الشيء"، و"المال" ونحوه. وهكذا فعل الذين كتبوا عن الجبر بعد الخوارزمي. والشيء ذاته ينطبق على مؤلفات الحساب، الذي نلاحظه مثلًا في كتاب «في ما يحتاج إليه الكتّاب والعمال وغيرهم من علم الحساب» لأبي الوفاء البوزجاني (ت: ٣٨٨هـ/٩٩٨م). إن استعمال الألفاظ عوضًا عن الرموز، يؤدي إلى زيادة في صعوبة فهم واستيعاب الرياضيات، ويتضح ذلك من وجود عددٍ كبيرٍ من الشروح والاختصارات التي ذكرناها سابقًا. ويقول مهدي عبدالجواد عن إحياء الرموز المغربية في القرن الثامن عشر الميلادي: "لم يحصل أي جديد في

استعمال الرموز المغربية بعد عصر ابن غازي المكناسي في الكتب التي عرفت في المغرب وفي مصر، وواصل الشيوخ تدريس كتب ابن البناء والقلصادي وابن غازي وشرحها وأبقوا الرموز على حالها الأصلي بل أصبحت صور الكسور والجذور والعبارات الجبرية رديئة، كثير ما يداخلها خلل وخلط؛ لعدم فهم الناسخ لها، وقلة استعمالها الفعلي في حل المسائل"[١١٩]. ويمكن ملاحظة المؤلفات العربية المتأخرة أنها لا تستخدم الرموز الحسابية والجبرية، عدا استعمال الأرقام الهندية في نطاق محدود، على سبيل المثال: كتاب "المسعد لذوي الألباب في علم الحساب" لأبي عبدالله محمد بن القاسم بن محمود بن تيمية الحنبلي (ت: ٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، وكتاب «النسب المتشاكلة في علم الجبر والمقابلة» لتقي الدين معروف (ت: ٩٩٢هـ/١٥٨٥م)، وكتاب «كشف النقاب عن وجه خلاصة الحساب»، لفضل الله بن علي البقاعي (كان حيًا قبل ١١٢٦هـ/١٧١٤م)، و«حاشية العدوي على خلاصة الحساب» لمحمد حسنين العدوي المالكي (المطبوع ١٣١١هـ). لا بد من الإشارة إلى أن اتجاه بعض العلماء إلى استعمال حروف الأبجدية العربية ربما كان في البداية نوعًا من الاختزال لاختصار الوقت، هذا من جانب. ومن جانب آخر جعل هذه الرموز تختلط مع الألفاظ العربية، مثلاً، حرف «ج» قد يمثل عملية الجذر، وقد يمثل عملية الجمع. وهذا يؤكد ما ذكره مهدي عبدالجواد، أعلاه. لهذا ينبغي أن تكون رموز العمليات الحسابية أو الجبرية، مختلفة عن حروف الأبجدية كما هو الحاصل في الزمن الحديث.

سابعًا، المبالغة في بحث الجوانب النظرية المجردة للأعداد

تتميز الرياضيات في الحضارة العربية الإسلامية، بالجمع بين الفكر النظري، وبين التطبيقات العملية، وخير دليل على ذلك ما يحتويه كتاب «الجبر والمقابلة» لمحمد بن موسى الخوارزمي (ت: بعد ٢٣٢هـ/٨٥٠م). فالقسم الأول من هذا الكتاب، يتضمن طرائق نظرية لحل المعادلات، وفي الأقسام الأخرى تطبيقات عملية يذكرها الخوارزمي في مقدمه كتابه، فيقول: "ألفت من كتاب الجبر والمقابلة كتابًا مختصرًا حاصرًا للطيف الحساب وجليله لما يلزم الناس من الحاجة إليه في مواريثهم ووصاياهم وفي مقاسمتهم وأحكامهم وتجاراتهم، وفي جميع ما يتعاملون به من مساحة الأرضين وكري الأنهار والهندسة وغير ذلك من وجوهه وفنونه"[١٢٠]. والشيء ذاته نجده عند عبد القاهر البغدادي (ت: ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) في كتابه «التكملة في الحساب»[١٢١]. غير أن هذا التوازن بين النظري والعملي، لم يكن سائدًا، في جميع مراحل الحضارة العربية الإسلامية، إذ حصل تركيز أو إسهاب أكثر لصالح جهة على حساب الأخرى، كما يقول ابن منعم العبدري (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في كتابه "فقه الحساب": "وذلك إنني لما تصفحت ما قد صُنف في ذلك (يقصد الحساب) وجدتها منها عملي دون علمي، ومنها علمي دون عملي"[١٢٢]. لهذا كان، على سبيل المثال، القسم النظري، بخاصة المتعلق بالأعداد وخصائصها، متفوقًا على العملي عندما ورث العرب والمسلمين من علوم الإغريق، بخاصة من كتب فيثاغورس

ونيقوماخس وإقليدس. ويبيّن ديفيد برغاميني في كتابه «الرياضيات» مدى تعلّق الإغريق بالأعداد فيقول: "كان سلطان الأعداد الصحيحة على الفيثاغوريين (المقصود أتباع فيثاغورس) سلطانًا فريدًا سحر ألبابهم وأقنعهم أن الكون كله مبني من هذه الأعداد"[١٢٣]. وكذلك ترى زيغريد هونكه: "إلا أن تعاطي اليونانيين النظريين بالأرقام، كان نوعًا من الزخرف الفكري"[١٢٤]. ستواجهنا في هذه الفقرة كلمة أجنبية، هي بالإنكليزية arithmetic، التي تترجم عادةً إلى «علم الحساب»، والصواب هو "علم العدد" أو "فن العدد". وهناك من لا يترجمها، إنما يكتبها بلفظها الأجنبي، فيقول: الأرثماطيقي. وجذور هذه الكلمة الإنكليزية تعود إلى اللغة الإغريقية[١٢٥]. ولهذا ينبغي التفريق بين «الحساب»، وهو اسم أصيل من اللغة العربية، وبين «علم العدد» (أو نظرية الأعداد)، وكذلك أهمية كل منهما، كما يبيّن ذلك دانزج في كتابه «العدد لغة العلم»، إذ يقول عن دور علم الأعداد الذي يطلق عليه نظرية الأعداد، فيقول: "يعتبر الحساب أساس جميع الفروع الرياضية سواء أكانت بحتة أو تطبيقية. وهو أكثر العلوم نفعًا، وربما لا يوجد فرع آخر في المعرفة الإنسانية أكثر انتشارًا بين الناس مثله. ومن جهة أخرى فإن نظرية الأعداد هي فرع الرياضيات الذي وجد أقل عدد ممكن من التطبيقات. ولم يقتصر الأمر على أنها لم تؤثر على التقدم الفني للعدد ولكنها حتى في مجال الرياضيات البحتة تشغل دائمًا مكانًا منعزلاً، وهي مرتبطة ارتباطًا طفيفًا بالتركيب العام للعلم"[١٢٦]. ومع ذلك هناك من العلماء العرب والمسلمين قد أسهب كثيرًا وتوسعوا وبحثوا في الأعداد لذاتها مجردة في الذهن، كالعلاقات فيما بين الأعداد، وتصنيفها من فردية وزوجية ومتحابة[١٢٧] وناقصة وتامة وأولية وغيرها، وكيفية توليد بعضها من بعض. وكذلك موضوع النسبة والتناسب. ومع أن ذلك قد أدى إلى التوصل إلى بعض العلاقات أو النظريات الهامة في هذه الموضوعات، إلا أن هذا الاستغراق الواسع في موضوع الأعداد فحسب أدى إلى ضعف في الابتكار والاكتشاف في موضوعات أخرى من الرياضيات. وقد يكون ذلك بسبب تأثرهم، بمعارف الإغريق، على سبيل المثال: من كتاب «المدخل إلى علم العدد» الذي وضعه نيقوماخوس الجارسيني من أتباع فيثاغورس، وترجمه ثابت بن قرة[١٢٨]. ومن العلماء الذين بحثوا أكثر في علم الأعداد نذكر، أخوان الصفا (جماعة من علماء القرن الرابع الهجري) الذي قسّموا الرياضيات إلى أربعة أنواع منها علم الأعداد، أولها الأرثماطيقي، والثاني الجومطريا (أي الهندسة)، والثالث الإسطرونومي (أي علم النجوم)، والرابع الموسيقا. ثم عرفوا الأرثماطيقي وهو معرفة خواص العدد وما يطابقها من معاني الموجودات التي ذكرها فيثاغورس ونيقوماخس[١٢٩]. وكذلك من العلماء الذين بحثوا في علم الأعداد، نذكر: يعقوب بن اسحاق الكندي (ت: ٢٥٢هـ/٨٦٦م) له رسالة في المدخل إلى الأرثماطيقي[١٣٠] وثابت بن قرة (ت: ٢٨٨هـ/٩٠١م) له مقالة الأعداد المتحابة[١٣١]، وأبو الوفاء البوزجاني (ت: ٣٨٨هـ/٩٩٨م) له كتاب المدخل إلى الأرثماطيقي[١٣٢]، وأبو بكر الكرجي (ت: ٤١٠هـ/١٠٢٠م) في كتابه "البديع في الحساب"

عندما خصص فقرة عن الأعداد المتحابة هي "باب ذكر طلب الأعداد المتحابة"[١٣٣]. وأيضًا ابن سينا (ت: ٤٢٧هـ/١٠٣٧م) في كتابه «الشفاء»: قسم الحساب (وهو في الحقيقة علم العدد)، ويبحث في خواص الأعداد ونحوها[١٣٤]. وابن منعم العبدري (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) في كتابه «فقه الحساب» ويبحث فيه عن خواص الأعداد، مثل العدد التام والزائد والناقص، والأعداد المتحابة[١٣٥]. وابن فلوس المارديني (ت: ٦٣٧هـ/١٢٣٩م) في كتابه "إعداد الإسرار في أسرار الأعداد"[١٣٦]، وأبو الحسن علي بن محمد القلصادي (ت: ٨٩١هـ/١٤٨٦م) له رسالة في صورة تشكيل الأعداد التامة والناقصة والزائدة والمتحابة[١٣٧]. ولعلي بن أحمد بن محمد الأنطاكي (ت: ٣٧٦هـ/٩٨٧م) شرح لكتاب نيقوماخوس الجهراسيني، المعروف بالإرثماطيقي، ويبحث في اشتراك الأعداد بعضها عند بعض في التركيب والتنقيص[١٣٨]. والماهاني (ت: ٢٦٦هـ/٨٨٠م) له "رسالة في المشكل من أمر النسبة"، ولابن معاذ الجياني (عاش في القرن الحادي عشر الميلادي) "مقالة في شرح النسبة"، ولزين الدين التنوخي (ت: ٦٩٥هـ/١٢٩٦م) كتاب "في علم الحساب"، فيه عن استخراج الأعداد المتحابة، ولكمال الدين الفارسي (ت: ٧١٨هـ/١٣١٩م) كتاب "تذكرة الأحباب في بيان التحاب"، ولأحمد الدمنهوري (ت ١١٩٢هـ/١٧٧٨م) "رسالة في إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد"، ولمحمد باقر اليزدي (ت: ١٠٤٧هـ/١٦٣٧م) كتاب "عيون الحساب" فيه فصل عن استخراج العددين المتحابين. وهناك مصطلحات وتصنيفات وموضوعات استعملها العرب والمسلمين، فيما يخص علم الأعداد، وقد ورثوا معظمها من الإغريق وأصبحت مهجورة في الرياضيات الحديثة، نذكر منها: زوج الزوج، زوج الفرد، زوج الزوج والفرد، الأعداد النارية، الأعداد الهوهوية، الأعداد الغيرية، كما وردت مثلاً في كتاب «إعداد الإسرار في أسرار الأعداد» لابن فلوس (ت: ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)[١٣٩].

اتجاهات غير علمية في استعمال خصائص الأعداد

من الاتجاهات التي اهتم بها بعض العلماء، التي نعتقد أنها أعاقت تطور الرياضيات، هي تلك التي تتعامل مع خصائص الأعداد بطريقة غير علمية، لهذا برز اتجاه فكري عند بعض هؤلاء العلماء مثل: أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي (ت: ٣٩٨هـ/١٠٠٧م)، في كتابه "غاية الحكيم في الأرصاد الفلكية والطلاسم الروحية والتنجيم"، و أحمد بن علي البوني (ت: ٦٢٢هـ/١٢٤٤م)، في كتابيه: "شمس المعارف الكبرى»، و»بحر الوقوف في علم الأوفاق والحروف»، يهتم أكثر في جوانب معينة من خصائص الأعداد، مثل: الأعداد المتحابة، وعلم الأوفاق (المربعات السحرية)، وحساب الجمّل، لأغراض غير علمية، التي كان لها آثار ضارة أو غير مفيدة، لا تساهم في تطور الرياضيات، كما يقول جون ماكليش عن سبب تخلف الرياضيات في الغرب اللاتيني في العصور الوسطى باتباعهم الأفكار اليونانية في تقديس الأعداد، فيقول: «ففيما كان العرب يتبوؤون مركز الصدارة في النهضة العلمية بين القرنين السابع والخامس عشر (الميلادي)، كانت أوربا

متخلفة جدًا في علم الرياضيات، والسبب في ذلك هو التراث المشؤوم الذي خلفه اليونانيون. فبتعاملهم مع الأعداد وكأنها كائنات شبه مقدسة تكمن في أساس عملية الخلق نفسها، فإنهم أبعدوها عن المعاملات والتحليلات اليومية، وأحاطوها بهالة من الدين والفلسفة»[١٤٠]. وقد استغل بعض علماء الحساب والفلك، الخصائص الجميلة والباهرة للأعداد المتحابة، مثلًا، في أعمال وتطبيقات لها آثار اجتماعية منافية للعلم، كما ينقل ابن خلدون في مقدمته عن أصحاب الطلسمات[١٤١] بقوله: "إن لتلك الأعداد (يقصد الأعداد المتحابة) أثرًا في الألفة بين المتحابين واجتماعهما"[١٤٢]. وكما يقول بطرس البستاني أيضاً: "ويزعمون أن لذلك (أي الأعداد المتحابة) خواص عجيبة في المحبة والألفة، فلو جعل أحدهما في شيء من المأكول والآخر في شيء مثله وأكل المحب ما فيه العدد الأكثر وأطعم مَن يطلب محبته ما فيه العدد الأقل فإن ذاك الشخص يصير بحبه أكثر مما هو يحبه"[١٤٣]. كما اهتم هؤلاء العلماء، باستعمالات أخرى للأعداد، مثل: حساب الجمّل، وعلم الأوفاق[١٤٤]، التي يمكن استغلالها أيضًا لأغراض غير علمية مثل التنجيم والسحر والشعوذة والطلاسم. كما يقول دونالد هيل: «كان علم العدد (نظرية الأعداد) أحد فروع علم الحساب التي اهتم بها المسلمون، وارتبط هذا المجال ارتباطًا وثيقًا في مختلف علوم السحر والتنجيم، بدءًا من الخيمياء إلى الشعوذة»[١٤٥]. ومن الذين ذكروا هذه الاتجاهات غير العلمية، أخوان الصفا في "رسائلهم": "إن من خاصية هذا الشكل المتسع (أي الشكل المربع الذي يتألف من تسعة مربعات صغيرة) ومنفعته تسهيل الولادة إذا كتب على خزفين لم يصبهما الماء وعلقتهما على المرأة التي ضربها الطلق وإن اتفق أن يكون القمر في التاسع ومتصلاً برب التاسع سهل الولادة أو برب بيته من التاسع وما شاكل ذلك من المتسعات"[١٤٦]. ومن العلماء المتأخرين الذين ذكروا الاتجاهات غير العلمية، أحمد بن عبدالمنعم الدمهوري (ت: ١١٩٢هـ/١٧٧٨م)، في كتابه: "إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد"[١٤٧]. ويقلل ابن البناء المراكشي في كتابه «رفع الحجاب عن أعمال الحساب»، من فوائد أعداد الوفق والأعداد المتحابة، فيقول: «وتركت من هذا الباب أعداد الوفق والأعداد المتحابة، فإنه لا جدوى لها في العلوم، مع طولها واختلاف عملها»[١٤٨]. ومن الذين انتقدوا هذا الاتجاه عن استعمال حساب الجمل في التنجيم، الشاعر أبو العلاء المعري (ت: ٤٤٩هـ/١٠٥٧م)، بقوله:

حيلٍ تممنّ على الأنام
فادمع العقلاء همّل
كم غرّ صاحبة الجمال
منجم بحساب جمّل[١٤٩]

ثامنًا، غياب أسماء تختصر تكرار بعض المصطلحات

إن المقصود بتكرار المصطلحات في الرياضيات هو إعادة مفردة معينة نفسها أكثر من مرة واحدة للتعبير عن جملة مركبة، ليس لها لفظ واحد يختصر هذا التكرار، مثلاً: ألف ألف، ألف ألف ألف، أو كعب كعب، أو مال مال مال، أو عشر عشر عشر، ونحوهم. إن وجود مثل هذه

الحالات يزيد من صعوبة فهم مادة الرياضيات ويكون مدعاة للملل والنفور من الرياضيات. إن الحالة الأولى، هي ذات أهمية خاصة لأنها متعلقة بالعدّ. والعرب لم يكن لديهم لفظ يعادل «ألف ألف»، كما يتضح ذلك مما يقوله مثلاً نصير الدين الطوسي (ت: ٦٧٢هـ/١٢٧٤م) في "رسالته عن الجبر والمقابلة" عن منازل الأعداد: "لما كانت صحاح الأعداد في التزايد وكسورها في التناقص ليست إلى حد يقف عنده رتبت في منازل تتكرر للضبط وهي الآحاد والعشرات والمآت ويتكرر المنازل بانضمام الألوف إليها متزايدة إلى غير النهاية فيقال آحاد الألوف وعشرات الألوف ومئات الألوف ثم يتضاعف الألوف ويتكرر الألوف متزايدة"[١٥٠]. ويشرح ذلك أيضًا أحمد سعيدان بقوله: "فقد اكتفى الحسّاب العرب بالألفاظ: آحاد وعشرات ومئات وألوف، ولم يحاولوا ابتكار لفظ جديد لتجنب تكرار لفظ الألوف؛ أما المليون والبليون والمليار وما إليها فألفاظ حديثة ندين بها للحضارة الأوربية"[١٥١]. وسنعطي أمثلة على هذا التكرار، منها العدد الكبير الذي ذكره كل من نصير الطوسي (ت: ٦٧٢هـ/١٢٧٤م)، والأبهري (ت: ٦٨٦هـ/١٢٦٤م)، وهو: ٥٩٠٠٨٠٦٧٢٠٠١٤٣، الذي كتبوه على الصورة الآتية: تسعة وخمسون ألف ألف ألف ألف، وثمانية آلاف ألف ألف، وسبعة وستون ألف ألف، ومائتا ألف، ومائة وثلاثة وأربعون[١٥٢][١٥٣]. كما نذكر مثالاً من كتاب «المسعد لذوي الألباب في علم الحساب» لفخر الدين محمد بن الخضر بن محمد ابن تيمية (ت: ٦٢٢هـ/١٢٢٥م): "إذا قيل: اضرب سبعة عشر ألف ألف ألف في تسعة عشر ألف ألف ألف، فاجمع لفظات الألوف من الجانبين... يكن: ثلاثمئة ألف ألف ألف ألف ألف ألف، وثلاثة وعشرين ألف ألف ألف ألف ألف ألف"[١٥٤]. ومثالاً آخر عن تكرار الكعب والمال من كتاب «الباهر في الجبر» للسموأل المغربي (ت: ٥٧٠هـ/١١٧٥م): "نريد أن نأخذ جذر كعب كعب كعب كعب، وأربعة أموال كعب كعب، وعشرة أموال مال كعب كعب، و٢٠ كعب كعب كعب، و٣٥ مال كعب كعب، و٥٦ مال مال كعب، وأربعة وثمانين كعب و..."[١٥٥]. والشيء الغريب، بالنسبة إلى تكرار: ألف ألف، فإن العرب والمسلمين لم يتبعوا طريقة الهنود، ولا طريقة الإغريق، لأن كلاً منهما يمتلك اسمًا خاصًا إلى مرتبة «ألف ألف» وما بعدها. وقد بيّن أبو الريحان البيروني (ت: ٤٤٠هـ/١٠٤٨م) في كتابه «في تحقيق ما للهند»، أسماء المراتب عند الهنود إلى المرتبة الثامنة عشر، وقد كان الاسم الذي يكافئ «ألف ألف» هو «برجنت»[١٥٦] (prayuta). أما عند الإغريق فقد ذكر أخوان الصفا أيضًا أسماء المراتب إلى ستة عشر مرتبة، وكانت مرتبة ألوف ألوف تسمى عندهم «غايات»[١٥٧]. ولنأخذ مثالاً آخر عن توالي بعض المصطلحات الحسابية والجبرية، وهذه المرة من كتاب «الكافي في الحساب» للكرجي (ت: ٤١٠هـ/١٠٢٠م)، من الباب الخامس والعشرين، باب نسبة أجزاء الدرج إليها (الدرج، جمع درجة في الرياضيات). يقول الكرجي: "اعلم أن الدرجة ستون دقيقة، والدقيقة ستون ثانية، والثانية ستون ثالثة، والثالثة ستون رابعة، وينقسم على هذا إلى الخوامس والسوادس

والسوابع والثامن والتواسع والعاشر، وما بعدها من حوادي عشر وما يتلوها إلى ما لا نهاية له، فعلى هذا تكون الدقيقة من الدرجة، سدس عشرها، وكذلك الثانية من الدقيقة، والثالثة من الثانية، وكل جزء من مرتبة فإن نسبته إلى الواحد من المرتبة التي قبلها سدس عشر... فإن أردت أن تنسب عاشره من درجة قلت هي سدس سدس سدس سدس سدس سدس سدس سدس سدس سدس سدس عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر ثم لخص العبارة وهو أن تقيم مقام كل سدس سدس، ربع تسع، فيصير بعد ذلك ربع ربع ربع ربع ربع تسع تسع تسع تسع تسع عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر، ثم أقم مكان ربع ربع ربع، ثمن ثمن، ومكان ربع ربع نصف ثمن، فيصير بعد ذلك الجواب نصف ثمن ثمن ثمن تسع تسع تسع تسع تسع عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر عشر"[١٥٨]. نلاحظ أنه حتى بعد التلخيص أو الاختصار بقى التوالي والتكرار حاضرًا. مع أن هناك محاولات لاختصار هذا التكرار، قام بها ابن فلوس المارديني (ت: ٦٣٧هـ/١٢٣٩م)، في كتابه " إعداد الإسرار في أسرار الأعداد" كإقامة الثمن مقام نصف نصف نصف[١٥٩]، لكنها لم تحل مشكلة تكرار المصطلحات وتواليها.

تاسعًا، التوجه نحو نظم الشعر لحفظ قوانين الرياضيات

إن التوجه نحو نظم الشعر لحفظ قوانين الرياضيات وقواعده وحقائقه الذي يسمى أيضًا «الشعر التعليمي»، يرتبط بفقرة الشروح كثيرًا، فضلاً عن ذلك هو موضوع خلافي من حيث منافعه. ومع ذلك لابد من المرور عليه بهذه الدراسة. لهذا نشير في البداية إلى أن هذا الصنف من الشعر لم يكن له حضور في العصور المتقدمة من الحضارة العربية الإسلامية، غير أنها بدأت تقريبًا منذ عصر عبدالله بن محمد بن حجاج، المعروف بابن الياسمين (ت: ٦٠١هـ/١٢٠٤م)، في أرجوزته الشهيرة بـ "إرجوزة ابن الياسمين" في الجبر والمقابلة. والحقيقة أن عملية النظم هذه تعد من أصعب المعارف؛ لأنها تتطلب قدرات عقلية ومهارات مزدوجة في موضوعين مختلفين هما: الرياضيات والشعر. غير أن القضية التي تعنينا هنا هي الأسباب والغايات التي تدعو لنظم هذه القصائد والأراجيز، وما هي دلالات ذلك؟ أحد الأسباب كما يبدو هو لتيسير حفظ قوانين الرياضيات وقواعدها وحقائقها، ومن ثم تذكرها. وهناك سبب آخر، هو قد تكون القوانين والحقائق كثيرة، يصعب حفظها وتذكرها، من المؤلفات المتخصصة، فيلجأ البعض إلى نظمها بقصائد شعرية؛ لأن الشعر بما يمتلك من موسيقى ووزن وقافية، يمكن حفظه بسهولة لدى بعض المتعلمين. وقد جمع جلال شوقي كثير من هذه المنظومات ونشرها ضمن مؤلفاته مثل: «العلوم العقلية في المنظومات العربية»، و«من تراثنا المنظوم في الرياضيات»، و«منظومات العلم الرياضي». وهناك أيضًا موسوعة «علماء الرياضيات الشعراء» لسمير محمد عثمان الحفناوي. لذلك هناك قصائد عديدة، فبالإضافة إلى أرجوزة ابن الياسمين في الجبر والمقابلة هناك أرجوزة أخرى له في الجذور. ومن القصائد الأخرى نذكر: "رسالة في علم الحساب" لعبد الرحمن

الأخضري من علماء القرن العاشر الهجري، وهي ضمن كتاب «مجموع مهمات المتون»، و«رسالة العمادية في الطرق الحسابية» لعبدالله بن أسعد بن أبي المعالي، وأرجوزة في حساب العقود لمحمد بن حرب الحلبي (ت: ٥٨١هـ/١١٨٥م)، وقصيدة تشنيف[١٦٠] السامع في علم حساب الأصابع لمحمد بن طولون الصالحي (ت: ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، و"الإسعاف الأتم[١٦١] بحساب القلم" لابن مالك الدمشقي (ق ١٠-١١هـ/١٦-١٧م)، وقصيدة إلى علي بن المغربي في حساب العقود، وقصيدة إلى شمس الدين بن أحمد الحنبلي، و"أرجوزة السملالي في الحساب"، و"مناهل السرور لمبتغي الحساب بالكسور"، و "أرجوزة حسابية في العمل بربع الدائرة"، ومنظومة "كتاب المجمع نظم اللمع"، لشرف الدين يحيى بن نور الدين العمريطي (ت: بعد ٩٩٣هـ/١٥٨٥م)، و"المقنع في علم الجبر والمقابلة" لابن الهائم المصري المقدسي (ت: ٨١٥هـ/١٤١٢م)، و«منية الحساب في علم الحساب» لابن غازي المكناسي (ت: ٩١٩هـ/١٥١٣م). ومع أن هناك إيجابيات لهذه المنظومات، غير أن هناك بعض التعقيدات عند التعامل معها، منها: الابتعاد عن استعمال الحساب أو الجبر الكتابي، ومن ثم الابتعاد عن الرموز الرياضية. ومنها أيضًا تحميل العقل قدرة أخرى، بالإضافة إلى حفظ الشعر، يستوجب فهم هذه المنظومة وتفكيك معانيها الرياضية، والدليل على ذلك وجود كثير من الشروح لهذه المنظومات بخاصة أرجوزة ابن الياسمين، التي وصلت شروحها إلى ثلاثة عشر، ومن أشهرها «اللمعة الماردينية في شرح الياسمينية»[١٦٢]، التي يقول عنها أحمد سعيدان: «توضع أبيات من الشعر تعرف المتعلم بمبادئ وضعت قبل أربعمئة سنة، وتجاوزها المشرق إلى مواد أرحب وأعمق»[١٦٣]. إن الحفظ، من الناحية التربوية بخاصة في مادة الرياضيات، ومهما كانت مزاياه ومنافعه، يبقى عملية عقلية ناقصة، لا تؤدي للتمكن من هذه المادة، ومن ثم لا تؤدي إلى الابتكار والإبداع، ما لم يقترن بدرجة معينة من فهم معاني المادة وإدراك علاقاتها المنطقية. كما أن التركيز على الحفظ يجعل من التذكر مرادفًا للتعلم، لذلك فإن الحفظ ليس بديلاً عن الفهم، إنما مكملاً له. وعن دلالات حفظ الشعر التعليمي يقول محمد سويسي، في تحقيقه لكتاب «بغية الطلاب في شرح منية الحساب» لابن غازي المكناسي (ت: ٩١٩هـ/ ١٥١٣م): "ولئن كانت الأرجوزة، كسائر الأشعار التعليمية، مكتنزة أحيانًا شديدة الاختصار، وتسف أحيانًا إسفافًا في الصنعة والتكلف، فإن الشرح قيم مستوف للمادة العلمية»[١٦٤]. يقصد بالأرجوزة، هي أرجوزة ابن غازي التي تدعى «منية الحساب». إن القضية الرئيسية في موضوع حفظ الشعر التعليمي، هو الجانب السلبي من «الحفظ»، أي الحفظ دون فهم وإدراك، الذي ينتج متعلمين يعتمدون على التكرار واسترجاع المعلومات دون تمكن من استعمالها في حل مسائل غير تقليدية وابتكار أفكار جديدة. وعن العلاقة بين ظهور الشعر التعليمي، وبين تطور الرياضيات وانحسارها، يقول أحمد سعيدان: «ويوم لم تنتشر الطباعة، وكانت الكتب نادرة، كان الشعر وسيلة ناجحة لحفظ العلم، ولكن في أيام فتوة الفكر العربي، قلما لجأ الرياضيون

إلى هذه الوسيلة. لقد لجأوا إليها عندما فتر الفكر العربي وأصابه الوهن. ولقد كان قدر الفكر المغربي الرياضي أن يبدأ عندما آل الفكر العربي عامة – إلى الفتور، بفعل عوامل متعاقبة تكالبت على العالم الإسلامي»[١٦٥].

الخلاصة

لم تكن غايتنا في هذه الدراسة، الانتقاص من الإنجازات الكبيرة للرياضيات العربية الإسلامية، عند سرد عوامل انحسارها وتضاؤلها، إنما كنا نبحث عن المؤثرات أو العوامل الداخلية للرياضيات التي أعاقت تطورها وأوقفت الإبداع والابتكار. والنتيجة التي يمكن قولها هي أن: العوامل الداخلية للرياضيات في العالم الإسلامي في العصور المتأخرة كان لها دورًا أساسيًا في تأخر الرياضيات وانحسارها. ولهذا فإن الجمود الفكري، وتوقف الابتكار النظري، والتركيز المفرط على بعض التطبيقات العملية، والاهتمام الشديد بقسم من الموضوعات النظرية المجردة، وتفضيل الجبر اللفظي على الرمزي، والإبطأ في استعمال الأرقام الهندية، وكذلك انعدام الرموز الحسابية والجبرية، وصعوبات التعلم، أدى إلى إعاقة التقدم من داخل صميم الرياضيات نفسها. إذن يمكننا القول إن التمسك بالأساليب القديمة، والاعتماد المفرط على أعمال العلماء السابقين دون السعي لتطويرها أو تقديم أفكار جديدة، قد أبطأ من وتيرة الابتكار والتطوير في الرياضيات، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لعبت، كما هو معروف العوامل الخارجية، مثل التغيرات السياسية والاجتماعية وغيرها (التي لم نناقشها في هذه الدراسة)، دورًا حاسمًا في تدهور الدعم والاهتمام بالعلم والعلماء. إذن هذه التحديات الداخلية ساعدت في انحسار الإبداع في الرياضيات، وتراجع مكانة الجبر والحساب والهندسة وحساب المثلثات في العالم الإسلامي بعد قرون من الازدهار. وأود أن أذكر مثالاً واحدًا عن العوامل الخارجية، مع أنه خارج نطاق هذه الدراسة، هو أهمية الرعاية والاهتمام بالعلم والعلماء، كما جاء في كتاب «تاريخ العلوم العام»: "تولى نصير الطوسي إدارة مرصد مراغة منذ بنائه عام ١٢٥٩م، حتى وفاته سنة ١٢٧٤م،... ويبدو أن مرصد مراغة استمر في العمل حتى حوالي سنة ١٣١٥م، وكان آخر مدير له، هو أصيل الدين، أحد أبناء نصير الدين الطوسي. هذه المدة الطويلة الاستثنائية بالنسبة إلى عمر المراصد الإسلامية، سببها أن مؤسسه حصل له على الاستفادة من أرياع منتظمة من أملاك وقفية مخصصة له[١٦٦]. ومن المؤثرات الداخلية التي يمكن استنتاجها من هذه الدراسة هي: ما يواجه العديد من المتعلمين في فهم نصوص الرياضيات، التي تؤثر تأثيرًا بالغًا، على جودة تعليم الرياضيات وتقلل من الإقبال على دراستها، وبالنتيجة تسهم في ضعف مستوى المتعلمين، وتراجع تقدم الرياضيات وانحسارها، وهذا بدوره يؤدى إلى نقص في الأجيال الجديدة من الباحثين والمبتكرين. كما أن فهم النصوص يعتمد كثيرًا على طريقة عرض المادة، التي تسبب أحيانًا صعوبات للمتعلمين، إذا لم تكن بأسلوب واضح ومشوّق. ومن المؤثرات الداخلية التي يمكن استنتاجها أيضًا هي: أن القدرة على الحفظ في الرياضيات لا علاقة لها دائمًا بالفهم والذكاء. بمعنى أن حفظ القوانين، مثلاً عن طريق الشعر لا يعني أن

المتعلم يمتلك قدرات عقلية عالية، ومن ثم تؤهله للإبداع والتطوير، هذا **أولاً**. **ثانيًا**، الاهتمام بالأعمال السابقة، ليس فقط القيام بشرحها أو اختصارها، إنما مناقشتها وتطويرها، وبيان إيجابياتها وسلبياتها، والاعتماد عليها في سبيل إنشاء أعمال جديدة. **ثالثًا**، أهمية دعم ورعاية المراكز العلمية المختصة في البحث والتأليف وتبادل المؤلفات الجديدة وتبادل المعلومات العلمية والمساهمة في نشر المعارف والعلوم. ورغم انحسار التطور، فإن مساهمات علماء الرياضيات في الحضارة العربية الإسلامية، قد أثرت بعمق في التطور العلمي الكلي. إن أعمالهم في الجبر والحساب والهندسة وحساب المثلثات، وضعت أسسًا حاسمة، بنى عليها بعد ذلك العلماء الأوربيون أثناء نهضتهم العلمية. إن حركة الترجمة التي أوصلت مؤلفات الرياضيات العربية إلى أوربا كانت أداة أساسية لأبحاث فكرية جديدة، وبالنهاية أسهمت في الثورة العلمية.

الهوامش

١. أدب الكتّاب، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي، ص٢٥١.

2. Mathematics, Astronomy, Optics, By Juan Vernet, , p. 461.

٣. "الرياضيات والفلك والبصريات" لخوان فيرنيه، ص١٨٦.

4. A Short Account of the History of Mathematics, W.W. Rouse Ball, p.135.

5. The Study of the History of Mathematics, George Sarton, p.10.

٦. التقاء الجبر والهندسة، مقابلة مع رشدي راشد، رسالة اليونسكو، ص٤١.

٧. العلوم والتقنية في العالم الإسلامي، ج١، لفؤاد سزكين، ص٣٠٨.

٨. تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، لعبدالمنعم ماجد، ص٢٩٨.

(9) A History of Mathematics: An Introduction, Victor Katz, p.317.

١٠. العلم في التاريخ، ج١، لـ ج. د. برنال، ص٣٠٩.

١١. تاريخ العلوم العام، ج١، لرنيه تاتون، ص٤٥٥، ٤٦٥.

١٢. "أولغ بك"، تعني "الأمير العظيم"، هو لقب إلى حاكم سمرقند، وعالم الرياضيات والفلك، في الوقت ذات، اسمه الحقيقي: محمد طرغاي بن شاه رخ بن تيمورلنك، قُتل عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م.

١٣. الميكانيك والفلك في الشرق في العصر الوسيط، لـ: أ.ت. غريفوريان و م.م. روجانسكايا، ص٦٥.

١٤. رسائل ابن سنان، ابن سنان، ص٢٣.

١٥. رسالة في الشكل القطاع، لأبي سعيد أحمد بن محمد بن عبد الجليل السجزي، ص٣.

١٦. تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن، لأبي الريحان البيروني، ص٢٢.

١٧. رسائل الخيام الجبرية، عمر الخيام، ص٢.

١٨. لمحة عن الإنتاج الرياضي بالغرب الإسلامي، ليوسف قرقور، ص٣٦.

١٩. رسالتان في الحساب العربي، لأحمد سعيدان، ص١٥٧.

٢٠. ابن بدر: أبو عبدالله، محمد بن عمر بن محمد البلنسي. ظهر في إشبيلية، وفيها وضع كتاب الاختصار في الجبر. وفيه مبادئ الجبر كما وضعها الخوارزمي، مع قليل من إضافات أبي كامل (تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج٢، لأحمد سعيدان، ص٤٠٩).

٢١. تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج٢، لأحمد سعيدان، ص٤٩٧.

٢٢. كشف الأسرار عن علم حروف الغبار، للقلصادي، ص٥٧.

٢٣. المقالات في الحساب، لابن البناء المراكشي، ص١٢.

٢٤. المصدر السابق، ص١٢.

٢٥. المصدر السابق، ص٣٣.

٢٦. تاريخ الرياضيات في الغرب الإسلامي، لمحمد أبلاغ، ص٢٦١.

٢٧. رسالتان في الحساب العربي، لأحمد سليم سعيدان، ص٨٧.

٢٨. العلم والتعليم: تعليم العلوم وتعلمها في المجتمعات الإسلامية (٨٠٠-١٧٠٠م)، لسونيا برينتيس، ص١١١.

٢٩. الفلك والرياضيات، لكارا دي فو، ص٥٩٢.

٣٠. التقاء الجبر والهندسة، مقابلة مع رشدي راشد، رسالة اليونسكو، ص٤١.

٣١. الميكانيك والفلك في الشرق في العصر الوسيط، لـ:أ.ت. غريفوريان و م.م. روجانسكايا، ص٦٥.

٣٢. الشعث: ما تفرق من الأمور (المعجم الوسيط، ص٤٨٤).

٣٣. أقام أوَدَه: قوَّم اعوجاجه (المعجم الوسيط، ص٣٢).

٣٤. الجبر والمقابلة، لمحمد بن موسى الخوارزمي، ص١٥.

٣٥. الجبر والمقابلة، لأبي كامل شجاع بن أسلم، ص٢٤٦.

٣٦. الزيج: جدول فلكي.

٣٧. القانون المسعودي، ج١، لأبي الريحان البيروني، ص٨٠.

٣٨. الفصول في الحساب الهندي، للإقليدسي، ص٤٧.

٣٩. الباهر في الجبر، للسموأل المغربي، ص٩.

٤٠. مراسم الانتساب في معالم الحساب، ليعيش ين إبراهيم الأموي، ص٢٣.

٤١. المصدر السابق، ص١٠.

٤٢. تاريخ العلوم العام، ج١، لرنيه تاتون، ص٤٥٧، ٤٥٨.

٤٣. الأعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي، جلال شوقي، ص٣٢.

٤٤. تاريخ علم الجبر في العالم العربي،ج٢، لأحمد سليم سعيدان، ص٤١١.

٤٥. أساس القواعد في أصول الفوائد، لكمال الدين الفارسي، ص٧.

٤٦. المصدر السابق، ص٥١٣.

٤٧. إعداد الإسرار في أسرار الأعداد، لشمس الدين اسماعيل بن ابراهيم ابن فلوس المارديني، ص٣٥٩.

٤٨. تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج٢، لأحمد سعيدان ، ص٤٢٩.

٤٩. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، لقدري حافظ طوقان، ص١٩١.

٥٠. لمحة عن الإنتاج الرياضي بالغرب

الإسلامي، ليوسف قرقور، ص١٩.

٥١. مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص٢٥٥.

٥٢. هداية طلاب قوانين الحساب إلى معالم الحساب، لمحمد بن عبدالله بن فيروز الحنبلي الأحسائي، ص٣٢.

٥٣. التكملة في الحساب، لعبدالقاهر البغدادي، ص٣٠.

٥٤. الرياضيات في الأندلس ما بين ق٣ و ٩هـ /١٠ و ١٥م، لمحمد أبلاغ، ص٤٦.

٥٥. تاريخ الرياضيات في الغرب الإسلامي، لمحمد أبلاغ، ص٢٦٣.

٥٦. مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص٣٤٤، ٣٤٦.

٥٧. قراءة في كتاب "معالم الأصالة والإبداع في الشروح والتعاليق العلمية المتأخرة"، جورج صليبا، عرض: عبدالعزيز النقر، ٢٠٢٠

٥٨. إرشاد العُجم لأعمال الجذور الصم، لمحمد بن أبي الفتح الصوفي الشافعي المصري، ص٩.

٥٩. إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، لابن الأكفاني، ص١٠١.

٦٠. تاريخ العلوم العام، ج١، لرنيه تاتون، ص٤٦٥.

٦١. الدرج، جمع درجة، وتساوي ستين دقيقة.

٦٢. الحساب المفتوح: علم يُتعرف منه كيفية مزاولة الأعداد لاستخراج المعلومات الحسابية من الجمع والتفريق والتناسب (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد لابن الأكفاني، ص٢١٠). والمفتوح عكس الأصم، كما جاء في كتاب "الفصول في الحساب الهندي، لأبي الحسن أحمد بن إبراهيم الإقليدسي، ص٥٠.

٦٣. الحساب الغباري: وهو الحساب الذي يحتاج استعماله إلى أدوات (كالقلم والورق) (تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك لقدري حافظ طوقان، ص٢٣). ويقول ابن البناء: "وإنما سميت بحروف الغبار، لأن أصل علم الحساب بها: كان يعمد المتعلم إلى لوح من خشب، ويبسط عليه غبارًا رقيقًا، ثم يأخذ عودًا صغيرًا، فيرسم به تلك الحروف في ذلك الغبار ويعمل فيه مسألته من الحساب» (المقالات في الحساب لابن البناء المراكشي، ص١٢٨).

٦٤. رقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق، لبدر الدين محمد بن سبط المارديني، ص٢.

٦٥. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، لقدري حافظ طوقان، ص٢٣٥.

٦٦. اللمعة المارديني في شرح الياسمينية في الجبر والمقابلة، لبدر الدين محمد بن سبط المارديني، ص٥٣.

٦٧. المصدر السابق، ص٤٢.

٦٨. المصدر السابق، ص٣٣.

٦٩. مبادئ السالكين في شرح رجز ابن الياسمين، لابن قنفذ القسطنطيني، ص١٦٣.

٧٠. العلوم العقلية في المنظومات العربية، لجلال شوقي، ص٢٢٩.

٧١. تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج٢، لأحمد سعيدان، ص٥٠٢.

٧٢. المصدر السابق، ص٥٠٣.

٧٣. ورقات عن حضارة المرينيين، لمحمد المنوني، ص٣٣١.

٧٤. علم الحساب عند العرب، لأحمد سليم سعيدان، ص١٦٣.

٧٥. المعونة في علم الحساب الهوائي، لابن الهائم،

ص٢٥.

٧٦. جامع الشروح والحواشي، ج٢، لعبدالله محمد الحبشي، ص٢١٨.

٧٧. مصطفى صدقي عالم الرياضيات، لمهدي عبدالجواد، ص١٣٤.

٧٨. منظومات العلم الرياضي، لجلال شوقي، ص٢٠٢.

٧٩. المعونة في علم الحساب الهوائي لابن الهائم، ص٣٦.

٨٠. العلوم العقلية في المنظومات العربية، لجلال شوقي، ص٢٦٨.

٨١. تاريخ الرياضيات في الغرب الإسلامي، لمحمد أبلاغ، ص٢٦٢.

٨٢. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، لقدري حافظ طوقان، ص٢٤٠.

٨٣. بغية الطلاب في شرح منية الحساب، لابن غازي ، المقدمة ص يب.

٨٤. الرياضيات، لديفيد برغاميني، ص٢٣.

٨٥. موجز تاريخ الرياضيات، لديريك ج. ستروك، ص٨٩.

٨٦. أدب الكتّاب، لأبي بكر الصولي، ص٢٥١.

٨٧. الكرخي: هو الكرجي.

٨٨. موريتز كانتور (Moritz Cantor) مؤرخ رياضيات ألماني (ت: ١٩٢٠م).

89. A History of Elementary Mathematics, F. Cajori, p.106.

٩٠. تاريخ الحساب، لرنيه تاتون، ص٦٠.

٩١. شمس العرب تسطع على الغرب، لزغريد هونكة، ص٧٤.

٩٢. تاريخ الحساب، لرنيه تاتون، ص٦٢.

٩٣. جوامع الحساب بالتخت والتراب، لنصير الدين الطوسي، ص٢٧٦.

٩٤. موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج٢، ط٢، إشراف: رشدي راشد، ص٤٤٥، التي تحوي دراسة تحت عنوان: "الأعداد وعلم الحساب" لأحمد سليم سعيدان، ترجمة نقولا فارس. وهذه الموسوعة ترجمة عن: Encyclopedia of The History Arabic Science, Vol ٢, p.٢ التي وردت فيها عبارة: finger-reckoning وقد تُرجمت خطًا إلى «نظام الجمّل» والصواب «الحساب الإصبعي».

٩٥. العدد، لجون ماكليش، ص١٦٩.

٩٦. ديوان المتنبي، ج٣، ص٢٠٥.

٩٧. بغية الطلاب في شرح منية الحساب، لابن غازي، ص٧.

٩٨. المصدر السابق، ص٦٢.

٩٩. دائرة المعارف، ج٧، لبطرس البستاني، ص٢٥.

١٠٠. المعجم الكبير، لمجمع اللغة العربية، ج١، ص١٨٩.

١٠١. الوافي بالوفيات، ج١٢، لصلاح الدين الصفدي، ، ص٢٧٨.

١٠٢. علم الحساب العربي، لأحمد سعيدان، ص٧١، ٧٢.

١٠٣. رسالتان في الحساب العربي، لأحمد سعيدان، ص٤٦.

١٠٤. علم الحساب العربي، لأحمد سعيدان، ص٧٢.

١٠٥. المصدر السابق .

١٠٦. الشمسية في الحساب، لنظام الدين حسن

النيسابوري المعروف بنظام الأعرج، ص١٧٢.

١٠٧. علم الحساب العربي، لأحمد سعيدان، ص٧٢.

١٠٨. من تراث البوزجاني، لمصطفى موالدي، ص١٢٨.

١٠٩. علم الحساب العربي، لأحمد سعيدان، ص٤٤.

١١٠. العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، لدونالد ر. هيل، ص٣٤.

١١١. العلم القديم والمدنية الحديثة، لجورج سارتون، ص٣٨.

١١٢. تاريخ الحساب، لرنيه تاتون، ص٧٢.

١١٣. الأعداد وعلم الحساب، لأحمد سليم سعيدان، ص٤٤٦.

١١٤. رسالتان في الحساب العربي، لأحمد سعيدان، ص١٣٠.

١١٥. تاريخ الحساب، لرنيه تاتون، ترجمة موريس شربل، منشورات عويدات، بيروت- باريس، ١٩٨٦، ص١١٧.

١١٦. طرق تدريس الرياضيات، ج٢، لفريدريك بل، ص٢٦.

١١٧. العدد لغة العلم، لتوبياز دانزج، ص٨٤.

١١٨. التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد اللائحة، لأبي الحسن القلصادي، ص١٣.

١١٩. بعث الرموز في الحساب والجبر وتطورها في المغرب الإسلامي، لمهدي عبدالجواد، ص٣٣.

١٢٠. الجبر والمقابلة، لمحمد بن موسى الخوارزمي، ص١٦.

١٢١. التكملة في الحساب، لعبدالقاهر البغدادي، ص٣٠.

١٢٢. فقه الحساب، لابن منعم العبدري، ص٢٠.

١٢٣. الرياضيات، لديفيد برغاميني، ص٥٤.

١٢٤. شمس العرب تسطع على الغرب، لزيغريد هونكه، ص١٥٧.

125. The Concise Oxford Dictionary, Mcl, E., p.61.

١٢٦. العدد لغة العلم، لتوبياز دانزج، ص٣٨.

١٢٧. العددان المتحابان، هما اللذان يكون مجموع قواسم كل منهما (باستثناء العدد نفسه) مساويًا للعدد الآخر، مثل العددين المعروفين مئتان وعشرون، ومئتان وأربعة وثمانون.

١٢٨. المدخل إلى علم العدد، لنيقوماخس الجارسيني، ص٢٤.

١٢٩. رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا، ج١، ص٦٣.

١٣٠. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، لقدري حافظ طوقان، ص٩٣.

١٣١. المصدر السابق، ص١٠٤.

١٣٢. المصدر السابق، ص١٢٠.

١٣٣. البديع في الحساب، لأبي بكر محمد بن الحسين الكرجي، ص٢٦.

١٣٤. الشفاء: الحساب، لابن سينا، ص١٥.

١٣٥. فقه الحساب، لابن منعم العبدري، ص١٨٥.

١٣٦. إعداد الإسرار في أسرار الأعداد، لابن فلوس، ص٢٤٧.

١٣٧. تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، لقدري حافظ طوقان، ص٢٣٨.

138. Magic Squares in the tenth cent., J. Sesiano, p.259.

١٣٩. إعداد الإسرار في أسرار الأعداد، لابن فلوس، ص ٢٤٣، ٢٤٧.

١٤٠. العدد، لجون ماكليش، ص١٥.

١٤١. الطلسم: (في علم السحر): خطوط وأعداد يزعم كاتبه أنه يربط بها روحانيات الكواكب العلوية بالطبائع السفلية لجلب محبوب أو دفع أذى. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، ص٥٦٢.

١٤٢. مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص٢٧٧.

١٤٣. دائرة المعارف، ج٧، لبطرس البستاني، ص٨.

١٤٤. الأوفاق، جمع وفق، وتعني هنا المربعات السحرية، وقد أطلق العرب عليها الأوفاق، لموافقة أضلاع المربع وجهاته وأقطاره. وقيل أيضًا للتوفيق في الأعمال.

١٤٥. العلوم والهندسة، لدونالد هيل، ص٤١.

١٤٦. رسائل أخوان الصفا، ج١، ص١٠٥.

١٤٧. إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد لأحمد الدمنهوري، ص١٢.

١٤٨. نصوص لتأريخ الأعداد المتحابة وحساب التوافقات، رشدي راشد، ص٦٠.

١٤٩. شرح اللزوميات، ج٣، لأبي العلاء المعري، ص٥٦.

١٥٠. رسالة في الجبر والمقابلة، لنصير الدين الطوسي، ص٢.

١٥١. الفصول في الحساب الهندي، للإقليدسي، ص٤٤٠.

١٥٢. جوامع الحساب بالتخت والتراب، لنصير الدين الطوسي، ص١١٥.

١٥٣. فصول كافية في حساب التخت والميل، للأبهري، ص٨١.

١٥٤. المسعد لذوي الألباب في علم الحساب، لفخر الدين محمد بن الخضر بن محمد ابن تيمية، ص٣٣.

١٥٥. الباهر في الجبر، للسموأل المغربي، ص٦٧.

١٥٦. في تحقيق ما للهند، لأبي الريحان البيروني، ص٣٧.

١٥٧. رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا، ج١، ص٦٨.

١٥٨. الكافي في الحساب، للكرجي، ص٨٦.

١٥٩. إعداد الإسرار في أسرار الأعداد، لابن فلوس المارديني، ص٣١١.

١٦٠. شنف الكلام: زينّه. شنّف الآذان: جعلها تلتذ، أمتعها (المنجد الأبجدي، ص٦٠٨).

١٦١. أتم: جعله تامًا (المنجد الأبجدي، ص١٢).

١٦٢. اللمعة المارديني في شرح الياسمينية في الجبر والمقابلة لبدر الدين محمد بن محمد سبط المارديني، ص٣٣.

١٦٣. تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج٢، لأحمد سليم سعيدان، ص٤١٠.

١٦٤. بغية الطلاب في شرح منية الحساب، لابن غازي المكناسي، ص١١.

١٦٥. تاريخ علم الجبر في العالم العربي، ج٢، لأحمد سليم سعيدان، ص٤١٠.

١٦٦. تاريخ العلوم العام، ج١، لرنيه تاتون، ص٤٨٦.

المصادر والمراجع العربية

• أدب الكتّاب، لأبي بكر محمد بن يحيى

الصولي، شرح وتعليق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.

- إرشاد العُجم لأعمال الجذور الصم، لمحمد بن أبي الفتح الصوفي الشافعي المصري، تحقيق مصطفى موالدي، مؤسسة الفرقان، لندن، ٢٠١١.
- إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، لابن الأكفاني، تحقيق عبدالمنعم محمد عمر وأحمد حلمي عبد الرحمن، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٠.
- أساس القواعد في أصول الفوائد، لكمال الدين الفارسي، تحقيق مصطفى موالدي، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٤.
- إعداد الإسرار في أسرار الأعداد، لشمس الدين اسماعيل بن ابراهيم ابن فلوس الماردیني، ضمن كتاب: MATEMATİK KÜLLİYÂTI İBN FELLÛS'UN، تحقيق: Rukiye Akkaya، تحرير: Elif Baga، الناشر: Yüksel Yücel، إسطنبول، ٢٠٢٤.
- الأعداد وعلم الحساب، لأحمد سليم سعيدان، ضمن: موسوعة تاريخ العلوم العربية، ج٢، ط٢، إشراف رشدي راشد، مركز دراسات الوحدة العربية- مؤسسة عبد الحميد شومان، بيروت، ٢٠٠٥.
- الأعمال الرياضية لبهاء الدين العاملي، تحقيق جلال شوقي، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١.
- الباهر في الجبر، للسموأل المغربي، تحقيق صلاح أحمد ورشدي راشد، وزارة التعليم العالي، دمشق، ١٩٧٢.
- البديع في الحساب، لأبي بكر محمد بن الحسين الكرجي، تحقيق عادل أنبوبا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٤.
- التبصرة الواضحة في مسائل الأعداد اللائحة، لأبي الحسن القلصادي، قراءة: محمد الهادي عبد الرحيم.
- التقاء الجبر والهندسة، مقابلة مع رشدي راشد، رسالة اليونسكو، مركز مطبوعات اليونسكو القاهرة، نوفمبر/تشرين الثاني، ١٩٨٩.
- التكملة في الحساب، لعبدالقاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق أحمد سليم سعيدان، منشورات معهد المخطوطات العربية، الكويت، ١٩٨٥.
- الجبر والمقابلة، لأبي كامل شجاع بن أسلم، ضمن كتاب: Abu Kamil: Algèbre et analyse diophantienne. Édition, traduction et commentaire، تحقيق رشدي راشد، الناشر: De Gruyter، برلين، ٢٠١٢.
- الجبر والمقابلة، لمحمد بن موسى الخوارزمي، تقديم وتعليق: علي مصطفى مشرفة ومحمد مرسي أحمد، دار الكاتب العربي، ط٣، القاهرة، ١٩٦٨.
- الرياضيات في الأندلس ما بين ق٣ و ٩هـ/١٠ و ١٥م، لمحمد أبلاغ، ضمن كتاب "الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات"، القسم الثالث، مطبوعات مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض، ١٩٩٦.
- الرياضيات والفلك والبصريات، لخوان فيرنيه، ضمن كتاب "تراث الإسلام"، ج٢، ط٣،

تصنيف جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، عالم المعرفة، ع٢٣٤، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨.

- الرياضيات، لديفيد برغاميني، ترجمة نجاح شمعة قدورة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٩.
- الشفاء: الحساب، لابن سينا، راجعه ابراهيم بيومي مدكور، تحقيق عبدالحميد لطفي، منشورات المرعشي، قم، ١٤٠٥هـ.
- الشمسية في الحساب، لنظام الدين حسن النيسابوري المعروف بنظام الأعرج، ضمن كتاب: EŞ-ŞEMSİYYE Fİ'L-HİSÂB Hesap BİlİmİndeKılavuz، تحقيق: Elif Baga، تحرير: İhsan Fazlıoğlu، الناشر: Yüksel Yücel، إسطنبول، ٢٠٢٠.
- العدد لغة العلم، لتوبياز دانزج، ترجمة أحمد أبو العباس، مكتبة مصر، القاهرة، دون تاريخ (تاريخ النسخة الأصلية، ١٩٥٤).
- العدد، لجون ماكليش، ترجمة خضر الأحمد وموفق دعبول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ع٢٥١، الكويت، ١٩٩٩.
- العلم القديم والمدنية الحديثة، لجورج سارتون، ترجمة عبدالحميد صبره، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة – نيويورك، ١٩٦٠.
- العلم في التاريخ، لـ ج. د. برنال، ترجمة علي علي ناصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١.
- العلم والتعليم: تعليم العلوم وتعلمها في المجتمعات الإسلامية (٨٠٠-١٧٠٠م)، لسونيا برينتيس، ترجمة رضا زيدان وعمرو بسيوني، ابن النديم للنشر والتوزيع، وهران – دار الروافد الثقافية، بيروت، ٢٠٢٢.
- العلوم العقلية في المنظومات العربية، لجلال شوقي، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٩٠.
- العلوم والتقنية في العالم الإسلامي، لفؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، ٢٠٠٧.
- العلوم والهندسة في الحضارة الإسلامية، دونالد ر. هيل، ترجمة أحمد فؤاد باشا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، ع٣٠٥، الكويت، ٢٠٠٤.
- الفصول في الحساب الهندي، لأبي الحسن أحمد بن ابراهيم الإقليدسي، تحقيق أحمد سعيدان، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٨٥.
- الفلك والرياضيات لكارا دي فو، ضمن كتاب: تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد، عربه وعلق حواشيه جرجس فتح الله، ط٢، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٢.
- القانون المسعودي، لأبي الريحان البيروني، قدم له وضبطه وصححه عبدالكريم الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢.
- الكافي في الحساب، لأبي بكر محمد بن الحسن الكرجي، درسه وحققه وشرحه سامي شلهوب، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٨٦.
- اللمعة الماردينية في شرح الياسمينية في الجبر والمقابلة، لبدر الدين محمد بن سبط الماردينى،

حققه وقدم له وعلق عليه محمد ابراهيم اليعقوبي، المجمع العربي للتأليف والدراسات والترجمة، بيروت – دمشق، ١٩٨٥.

- المدخل إلى علم العدد، لنيقوماخس الجارسيني، ترجمة ثابت بن قرة، عني بنشره وتصحيحه الأب ولهم كوتش اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، دون تاريخ.
- المسعد لذوي الألباب في علم الحساب، لفخر الدين محمد بن الخضر بن محمد ابن تيمية، تحقيق أسماء بنت عبدالرحمن بن ناصر الرشيد، مجلة الفقه الحنبلي وأصوله، ع١، السنة١، ٢٠٢٢.
- المعجم الكبير، لمجمع اللغة العربية، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠.
- المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون، دار الدعوة، اسطنبول، ١٩٨٩.
- المعونة في علم الحساب الهوائي، لابن الهائم المقدسي، دراسة وتحقيق خضير عباس المنشداوي، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، ١٩٨٨.
- المقالات في الحساب، لابن البناء المراكشي، تحقيق أحمد سليم سعيدان، دار الفرقان، عمّان، ١٩٨٤.
- المنجد الأبجدي، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٧.
- الميكانيك والفلك في الشرق في العصر الوسيط، لـ: أ.ت. غريفوريان و م.م. روجانسكايا، ترجمة أمين طربوش، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٠.
- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، تحقيق واعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٠.
- بعث الرموز في الحساب والجبر وتطورها في المغرب الإسلامي، لمهدي عبدالجواد، ضمن كتاب العصر الذهبي للعلوم في البلدان الإسلامية: المخطوطات العلمية المغاربية، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠١١.
- بغية الطلاب في شرح منية الحساب، لابن غازي المكناسي الفاسي، تحقيق محمد سويسي، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٨٣.
- -تاريخ الحساب، لرنيه تاتون، ترجمة موريس شربل، منشورات عويدات، بيروت – باريس، ١٩٨٦.
- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ط٧، لعبدالمنعم ماجد، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٩٦.
- تاريخ الرياضيات في الغرب الإسلامي، لمحمد أبلاغ، ضمن كتاب: التكامل المعرفي، مؤسسة دار الحديث الحسنية، المملكة المغربية، ٢٠٠٩.
- تاريخ العلوم العام، لرنيه تاتون، ترجمة علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٨.
- تاريخ علم الجبر في العالم العربي، لأحمد سليم سعيدان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٦.
- تاريخ علم الفلك العربي: كتاب الهيئة، لمؤيد الدين العرضي، تحقيق جورج صليبا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠.

- تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات الأماكن، أبو الريحان البيروني، تحقيق ب. بولجاكوف، راجعه إمام إبراهيم إمام، مجلة معهد المخطوطات، مج٨، ١٩٦٢.
- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، لقدري حافظ طوقان، مطبعة المقتطف والمقطم، القاهرة، ١٩٤١.
- جامع الشروح والحواشي، لعبدالله محمد الحبشي، دار المنهاج، بيروت، ٢٠١٧.
- جوامع الحساب بالتخت والتراب، لنصير الدين الطوسي، تحقيق أحمد سعيدان، مجلة الأبحاث، السنة٢٠، ع٢، ١٩٦٧.
- دائرة المعارف، لبطرس البستاني، دار المعرفة، بيروت، ١٨٨٧.
- ديوان المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، ضبطه وصححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون، دار المعرفة، بيروت، دون تاريخ.
- رسالة في الجبر والمقابلة، لنصير الدين الطوسي، تحقيق: اكبر داناسرشت، طهران: انتشارات دانشگاه تهران، ١٩٥٦.
- رسالة في الشكل القطاع، لأبي سعيد أحمد بن محمد بن عبد الجليل السجزي، في: الرسائل المتفرقة في الهيئة للمتقدمين ومعاصري البيروني، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، ١٩٤٨.
- رسالتان في الحساب العربي، لأحمد سليم سعيدان، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٣، ج١، ط٢، ١٩٩٧.
- رسائل أخوان الصفا وخلان الوفا، مراجعة خيرالدين الزركلي، مؤسسة هنداوي، وندسور (المملكة المتحدة)، ٢٠١٨.
- رسائل الخيام الجبرية، حققها وترجمها وقدم لها رشدي راشد وأحمد جبار، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، حلب، ١٩٨١.
- رسائل ابن سنان، تحقيق أحمد سليم سعيدان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣.
- شرح اللزوميات لأبي العلاء المعري، تحقيق زينب القوصي وآخرون، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤.
- شمس العرب تسطع على الغرب، لزغريد هونكة، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط٨، دار الجيل، بيروت – دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٩٣.
- طرق تدريس الرياضيات، لفريدريك بل، ج٢، ترجمة وليم عبيد وآخرون، الدار العربية للنشر والتوزيع، نيقوسيا، ١٩٨٦ .
- علم الحساب العربي، لأحمد سعيدان، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمّان، ١٩٧١.
- علم الحساب عند العرب، لأحمد سليم سعيدان، مجلة عالم الفكر، مج٢، ع١، ١٩٧١.
- فصول كافية في حساب التخت والميل، لأمين الدين الأبهري، ضمن كتاب FUSÛLÜN KÂFİYE FÎ HİSÂBİ'T-TAHT VE'L-MÎL، تحقيق: Elif Baga، تحرير: İhsan Fazlıoğlu، الناشر: Yüksel Yücel، إسطنبول، ٢٠٢١.

- فقه الحساب، لابن منعم العبدري، تقديم إدريس لمرابط، دار الأمان، الرباط، ٢٠٠٥.
- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، لأبي الريحان البيروني، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، ١٩٥٨.
- كشف الأسرار عن علم حروف الغبار، لأبي الحسن القلصادي، تحقيق محمد سويسي، الدار العربية للكتاب – بيت الحكمة، قرطاج، ١٩٨٨.
- لمحة عن الإنتاج الرياضي بالغرب الإسلامي، ليوسف قرقور، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، ٢٠٢٠.
- https://www.arrabita.ma/download/لمحة-عن-الإنتاج-الرياضي-بالغرب-الإسلا
- مبادئ السالكين في شرح رجز ابن الياسمين، لابن قنفذ القسطنطيني، تحقيق يوسف قرقور، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع٦٧، ٢٠٠٩.
- مراسم الانتساب في معالم الحساب، ليعيش ين إبراهيم الأموي، تحقيق أحمد سليم سعيدان، معهد التراث العلمي العربي، حلب، ١٩٨١.
- مصطفى صدقي عالم الرياضيات والفلك، للمهدي عبد الجواد، مجلة المخاطبات، ع٢٤، ٢٠١٧.
- معالم الأصالة والإبداع في الشروح والتعاليق العلمية المتأخرة، جورج صليبا، عرض: عبدالعزيز النقر، الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، ٢٠٢٠.
- https://www.arrabita.ma/معالم-الأصالة-والإبداع-في-الشروح-والت-٢/
- مفاتيح العلوم، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب، تحقيق نهى النجار، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٣.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبدالله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ٢٠٠٤.
- من تراث البوزجاني، مصطفى موالدي، مجلة معهد المخطوطات العربية، مج٤٨، الجزآن ١، ٢، القاهرة، ٢٠٠٤.
- منظومات العلم الرياضي، لجلال شوقي، حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، ع٧، ١٩٨٤.
- موجز تاريخ الرياضيات، لديريك ج. ستروك، ترجمة عبداللطيف الصديقي، دار علاء الدين، دمشق، ٢٠١٨.
- موسوعة تاريخ العلوم العربية، ط٢، إشراف: رشدي راشد، مؤسسة دراسات الوحدة العربية ومؤسسة عبدالحميد شومان، بيروت، ٢٠٠٥.
- نصوص لتأريخ الأعداد المتحابة وحساب التوافقات، رشدي راشد، مجلة تاريخ العلوم العربية، مج٦، العددان ١ و ٢، ١٩٨٢.
- هداية طلاب قوانين الحساب إلى معالم علم الحساب، لمحمد بن عبدالله الحنبلي الإحسائي، تحقيق فايح بن سعيد بن نايف المقاطي، مجلة الفقه الحنبلي وأصوله، ع٣، السنة٢، ٢٠٢٤.
- ورقات عن حضارة المرينيين، لمحمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، ط٣، الرباط، ٢٠٠٠.

المصادر الأجنبية

- A History of Elementary Mathematics, F. Cajori, The Macmillan Company, London, 1930.
- A History of Mathematics: An Introduction, 3rdEd., Victor Katz, Addison-Wesley, New York, 2009.
- A Short Account of the History of Mathematics, W.W. Rouse Ball, Dover Publications, New York, 1960.
- Magic Squares in the tenth century, J. Sesiano, Springer, 2017.
- Mathematics, Astronomy, Optics, By Juan Vernet, in: The Legacy of Islam, Edit by J. Schacht and C.E. Bosworth, Oxford University Press, Oxford, 1979.
- The Concise Oxford Dictionary, Mcl, E., 4th Ed., Oxford, 1950.
- The Study of the History of Mathematics, George Sarton, Dover Publications, New York, 1957.

المخطوطات

- إحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد، لأحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، مكتبة جامعة ميشيغن، ١٧٨٦.

  https://babel.hathitrust.org/cgi/pt?id=mdp.39015081446612&seq=1

- رقائق الحقائق في حساب الدرج والدقائق، لبدر الدين محمد بن سبط المارديني، مكتبة الكونغرس، تاريخ النسخ ١٢٤٠هـ.

  https://archive.org/details/202307 رقائق الحقائق في/24_20230724_1324 حساب الدرج والدقائق/

حالةٌ تقعيديَّةٌ في علمِ تحقيقِ النُّصوصِ

«نَيلُ السَّعادات في تحقيقِ المقولاتِ» للبُليديِّ (ت: ١١٧٦هـ) نموذجًا

د. يحيى زكريا محمد
مشيخة الأزهر الشريف
مصر

«**نَيل السَّعادات في تحقيقِ المقولاتِ**» للسيد محمد بن محمد البُليديِّ المتوفى سنة ١١٧٦هـ، هو كتاب في «مبحث المقولات الفلسفية»، ويتعلق هذا البحث بتقعيد حالةٍ نصيَّةٍ معقَّدةٍ تتعلَّقُ بتدخُّلٍ لاحقٍ في نصِّ المصنِّف، وهو موضوع نادر التناول في دراسات علم نقد النُّصوص، ويقدم البحث أنموذجًا تطبيقيًا لإصلاحِ النُّصوصِ بعد المؤلِّف، معتمدًا على رصيدٍ كبيرٍ من مخطوطات النَّصِّ، يصل إلى ٣٢ نسخة خطية، كما يستند إلى شواهد خارج النَّص، سواء ما يتعلق بخوارج النِّص، أو المؤلَّفاتِ التي وضعت على النص تحشية وتعليقًا، ويعدُّ هذا البحث ثمرة تحقيق الكتاب.

مقالات

مدخلٌ:

على الرغم من أهميَّةِ نصِّ البُليديِّ في المدرسةِ الأزهريَّةِ في القرنِ الثَّاني عشر والثَّالث عشر، واعتناءِ العُلماءِ به وخدمتِه، وعُكوفِ ثلاثةٍ من أعلامِ الأزهريين على التَّحشيةِ عليه، إلَّا أنَّه بعد الاطِّلاعِ على النُّسَخِ المتاحةِ لنا من الرِّسالةِ، يتبيَّنُ الاختلافُ الكبيرُ بينها، اختلافٌ يُؤدِّي إلى القولِ بأنَّ هذا النصَّ وقَعَ فيه تغييرٌ وإضافةٌ وحذفٌ في كمٍّ كبيرٍ من النُّسَخِ، وقد تنبَّه إلى ذلك: العلَّامةُ الكبير حسن بن محمد العطَّارُ، شيخ الأزهر (ت: ١٢٥٠هـ)، وذكره في غيرِ موضعٍ من «**حاشيتِه الكبرى على مقولات السيد البليديِّ**» على هذه الرِّسالةِ -كما سترى بعدُ-.

وهنا يأتي السؤال:

ما مصدر هذا التغيير؟

هل كان هذا التغيير بيدِ المؤلِّف أو بعلِمه، أو كان الأمر غير ذلك؟

ألجأنا هذا الاختلافُ إلى النَّظرِ المتأنِّي فيما وَقَعَ تحت أيدينا من مخطوطاتٍ وصل عددُها إلى (٣٢) نسخة، في مكتباتِ مصرَ وغيرها، وفحص هذه النُّسخ ودراستِها حتى نصلَ إلى سببِ هذا الاختلافِ الكبيرِ بين النُّسخِ[1].

وبعد النظر المتأني في هذه النسخ والمقارنة

بينها، وجَدنا أنَّ الاختلافَ بينها له صُورٌ متعددةٌ، تظهرُ على النَّحوِ التَّالي:

أوَّلًا: اختلافُ النُّسخِ في نصِّ الرِّسالةِ:

نجِدُ أن النُّسخَ في «مقدِّمة الرسالة» تنقسِم إلى فئاتٍ ثلاثٍ:

الأولـى: النُّسَخُ التي بدأت من الثناءِ على المؤلِّفِ هذا الثناء الكبير[٢]، وهي قليلةُ العدد بالنِّسبةِ إلى النُّسخِ التي لم تُثبِت هذا الثناءَ، ولا شكَّ أن هذا الثَّناءَ ليس من صنيعِ المؤلِّفِ، بل يبدو أنَّه من صنيعِ بعضِ النُّساخِ المتَّصلِينَ بالمؤلِّفِ تلمذةً، ثم تَوَاردَت عليه النُّسخُ الأخرى، وهذا الثَّناءُ تَجده في نسخةِ دارِ الكتُبِ المصريَّةِ (٦٣٤ مجاميع)، التي كانت في تملُّكِ تلميذِ المؤلفِ، الشيخ خليل المغربي (ت: ١١٧٧هـ)، وعليها حواشٍ بخطِّه منسوبةٌ للمؤلِّفِ، ونسخة دار الكتب المصرية (٤٣ حكمة) أيضًا، وكذلك نسخة مكتبةِ الأوقافِ بالقاهرةِ (السيدة زينب) (٣٢٩٩)، وبعض نُسخِ المكتبة الأزهريَّةِ (يصل عددُها إلى خمس نسخٍ)، ونُسختَين أخرَيينِ من دارِ الكُتبِ.

الثَّانيةُ: النُّسَخُ التي بـدَأَت من قولِه: «لك الحمدُ يا من شرَحَ صدورَنا ...» وهي أقلُّ النُّسخِ عـددًا، وقد وَجدنا ذلك في نُسختَينِ من نُسخِ الكِتابِ، وهي نسخةُ مكتبةِ الأوقافِ (٦/٣١٤١)، والأزهرية (٤١٩٦٩)، وقد بَدَأت هذه النُّسخُ من نصِّ المؤلِّفِ تمامًا، لكن يبدو أنَّ هذه الخطبةَ الافتتاحيَّةَ[٣] لم تكن في نُسخةِ المؤلِّفِ، فإن تلميذَه خليلَ المغربيَّ ذكر في نسختِه المذكورة سابقًا، أنَّ هذه الخُطبةَ «لك الحمد ... ومصابيح الـظلام» لم تكن في أصلِ المؤلِّفِ -حيث إنَّ نُسخةَ خليل منقولةٌ من مُبيَّضةِ المؤلِّفِ كما ذكر هو على غلافِ نسختِه- بل من «المترجَم من خطِّ المؤلِّفِ» كما نصَّ الشَّيخُ خليل على غلافِ نسختِه أيضًا، ومعنى ذلك أنَّ هذه الفقرة أُضيفَت لاحقًا إلى النَّصِّ، من خلالِ البُلَيديِّ، لكنَّها لم تكن مُثبَتةً في صورةِ النَّصِّ الأولى.

الثَّالثة: النُّسَخُ التي بدَأَت من قولِه «أما بعد حمد الله» وذلك بعد البَسملةِ والاستعانة والصَّلاة على رسولِ اللهِ -وإن كانت بعضُ النُّسخِ لم تأتِ بالاستعانةِ[٤] والبسملة- وهي أكثرُ النُّسخِ عدَدًا، وتجد ذلك سواء في النُّسَخِ المتقدِّمةِ تاريخًا والمتأخرةِ كذلك.

وبالتَّالي فإنَّ النُّسَخَ التي من الفئةِ الثَّالثةِ جاءت ناقصةً، (وعلى هذا جاءت المطبوعتان التي طبعتا للكتاب قبل ذلك)، أما نُسَخُ الفئةِ الأولى فقد جاءَت تامَّةً مع زيادةِ الدِّيباجةِ المتعلِّقةِ بثناءِ المؤلِّفِ، والفئةُ الثَّانيةُ هي التي جاءَت تامَّةً من كلامِ المؤلِّف بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ.

هذا كما ترى: الاختلافَ في مقدِّمةِ المؤلِّفِ، **أمَّا في داخلِ النَّصِّ فقد جاءت النُّسخُ مختلفةً في مواطنَ شتَّى**، وتجِدُ النُّسَخَ مختلفةً في ذلك إلى فئتينِ:

الأولى: وتَشمَلُ نسخةَ الشَّيخِ خليل ونسخةَ الأزهريةَ التي بخطِّ السُّحيميِّ ونسخةَ تونس (٧٣٦٣)، والأزهريةَ: (٤١٩٦٩)، و(٥٩٨٤١)، و(١٣٣٤٩٩)، و(١٣٣٥٠٢)، ونسخةَ دارِ الكتُبِ المصريَّةِ (١٣٢ حكمة وفلسفة).

وتتميَّزُ هذه الفئةُ من النُّسَخِ بأمرينِ:

١. أن ما توفَّر من تاريخِ نَسخٍ لهذه النُّسخِ

سابقٌ على التَّاريخِ المتوفِّر لنسخِ الفئةِ الثانيةِ، حيث إنَّ تاريخَها يَقَعُ في الفترةِ (١١٤٧-١٢١٠هـ) وهو ما يمثِّلُ تميُّزًا نِسبيًّا على نُسخِ الفئةِ الثَّانيةِ التي يقعُ تواريخُ ما توفَّرَ منها في القرنِ الثالثَ عشرَ، وبالتَّالي فإنَّ هذه الفئةَ من النُّسخِ كُتِبَ بعضُها في حياةِ المؤلِّفِ.

٢. وجود إشكالاتٍ في بعضِ مواضعَ من النَّصِّ يشيرُ ظاهرُها إلى أنَّها في حاجةٍ إلى إصلاحٍ وتعديلٍ.

الثَّانيةُ: هي النُّسَخُ التي وقعَ فيها تغييرُ إشكالاتِ الفئةِ الأولى، ويُمثِّلُها نسخة جامعةِ الإمامِ (١٤٤٩) ونسختي جامعةِ الملكِ سعود: (٢٦٢٨)، و(٥٠٠٤) ونسخةِ مكةَ المكرَّمةِ (١٣منطق) ونسخ مكتبةِ الأوقافِ بالقاهرةِ (السيِّدة زينب) (٣/٨٤٤)، و(٦/٣١٤١)، و(٣٢٩٩)، ونسخ المكتبةِ الأزهريةِ: (٢٨٨٨٣)، و(٤٢٧٥٠)، و(٤٨٧٧٧)، و(٦٦٤٠٤)، و(١٣٣٥٠٠)، ونُسَخِ دارِ الكتبِ المصريَّةِ: (٢٥ حكمة وفلسفة)، (٤٣ حكمة وفلسفة)، و(١٥٢ حكمة وفلسفة).

ويُلاحظُ على هذه الفئةِ من النُّسخِ ما يلي:

١. لا تُوجَدُ نسخةٌ واحدةٌ من هذه النُّسَخ تمَّ نسخُها في حياةِ المؤلِّفِ، بل كلُّها نسخٌ متأخِّرةٌ.

٢. ما ذكرناه سابقًا من كونِ هذه النُّسخِ تمثِّلُ تَغييرًا لنصِّ الفئةِ الأولى.

٣. أن بعضَ هذه النُّسخِ قد كان ضِمنَ الفئةِ الأولى ثُمَّ قام النَّاسخُ بتعديلِ النَّصِّ -بالشَّطبِ والإلحاقِ- إلى ما يمثِّلُ هذه الفئةَ الثَّانيةَ: سواء كان هذا التَّغييرُ:

- تامًّا في كُلِّ المواضعِ التي تَمَّ ملاحظتُها في هذه الفئةِ، كما في نسخةِ الأزهريَّةِ (١٣٣٥٠٠)، والتي يقعُ تاريخُها متقدِّمًا نِسبيًّا (١٢١٠هـ).
- أو في أكثرِه كنسخةِ الأزهريَّة (٤١٧٠٢).

ويمثِّلُ الجدولُ التَّالي بعضَ الفروقِ بين هاتينِ الفئتينِ، مع ما استشكَلَه الشيخ حسن العطَّارُ على هذه النُّصوصِ لبيانِ إشكالاتها:

نص الفئة الأولى	نص الفئة الثانية	ملاحظات العطار على نصِّ المؤلف	طبيعة التعديل
فإنَّ مجموعَهُما لا ينفكُّ عن المُزُوزَةِ، فهي موقوفةٌ على تعقُّلِ غيرٍ بمعنًى، غيرُ موقوفةٍ على تعقُّلِه بمعنًى آخرَ، وهو المراد، وبأن المنفي في قولِه: «لا يتوقَّفُ تعقُّلُه» لزومُ التَّوقُّفِ.	فإنَّ مجموعَهُما لا ينفكُّ عن المُزُوزةِ، فهي موقوفةٌ على تعقُّلِ غيرٍ بمعنًى، غيرُ موقوفةٍ على تعقُّلِه بمعنًى آخرَ، وهو المراد بالمنفي في قولِه: «لا يتوقَّفُ تعقُّلُه» لزومُ التَّوقُّفِ.	علق العطار على قول المؤلف «وبأن المنفي» بقوله: «عطف على قولِه «وبأنَّ المراد» وهما في الحقيقةِ جوابٌ واحدٌ».	دمجٌ وتصويبٌ؛ لتفادي العطف غير المبرر بين جملتين هما في الأصل جواب واحد.

وقد وضَّحتُهُ غايةً	وقد وضَّحتُهُ غايةَ التوضيح		محاولة إتمام الجملة التي رُؤي أنَّها ناقصة
وقد عليهم كما هو العادة بأنَّهم	وقد رُد عليهم بأنهم	ذَكَرَ العطَّارُ في حاشيتِه أنَّ عبارةَ «كما هو العادة» حشوٌ.	تمَّ حذف العبارة الزائدة التي هي حشوٌ وإضافة الفعل السَّاقط
مع امتناعِهم فقبحهم الله تعالى عن قولِهم، وتبارك عن وصفِه	مع امتناعِهم قبحَهُم الله تعالى عن وصفِه.	علَّق العطَّارُ على هذا الموضعِ بقولِه: «قوله «عن قولهم»: عن بمعنى في، وعن في قولِه «عن وصفِه» على بابِها متعلِّق بامتناعِهم، ولا تَخفى ركاكةُ هذا التَّركيبِ بزيادةِ «وتبارك» قبلَه الموهم تعلقه به، وهو شنيعٌ، ولو أنَّه قصَّرَ المسافةَ في التَّعبيرِ وقال: وقد رَدَّ عليهم بأنَّهم يصفونه بما هو إضافةٌ مع امتناعِهم عن وصفِه بما هو وجوديٌّ. لسَلِمَ الكلامُ عن هذه التَّعقيداتِ»	تحسين الأسلوب، وتقصير العبارة، وإزالة الرَّكاكة، وحذف ما فيها من الزِّيادات المربكة
كالسوقِ في ساعةِ كذا، وإلى مجازِيٍّ، كالسوقِ يومَ كذا.	كالكُسُوف (أو الخسوف) في ساعةِ كذا، وإلى مجازِيٍّ، كالكسُوف (أو الخسوف) يومَ كذا.		تصحيح ما رؤِي أنَّه تصحيف؛ حيث اعتُبِر إنَّ كلمة «السوق» هنا خطأ من النَّاسخ بسبب التشابه في رسم الكلمات

ويتبيَّن من هذا الجدولِ أنَّ الفئةَ الثَّانيةَ إنَّما هو: تغييرٌ وتعديلٌ للفئةِ الأولى.

وقد نَتَجَ عن هاتين الفئتينِ **نوعٌ ثالثٌ من النُّسخِ**، وهي النُّسخُ الملفقةُ بينهما، حيث أدَّى ظهورُ

تلك الفروقِ بين الفئتينِ إلى تقييمِ هذه الفروقِ بواسطة النُّسَّاخِ أو طلبةِ العلمِ(٥)، وإثباتِ ما يراه أقومَ وأصلحَ للنَّصِّ من وجهةِ نظرِه، ومن ذلك: نسخةُ دارِ الكُتبِ المصريَّةِ (٥٠٠١ج)، فإنَّ النَّاسخَ قد قابلَ النُّسخةَ على الفئتينِ وأثبَت ما يراه أقومَ للمعنى وأصلَحَ، ثُمَّ نتج عن هذه النُّسخِ الملفَّقةِ ظهور نسخٍ ناقلةٍ عنها بحيث تجدُ النَّصَّ مُلَفَّقًا بين الفئتينِ في أصلِ النَّصِّ دون أن يكون هناك إصلاحٌ أو شطبٌ أو إلحاقٌ، كنسخةِ الأزهرية (١٤٤٨٤).

وعندَ محاولةِ الإجابةِ عن السؤالِ المطروحِ سابقًا، يَظهرُ أنَّ هذا التَّغييرَ في النصِّ لم يكن بيدِ مؤلِّفنا البليديِّ رحمه الله، بل كان بواسطةِ غيرِه، وذلك لأسبابٍ عدَّةٍ، منها:

١. عدم وجودِ نُسخةٍ متقدِّمةٍ من النِّسخِ التي وقعَ فيها التَّغييرُ، بل كلُّها نسخٌ متأخِّرةٌ عن حياةِ المؤلِّفِ، يرجِعُ أقدمها تاريخًا إلى ما بعد وفاةِ المؤلِّف بأكثرَ من ثلاثينَ سنةٍ.

٢. أن الشَّيخَ خليلًا المغربيَّ، الذي هو من أخصِّ تلاميذِ المؤلفِ رحمَه اللهُ، قد أثبتَ في نسختِه أن مبيَّضةَ المؤلِّفِ كانت على النَّحوِ الذي فيه هذه الإشكالاتِ بلا تعديلٍ أو تغييرٍ في نصِّها، ولو صنعَ المؤلِّفُ شيئًا من ذلك لكان الشَّيخُ خليل أولى النَّاسِ بمعرفتِه وإثباتِه في نسختِه.

٣. أنَّه لو كان هناك تعديلٌ أو تغييرٌ في نصِّ الرِّسالةِ بيدِ المؤلِّفِ لم يكن ليخفَى ذلك على العطَّارِ رحمَه اللهُ، والذي استدرَك على المصنِّفِ في بعضِ هذه الإشكالاتِ، مع علوِّ شأنِ العطَّارِ في معرفةِ الكتبِ ونُسَخِها وجمعها واهتمامه بها اهتمامًا كبيرًا، حتى وقَعَ بين يديه من الكتُبِ ونُسَخِها ما لم يقع بين أيدي كثيرٍ من الأزاهرةِ قبلَه.

٤. أنَّ هناك مجموعةً من النُّسخِ المتأخرةِ قد وقع فيها التَّغييرُ في نفسِ النُّسخةِ، حيث إنَّها كانت كنسخةِ المؤلِّفِ، ثُمَّ أدخلَ عليها التَّغييرَ والتَّعديلَ بعدَ ذلك، ولو كان هذا التَّعديلُ بواسطةِ المؤلِّفِ لكان ذلك مُثبتًا في أوَّلِ الأمرِ دون الحاجةِ إلى تَغييرٍ في نصِّ النُّسخةِ بعد نسخِها، وخاصةً أنَّها نسخٌ متأخِّرةٌ، بحيث لو كان هناك تغييرٌ بواسطةِ المؤلِّفِ لكان ذلك واضحًا قبلَ النَّسخِ لا بعدَه.

٥. أنَّ هذه الإشكالاتِ وإن كان العطارُ "رحمه اللهُ" قد نبَّه على بعضِها، إلا أنَّه يمكنُ فهم المعنى معها بشيءٍ من التَّدقيقِ والتَّأويلِ، والتَّجوُّزِ أحيانًا، بالإضافةِ إلى أنَّ العطَّارَ قد أشكل على المؤلِّفِ مواضعَ أُخرى كثيرة غير هذه المواضعِ التي تمَّ تعديلُها.

لكن إذا كان المؤلِّفُ لم يغيِّر في كتابِه شيئًا، فمَن الذي قام بهذا التَّغييرِ والتَّعديلِ؟ هل هو فِعلُ النُّسَّاخِ، أم فِعلُ عالمٍ من العلماء الذين حاولوا إصلاحَ كتابِ البليديِّ؟

للإجابة على هذا السؤالِ نحتاجُ إلى تفحُّصِ هذه المواضعِ التي وقعَ فيها التَّغييرُ والتَّعديلُ، والنَّظرُ فيها نظرًا متأنِّيًا، لنجدَ اتِّفاقَ النُّسخِ على مواضعَ معيَّنةٍ من الكتابِ وتعديلها بطريقةٍ واحـدةٍ، وبالتَّالي فإنَّه لا يُمكن أن يكونَ هذا التَّعديلُ قام به النُّساخُ، فلو كان الأمرُ من النُّساخِ لَوقع بطُرُقٍ متفاوتةٍ لا على هذه الوتيرةِ الواحدةِ، سواء في المواضعِ التي وقع عليها التَّعديلُ، أو في طريقةِ التَّعديلِ ذاتِها، بالإضافةِ إلى أنَّه من

المعلومِ لكلِّ دارسٍ لتاريخِ المخطوطاتِ العربيَّةِ: أنَّه ليس من عادةِ النُّساخِ إصلاحُ الكتُبِ بأنفسِهم، بل ينسخون النَّصَّ على ما هو عليه، دون تغييرٍ.

لكنَّ الرَّاجحَ في مثل هذه الأمورِ أن يقومَ أحدُ المشتغلينَ بالعلمِ أو أحدُ العلماءِ الذين تتلمذُوا على المؤلِّفِ بإصلاحِ النَّصِّ تقديرًا لمؤلِّفِه "رحمَه اللهُ"، ثُمَّ تواردَت النُّسخُ بعدَ ذلك على هذا الأمرِ

وممَّن وجَّه النَّظرَ إلى مثلِ هذه المسألةِ –في تراثِنا العربيِّ- وتنبَّه إليها: د. بشَّار عوَّاد معروف في دراسته: «تحقيق النصوص بين أخطاء المؤلِّفين وإصلاح الرُّواةِ والنُّساخ والمحقِّقين»، حيث يقول في مقدِّمةِ هذه الدِّراسةِ: «على أنَّنا رأينا بعضَ العُلماءِ أو النُّساخِ أو التَّلاميذِ البرَرةِ بأساتيذِهم على مدى العُصورِ ربَّما يقومون في كثيرٍ من الأحيانِ بتصحيحِ ما يَقعُ في بعضِ الكُتبِ -ولاسيما كُتب العلماء المشهورين بالجودة والإتقانِ- من أخطاء؛ اعتزازًا منهم بهم، وإكبارًا لهم من أن يقعوا في الخطأِ الكثيرِ أو القليلِ... وهذه المسألةُ قلَّما تنبَّه إليها المحقِّقون الكبارُ، فلم يُعيروها عنايةً وتدبُّرًا وخفِيَت على كثيرٍ منهم»[٦]، ومثَّل على ذلك بثلاثةِ أمثلةٍ من عيونِ تراثِنا الإسلاميِّ.

ثُمَّ إنَّنا قد وقَفنا على بعضِ الحواشي المنسوبةِ للعلَّامةِ محمد الأميرِ الكبير (ت: ١٢٣٢هـ) في بعضِ النُّسَخِ معتمدةً على النَّصِّ المعدَّلِ، فيحتمل أن يكونَ هذا التَّغييرُ قد تمَّ بواسطةِ الأميرِ أو قام به أحدٌ ممَّن سبقَه، ثُمَّ اعتمدَه الأميرُ وسار عليه النُّساخُ والـطُّلابُ بعد ذلك، وممَّا يقوِّي هذا الاحتمالَ أنَّ النُّسخَ التي جاء فيها شيءٌ من حواشي الأميرِ تَنتَسِبُ كلُّها إلى النُّسخِ المعدَّلةِ، لكن لم يتأكَّد لنا شيءٌ من ذلك؛ لأننا لم نقِف على نسخة الأمير التي وضع عليها حواشيه لهذا الكتابِ، ولم نَقِف كذلك على نسخةٍ من النُّسخِ التي اعتمدَت نَقلَ هذه الحواشي كاملةً، بل كلُّ ما توفَّر لنا إنما هو بعضٌ من الحواشي المنقولةِ في بعضِ النُّسخِ هنا وهناك، سواءٌ كثُرَت هذه الحواشي أو قلَّت.

وبالتالي؛ فإنَّه قد نتج عن هذا الفحصِ المتأنِّي للنُّسَخِ الخطيَّةِ لنصِّ البليديِّ: أنَّ ظهورَ نسَخٍ معدَّلةٍ للنصِّ لم يكن بأمرِ البليديِّ ولا بعِلمِه، ولم يكن أيضًا بفعلِ النُّساخِ، بل كان بواسطةِ من جاء بعد البليديِّ، سواء كان العلَّامةُ الأميرُ، أو مَن سبقَه ثُمَّ اعتمدَه الأميرُ.

ولذا فإنَّ قراءةَ النَّصِّ ستكونُ معتمدةً اعتمادًا كليًّا على النُّسَخِ الأصليَّةِ للكتابِ لا النُّسَخِ المعدَّلةِ، فإنَّ نسبتَها إلى البُلَيديِّ – والحالُ هذه- هي لا شكَّ نسبةٌ مشكلةٌ.

ثانيًا: اختلاف النُّسَخ في حواشي الرِّسالةِ:

كُلُّ ما ذكرناه سابقًا إنَّما هو متعلِّقٌ بالنصِّ نفسِه، أما حواشي النَّصِّ، فقد اختلفت فيها النُّسخُ اختلافًا كبيرًا، وذلك لأنَّه قد تواردَ على تحشيةِ هذه الرِّسالةِ ثلاثةُ أعلامٍ من الأزهريين –كما أسلفنا-، وهم العلَّامةُ محمد بن عرفة الدُّسوقي (ت: ١٢٣٠هـ) والعلَّامةُ محمد الأمير الكبير (ت: ١٢٣٢هـ) والعلَّامة حسن العطَّار (ت: ١٢٥٠هـ)، وذلك بخلافِ الحواشي التي وضَعَها المؤلِّف بنفسِه على نسختِه من الكتابِ، والتي تناقلَها تلاميذُه بعد ذلك، والاختلاف بين نُسخِ الكتابِ في إثباتِ هذه الحواشي تجدُه على النَّحوِ التَّالي:

١. النسخُ التي جاءت بدونِ حواشٍ، أو حواشيها نادرةٌ جدًّا بحيث لا تزيدُ على ثلاثِ حواشٍ تقريبًا في الكتابِ كلِّه، وذلك كنسختي جامعةِ الملك سعود (٨٢٦٢) و(٤٠٠٥)، ونسخة دار الكتب التونسية (٣٦٣٧)، ونسخة دار الكتب المصرية (٢٥١ حكمة)، ونسخ الأزهريـة: (١٠٥)، و(٤٨٤٤١)، و(٩٦٩١٤) و(٠٥٧٢٤)، و(٧٧٧٨٤)، و(١٠٩٩٢١)، و(٤١٦٠٣١)، و(٥٢٤٧٥١).

٢. النُّسخُ التي جاءت بحواشٍ مختلفةٍ، سواء نُسِبَت هذه الحواشي لبعضِ العلماءِ، كالأميرِ والدُّسوقيِّ والعطَّار، أو لم تُنسَب، كنسختَي جامعة الإمام (٩٤٤١)، و(٥٣١٣)، ونسخة مكتبةِ مكةَ (٣١ منطق)، ونُسخُ مكتبةِ الأوقافِ المصرية (١/٤٤٨)، و(٣/٤٤٨)، و(٦/١٤١٣) و٩٩٢٣ ونسخةُ دارِ الكتبِ المصريَّةِ (٥٢/حكمة)، ونسخُ الأزهريَّةِ: (٣٨٨٨٢)، و(٢٠٧١٤)، و(٤٠٤٦٦)، و(٥٠٤٦٦)، و(٨٤٣١٩)، و(٠٠٥٣٣١)، وبعضُ هذه النُّسخِ قد ذكر شيئًا من حواشي المؤلِّفِ، لكن لا على وجهِ الجَمعِ.

٣. النُّسخُ التي جمعت حواشي المؤلِّفِ أو أكثرَها، سواء ضَمَّت إليها حواشي غيرِه أو اقتصرت على حواشي المؤلِّفِ، وهي أقلُّ النُّسَخِ عددًا، كنسخةِ خليل المغربيِّ، دار الكتب المصرية (١٠٠٥ ج)، و(٢٣١ حكمة وفلسفة)، والأزهرية (٩٩٤٣٣١)، و(٢٠٥٣٣١).

وبعضُ هذه الحواشي قد دخلت في أصلِ النَّصِّ، كحاشيةِ: «أقول: وفي «اللقطةِ»(٧) أنه ينقسم ...» إلى آخره، التي تقع قبلَ خاتمةِ الرِّسالةِ، حيث إنَّها جاءت كحاشيةٍ في نُسخةِ الشَّيخِ خليل، التي نقلها من حواشي المؤلِّفِ في مُبيَّضتِه، ثُمَّ نَجِدُها في أصلِ النَّصِّ في نسخٍ أخرى، حتى في بعضِ النُّسخِ التي كُتِبت في حياةِ المؤلِّفِ (كما في نسخة الأزهرية ١٤٨٩٥)، وكذلك نُسخةُ العطَّارِ، الذي عاب على المصنِّفِ قوله: «أقول» بعد قولِه: «وللمتكلِّمين معهم مؤاخذات»، حيث ذكر أنَّه «لا معنى لها»(٨)، ولا يُعلم –على وجهِ التَّأكيدِ- ما إذا كانت هذه الحواشي قد دخلت في أصلِ النَّصِّ بعلمِ المؤلِّف أم بفعلِ غيرِه، لكن إذا كانت مبيضةُ المؤلِّفِ قد أثبتَتها حاشيةً، فالرَّاجحُ وضعُها كحاشيةٍ دون أن تكون جزءًا من أصل النِّصِّ.

وتعد نسخةِ العلَّامةِ خليل تلميذ المؤلِّفِ، هي النسخةُ الأهمُّ من حيث حواشيها؛ حيث إنَّه قد نقل حواشي المؤلِّفِ من خطِّهِ، واستدركنا عليه ما فاته منها من بعضِ النُّسخِ الأخرى التي اهتمَّت بنقلِ حواشي المؤلِّفِ.

نتائجُ البحثِ:

توصَّل البحثُ إلى أنَّ نصَّ الكتاب قد مرَّ بثلاث مراحلَ تداوليَّةٍ رئيسةٍ:

١. مرحلة النَّصِّ الأصلي الذي يمثِّل صورة النصِّ الأولى، وقد حفظته نسخٌ متقدِّمة كُتبت في حياة المؤلِّف أو قريبة منها، أهمها نسخة العلامة خليل المغربي.

٢. مرحلة النَّصِّ المعدَّل، حيث أُدخلت تعديلات تحريرية هدفت إلى إصلاح مواضع استشكلها بعضُ أهل العِلمِ، وهي تعديلات لم تصدر عن المؤلِّف ولا بِعلمِه.

٣. مرحلة النَّصِّ الملفَّق، النَّاتج عن مقابلة النُّسخ

المختلفة واختيار ما رآه النُّساخ أو الطلَّاب أقرب إلى الصواب.

وأثبت البحث –بناءً على الأدلة التَّاريخيَّة والنَّصيَّة– أنَّ هذه التعديلات لم تكن من صنيع البليديِّ، ولا من عادة النُّساخ، بل يُرجَّح أن يكون مصدرها أحد العلماء أو تلامذة المدرسة الأزهرية في أواخر القرن الثاني عشر أو أوائل الثالث عشر الهجري، وقد تبنَّاها اللاحقون حتى غلبت على النص في تداوله.

كما كشف البحث عن تبايُنٍ كبيرٍ في حواشي النسخ الخطيَّة، نتيجة لتعدُّد المحشِّين عليه (المؤلِّف، الدسوقي، والأمير، والعطار)، ودخول بعض الحواشي في متن النَّصِّ في عددٍ من النُّسخ، مما أوجب ضرورة الفصل المنهجيِّ بين نصِّ المؤلفِ وحواشيه وحواشي العلماء اللاحقين.

ويخلص البحث إلى أنَّ النِّسبةَ الصَّحيحة للنص تقتضي اعتماد النسخ الأصليَّة غير المعدَّلة أساسًا للتحقيق، دون الاعتماد على النُّصوص التي نتجت عن التدريس والتداول والقراءات المتتابعة للنصِّ، مؤكِّدًا أن هذه الحالة تمثِّل نموذجًا دقيقًا لإشكاليَّة «إصلاح النصوص بعد مؤلِّفيها» في التراث العربي الإسلامي.

ملحق

رقم (١)

يمثل الجدول التالي النُّسَخُ التي تمَّ النَّظرُ فيها وبحثُها:

المكتبة	رقم النُّسخة	تاريخ نسخها	عدد لوحاتها
المكتبة الأزهرية (مصر)	٢٩٠٥ منطق/ ١٢٩٩٠١ طنطا	١٢٨٤هـ	١٢ لوحة
	٣٠٥٨ منطق/ ١٣٣٤٩٩ دمياط		١٥ لوحة
	٣٠٥٩ منطق/ ١٣٣٥٠٠ دمياط، رسالة رقم: ١		١٨ لوحة
	٣٠٦١ منطق/ ١٣٣٥٠٢ دمياط، رسالة رقم: ١		١٤ لوحة
	٨٠٢٩ توحيد/ ١٥٧٤٢٥، رسالة رقم: ٤	١٢٦٦هـ	١٢ لوحة
	٩٤ فلسفة/ ٢٨٨٨٣ السقا	١٢٣٤هـ	١٦ لوحة
	٢٧٦ فلسفة/ ٤١٧٠٢ زكي		١٥ لوحة
	٢٧٨ فلسفة/ ٤١٩٦٩ الجوهري		١٩ لوحة
	٢٨٣ فلسفة/ ٤٢٧٥٠ العروسي	١٢٣٨هـ	١٩ لوحة
	٥١٦ فلسفة/ ٤٨٧٧٧ الأمبابي		١٢ لوحة
	٧٧٤ فلسفة/ ٥٩٨٤١	١١٤٧هـ	١٤ لوحة
	٩٣٥ فلسفة/ ٦٦٤٠٤ الأحناف		١٦ لوحة
	٤٠٠ مجاميع/ ١٤٤٨٤، رسالة رقم: ١		١٧ لوحة
	١٣٨١ فلسفة ١٣٠٦١٤ طنطا	١٢٦٩هـ	١٤ لوحة
	١٨ مجاميع/ ٥٠١، رسالة رقم: ٣		٢٠ لوحة
	٢١٤ مجاميع/ ٥٤٤٣، رسالة رقم: ١٣	١١٦٩هـ (بخط السحيمي)	٨ لوحات

دار الكتب المصرية (مصر)	٦٣٤ مجاميع (رقم الميكروفيلم: ٥١٦٧) الرقم العام: ١٨١٢٨١	نسخت في حياة المؤلف وعليها هوامش بخط الشيخ خليل المغربي (ت. ١١٧٧هـ)	١٢ لوحة
	٥٠٠١ ج عربي (رقم الميكروفيلم: ٢٢٨٩٩) الرقم العام: ٢١٧٨٦١	١٢٠٦هـ	٢٦ لوحة
	٤٣ حكمة وفلسفة عربي (رقم الميكروفيلم: ٤٤٧٠٦) الرقم العام: ١٥٦٦٧٨		١٨ لوحة
	٢٥ حكمة وفلسفة عربي (رقم الميكروفيلم: ٤٤٩٤٠) الرقم العام: ١٥٦٥٣١		٣٦ لوحة
	١٥٢ حكمة وفلسفة عربي (رقم الميكروفيلم: ٤٤٦٣٣) الرقم العام: ١٥٦٩٧١		١٥ لوحة
	٢٢١٤و عربي (رقم الميكروفيلم: ٢٢٨٩٩) الرقم العام: ٢٢٦٣٢١	١٢٦٦هـ	١٨ لوحة
مكتبة الأوقاف (السيدة زينب/ مصر)	٣٢٩٩	١٢٢١هـ	١٤ لوحة
	٣١٤١ رسالة رقم: ٦		٢٠ لوحة
	٨٤٤ رسالة رقم: ١	١٢١٠هـ	١٦ لوحة
	٨٤٤ رسالة رقم: ٣		٢٠ لوحة
المكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود (المملكة العربية السعودية)	١٤٤٩	١٢٧٧هـ	١٨ لوحة
	٣١٣٥		١٣ لوحة
جامعة الملك سعود (المملكة العربية السعودية)	٢٦٢٨	١٢٦١هـ	٢٠ لوحة
	٥٠٠٤		٢٠ لوحة

مكتبة مكة المكرمة (المملكة العربية السعودية)	١٣ منطق		٢٦ لوحة
دار الكتب التونسية (تونس)	٧٣٦٣ (رسالة رقم: ٢) من لوحة ٥٨ إلى لوحة ٦٩		١٢ لوحة

الهوامش

١. انظر ملحق رقم (١).

٢. وهو قوله: «قال سيِّدُنا ومَولانا الشَّيخُ الإمَامُ العالِمُ العلاَّمَةُ، مُستخرِجُ الفرائِدِ من بِحارِ الفوائِدِ، ومُشيِّدُ مَقُولاتِ الخرائِدِ باقتِنَاصِ الأوابِدِ، مُغنِي أولي المعقُولاتِ عن طلَبِ الزِّياداتِ، بما مهَّدَ لِتمامِ المقولاتِ، مع توضيحٍ وتسهيلٍ على المفكِّراتِ، الآتي اسمُه في التَّرجَماتِ، لا زالَ عَلَمُ عِلمِه مَعقُولاً أبدًا، وثناءُ مَجدِهِ ناطِقًا بِحَطِّ العِدَا، ولا برِحَت سَحائِبُ جُودِه مَاطِرَة، وبحارُ فيضِ نوالِهِ غامِرَة، ورِباعُ فضلِه بالإفادَةِ عامِرَة، جمعَ اللهُ لنا وله بين خَيرَيِ الدُّنيا والآخِرَة».

٣. ونصُّ هذه الخطبة: «لكَ الحمدُ يا مَن شرحَ صُدُورَنا لتجريدِ الكلامِ في مَقُولاتِ التَّمامِ، ويسَّرَ أمورَنا في دَقَائِقِ العُلُومِ وبدائِعِ الأحكامِ، ذلك فضلٌ منك تُؤتيهِ مَن تشاءُ من عبادِكَ الكِرام، يا مَن تحيَّرَ في صَمدِيَّتِه نهايَةُ العُقُولِ والأفهامِ، وتولَّهَ في أسرارِ أُلُوهيَّتِه دِرايَةُ الفُحُولِ والأوهَامِ، وتحدَّثَ بعزِّ جبُرُوتِه الأشباهُ والأجرَامُ، صلِّ على نبيِّنَا محمَّدٍ النَّاطقِ بفصيحِ الكلامِ، وعلى آلِهِ الذين هم نُجُومُ الهُدَى ومَصابيحُ الظَّلامِ».

٤. اختلفت النسخ في إثبات الاستعانة وحذفها اختلافًا كبيرًا أيضًا، حيث نوَّعت النسخ المختلفة في هذه العبارة بين «وبه نستعين»، و«وبه الإعانة»، و«وبه ثقتي»، أو حذفها أصلاً.

٥. حيث إنَّ كثيرًا من هذه النسخ نُسَخٌ مدرسيَّةٌ، كانت بين أيدي الطلاب في زوايا العلم وأروِقَتِه المختلفة، وهو ما يحتمِلُ كذلك أن يكون هذا الإصلاح بأمر أحدٍ من مشايخهم وأساتذتهم.

٦. «تحقيق النُّصوصِ بين أخطاءِ المؤلِّفين وإصلاح الرواة والنساخ والمحققين»: ٩.

٧. انظر: «فتح الرحمن شرح لقطة العجلان»: ٦٤، ٦٥.

٨ «الحاشية الكبرى على مقولات السَّيِّد البليدي»: ٢٩٢.

المصادر والمراجع

تعدُّ المصادرُ الرئيسةُ لهذا البحث هي النُّسَخ الخطِّيَّة المذكورة في الملحق، إضافةً إلى ذلك فقد رجعنا إلى ما يلي:

١. «**تحقيق النصوص بين أخطاء المؤلِّفين وإصلاح الرُّواة والنُّساخ والمحققين**» لبشَّار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس،

٢٠٠٩م.

٢. «**الحاشية الكبرى على مقولات السَّيِّد البُليدي**» لحسن بن محمد العطَّار (ت: ١٢٥٠هـ)، ومعه «حاشيتاه الكبرى والصُّغرى على شرح مقولات العلَّامة السِّجاعي» وعلى هامشه «نيل السَّعادات في علم المقولات» لأبي عبد الله محمد بن محمد البُلَيدي (ت: ١١٧٦هـ/١٧٦٣م) المطبعة الخيرية: ١٣٢٩هـ/١٩١١م.

٣. «**فتح الرحمن بشرح لقطة العجلان وبلة الظمآن**» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت:٩٢٦هـ) بتصحيح: إبراهيم الطاهري الحنفي، بالمطبعة الأزهرية، بمصر، ١٣٢٩هـ.

مناقب أبي خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي الصفاقسي

تأليف:

محمود بن محمد بن الحاج محمد السيالة الصفاقسي

(١٢٤ - ٢١٠ هـ)

دراسة وتحقيق:

د. أنيس عبد الله بن أحمد

تونس

المقدمة

بسم الله ولا استعانة إلا به والحمد لله ولا ثناء إلا عليه وصلى الله وسلم على سيدنا محمد.

الموضوع: تحقيق نص مخطوط في نسخة فريدة هي مسودة المؤلف مكتوب منذ قرنين عن مناقب أحد تلاميذ مالك هو عنبسة بن خارجة الغافقي ويرافق التحقيقَ دراسةٌ للسيرة الشخصية والعلمية لهذا العلم، وكذا لمؤلف النص: محمود بن محمد السيالة الصفاقسي، ودراسة لمنهجه في هذه الرسالة ولمضمونها المعرفي.

الأهمية: يعدّ إظهار أيّ وثيقة مخطوطة إلى النور، ولو كانت من عصر متأخر من القرن الثامن عشر، منذ قرنين ونيف عملاً مفيدًا. وتتأكد الفائدة إذا كانت سبيلاً وحيدًا للتعريف بمؤلف مغمور، لم يترجم له معاصروه ومن تلاهم من المؤرخين. وهذه هي حالة محمود السيالة الذي لم يُعرف إلا منذ ستة عقود. ولا يزال تراثه بين الرفوف، إذ لم يحقِّق له الباحثون من مخطوطاته العديدة إلا نصًا واحدًا قبل هذه الدراسة، منذ بضع وثلاثين سنة. هذا فيما يتعلق بالمؤلف. وأمّا فيما يخصّ صاحب المناقب، وهو عنبسة، فتُلخّص أهمية دراسته فيما قاله أبو نصر بشر الحافي (٢٢٧ه/ ٨٤م): "من زينة الدنيا أن يقول الرجل: حدثنا مالك". (انظر ترتيب المدارك: ٣٥/٢). وعنبسة رحمه الله كان يقول: "حدثنا مالك".

أسباب الاختيار: سببان كانا وراء اختيار هذا النص المخطوط: فأمّا السبب الموضوعي فيرجع إلى فوائد إخراج النصوص المخطوطة ونشرها لعموم القرّاء من جهة أولى وإلى خصوص إخراج تراث محمود السيالة الذي يعدّ بالعشرات في فنون مختلفة من المعرفة من جهة أخرى، ذلك أنّ للرجل رسائل إلى أهل السلطة والعلم، وعلاقات مع أعيان من بلده ومن العاصمة وتراث موسوعي في الشرعيات والتصوف والأدب والمناقب والموسيقى والطّبّ والفلك وأسرار الحروف. فيها تركيز وتعريج وصفًا ونقدًا للحياة العلمية والأدبية والسياسية والقضائية والاجتماعية، ما يجعله جديرًا أن يدرس ليطلع الناس على تراثه، ومنها هذا النص المخطوط. وأمّا السبب الذاتي فهو هوى الانتماء الوطني والمحلّي، ذلك أن صاحب المناقب صفاقسي، وصاحب المخطوط صفاقسي، وصاحب الدراسة والتحقيق صفاقسي.

بنية البحث: قام البحث على قسمين: قسم لدراسة السيرتين الشخصية والعلمية لكل من مؤلف المخطوط وصاحب المناقب، وقسم لدراسة النص وإخراجه. وفي كل قسم فرعان. فأما القسم الأول ففرع لدراسة صاحب المناقب: عنبسة، وآخر لصاحب المخطوط: محمود السيالة. وأما فروع القسم الثاني فالأول خُصّص لدراسة منهج المؤلف والمادة المعرفية للنص المخطوط، والثاني لوصف النص المخطوط وإخراجه.

القسم الأول: دراسة للمؤلف (السيالة) ولصاحب المناقب (عنبسة)

الفرع الأول: التعريف بأبي خارجة عنبسة الغافقي

أولا: السيرة الشخصية

١ـ اسمه: هو أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي المالكي الصفاقسي. ويكنى أيضا أبا خالد[١]. والعوام ينادونه سيدي أحمد عنبسة ويختصرونه ‹›عبسة››. وقد أُثبت اسم أحمد عنبسة في نقيشة أعمال الترميم على جدار القبلة على يسار المحراب في غرفة الدفن والمؤرخة بسنة ١١٣٦ه/١٧٢٣-١٧٢٤م، ولكنه لا يذكر في جدارية التعريف به في مقامه.

وفي هذا النص المخطوط موضوع التحقيق كنّاه محمود السيالة بأبي العباس واسمه أحمد[٢]، لأنّ أبا العباس كنية من يحمل اسم أحمد. وليس ذلك في المصادر، وإنما الثابت أنه أبو خارجة (وقليل منهم يقول: أبو خالد). وسبب تحريف الاسم إما أن يكون لقبا شرفيا اعتزازا بالاسم النبوي الشريف، وإما أن يكون من الخلط بينه وبين حافظه ومريده أحمد الحنفي التركي الذي جاء زائرا للمقام فشاهد كراماته وأقام هناك في خدمة ضريحه حتى توفي، وبنى قبة الشيخ ودفن حذوه، فأخذ اسم أحمد منه[٣].

٢ـ أصله ونسبه: أصول عنبسة عربية، فهو من أبناء الجند العرب الفاتحين الذين استقروا في ناحية من مدينة صفاقس الساحلية في جنوبها الغربي سميت باسم غافق نسبة للقبيلة العربية [٤].

٣ـ ولادته: لم تذكر المصادر ولادته، غير أنها تستنتج من تعيين وفاته وضبط سنه عند الوفاة التي عيّنت بست وثمانين سنة، فتكون ولادته سنة ١٢٤ه/ ٧٤١م.

---

١. ترتيب المدارك، القاضي عياض بن موسى السبتي، وزارة الأوقاف المغربية، ط٢، ١٤٠٣ه/١٩٨٣م، ٣/ ٣١٧.

٢. مخطوط مناقب أبي خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي، محمود بن محمد بن الحاج محمد السيالة، دار الكتب الوطنية، تونس، رقم ١٩٢٦٩، [٢/و].

3. Saints de la région de sfax : des hommes et des monuments, Othman Ammar, Med Ali Editions, Sfax, 2017, p p. 30-31. [انظر مخطوط مناقب عنبسة: [3/ظ] و [6/و]

٤. وصف الرحالة والجغرافيون العرب غافقَ بأنها بلد معمور وناحية واسعة كثيرة القرى وأسواق على أيام الجمعة بحرية. انظر: المسالك والممالك، أبو عبيد البكري، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيت الحكمة والدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م، ٦٦٨/٢ وأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٤١١ه/١٩٩١م، ص٥٥- ٢٢٤) وغافق هي قبيلة يمانية من بطون قضاعة أو عكّ من الأزد وغافق هو بن العاصي بن عمرو بن دهمان بن الأزد بن غوث (الإنباه على قبائل الرواة، أبو عمر يوسف بن عبد البرّ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١٠٨ و١٣٨) دخلت مصر إبّان الفتح ثم انتشرت في بلاد المغرب فاستقر أهلها الفاتحون في هذا المكان الذي سمي نسبة إليهم. وذكر المالكي في رياض النفوس (٢٤٢/١) في خبر استسقاء أهل صفاقس وغافق بعنبسة بما يشير إلى أنها قرية قريبة من صفاقس ومن يونقة مقرّ رباط عنبسة حيث قال لهم: تأتون غدا ببناتكم وصبيانكم وبهائمكم...، ما جعل الأستاذ أحمد الباهي يفترض أنها المحطة التي تتوسط طريق عين الزيتونة – صفاقس وقد يوافق موقعها قصر المحرس. وتقع غافق في محيط يونقة الواقعة ٤٥ كم جنوب شرق صفاقس وهي مسافة تقطع في يوم واحد. وورثت مجال مدينة يونقة Iunci التي ظلت موجودة إلى نهاية العهد البيزنطي. تاريخ المحرس في العصر الوسيط، أحمد الباهي، دار صامد، صفاقس، ط١، ٢٠١٧، ص ٤٧-٤٨.

٤- وفاته: توفي في شهر ربيع الآخر من سنة ٢١٠ه عن ست وثمانين سنة[١]، الموافق له شهر جويلية– تموز ٨٢٥م، بشهادة ابنه. روى أبو سعيد بن يونس(٣٤٧ه/٩٥٨م) بسنده عن محمد بن سحنون(٢٥٦ه/٨٧٠م) قال: "سألت بعض ولد أبي خارجة عن موته فقال: مات في ربيع الآخر سنة عشر ومئتين"[٢]. وقال آخرون ومنهم السيالة بأنه توفي سنة ٢٢٠ه[٣].

وبخلاف ما تفيده المصادر، أو تسكت عنه، فإن بعض الباحثين -ومن دون توثيق قوله- يكتب سيرة مخالفة لعنبسة، فيذكر أنه ولد بمصر وتعلم هناك، ثم رحل إلى الحجاز، وبعد ذلك دخل إفريقية في تاريخ غير معلوم، ونزل بالقيروان، ثم استقر بحصن يونقة بجهة صفاقس حيث رابط حتى ساعة وفاته[٤].

ثانيا: السيرة العلمية

التحصيل العلمي والمرتبة العلمية

١- رحلته: رحل عنبسة إلى القيروان كعبة العلم في ربوع إفريقية، ثم قصد المشرق، فدخل مصر والعراق والحجاز، ولقي علماءها، وأخذ عنهم، وعاد إلى إفريقية بعلم جمّ.

٢- شيوخه: هو من تلاميذ الإمام مالك بن أنس(-١٧٩ه/٧٩٥م)، حضر مجلسه، وأخذ عنه العلم، وله سماع مدوّن عنه. ولا يُعرف من شيوخه قبل الرحلة المشرقية إلا: أبو يزيد عبد الملك بن أبي كريمة الأنصاري التونسي(-٢٠٤ه/٨١٩م)[٥]. وفي المشرق تتلمذ لثلة من الأئمة الكبار من طراز الإمام مالك، كما أخذ عن تلاميذه. وقد أحصى المالكي(بعد٤٥٣ه/١٠٦١م) والقاضي عياض(-٥٤٤ه/١١٤٩م) منهم: سفيان الثوري(-١٦١ه/٧٧٨م)[٦]، والليث بن سعد(-١٧٥ه)[٧]، والمغيرة بن عبد الرحمن

١. رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، تحقيق: البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٤ه/١٩٩٤م، ١/ ٢٤١.

٢. لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، عناية: عبد الفتاح أبو غدة وابنه سلمان، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٦/ ٢٣٩.

٣. ذيل على الميزان، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، تحقيق: صبحي السامرائي، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٧ه/١٩٨٧م، ص ٢٨٦ ونزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، محمود مقديش، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ٢/٢٤٣. وعنه ينقل محمود السيالة في مناقب عنبسة [٦/و].

٤. انظر كتاب: علماء ضاعوا في الوَلاية، محمد الحبيب السلامي، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، ٢٠١٧، ص ١٨ وما يليها. وعلاوة على عدم توثيق المعلومات في الهوامش والإحالات، فإنه ينسب معلومات إلى غير مصادرها، منها تلك الكرامات التي أضافها إلى طبقات علماء إفريقية، وليس عند أبي العرب شيء منها، وإنما هي في رياض النفوس وترتيب المدارك ونزهة الأنظار.

٥. رياض النفوس، ١/ ٣٢٤ وترجمته هناك.

٦. أبو عبد الله سفيان بن سعيد الثوري الكوفي، ولد سنة ٩٧هـ، تتلمذ لجعفر الصادق. ممن أخذ عنه الأوزاعي وأبو حنيفة ومالك وابن عيينة. ألّف كتاب الجامع. يلقب بأمير المؤمنين في الحديث. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م، ٧/ ٢٢٩- ٢٨٠.

٧. أبو الحارث الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي: عالم الديار المصرية، ولد سنة ٩٤هـ، ثقة ثبت رأس من رؤوس الفقه إلا أنّ تلاميذه لم يقوموا به كتلاميذ مالك. سمع ابن شهاب وعبد الرحمان بن القاسم وقتادة وعنه: ابن وهب وابن المبارك ويحي الليثي ويحي التميمي تلاميذ مالك. سير أعلام النبلاء، ٨/ ١٣٧-١٦٣.

المخزومي(-١٨٦ه/٨٠٢م)[١]، وعبد الله بن وهب المصري(-١٩٧ه/٨١٣م)[٢]، وسفيان بن عيينة(-١٩٨ه/٨١٥م)[٣]، ورِشدين بن سعد المهري(-١٨٨ه/٨٠٤م)[٤]، واليسع بن حميد، وسعيد بن عيسى[٥].

ولقي في رحلته القاضي أبا يوسف(-١٨٢ه/٧٩٨م)، صاحب أبي حنيفة(-١٥٠ه/٧٦٧م)، ولكنه لم يأخذ عنه لاعتماده على مالك. وكان قد تنبأ باختفاء كتب أبي حنيفة[٦]. رجع عنبسة بعد ذلك إلى بلده واستقر في رباط- حصن يونقة يزاول أنشطة التعليم والحراسة، وظل يتردد على القيروان والساحل وسوسة وغيرها من المدن والرباطات التونسية[٧].

٣- **تلاميذه والآخذون عنه**: بفضل تتلمذه لمالك وتلاميذه وأئمة آخرين وعودته بسماعات مدونة من المشرق، أقبل عليه طلبة العلم، من طبقته، ذكرت المصادر منهم البهلول، ومن طبقة تلاميذه. وآوى إليه جمعًا من مريديه في رباطه في نواحي صفاقس، يورثهم علمه ويشاركونه الرباط. وقد ذكر أبو العرب(-٣٣٣ه/٩٤٥م) وابن يونس أنّ غير واحد من أهل المغرب سمع من عنبسة[٨]. فأهمهم البهلول بن راشد الحجري الرعيني(-١٨٣ه/٧٩٩م): من الطبقة الأولى من أصحاب مالك بتصنيف عياض. أخذ عنه جامع سفيان الثوري الصغير في الرأي[٩]. وشاركه صاحبه أبو القاسم خالد بن يزيد الفارسي (-٢٢٨ه/٨٤٣م)[١٠] في سماعه جامع سفيان[١١]، وأبو زكريا يحي بن سليمان الخرّاز المشهور بالحفري(-٢٣٧ه/٨٥١م)[١٢]، وعون بن يوسف الخزاعي المحدث الفقيه(-٢٣٩ه/٨٥٣م)[١٣]، والإمام سحنون بن سعيد التنوخي(-٢٤٠ه/٨٥٤م)[١٤] الذي كان يجلّه ويحيل عليه عند السؤال ويظهر احترامًا

١. وهو من الطبقة الأولى من تلاميذ مالك، خرّج عنه البخاري، ووثقه يحي بن معين ترتيب المدارك، ٣/٢-٨.

٢. هو من الطبقة الوسطى من تلاميذ مالك ترتيب المدارك، ٣/٢٢٨-٢٤٣.

٣. أبو محمد سفيان بن عيينة الهلالي الكوفي ثم المكي. ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ. انتهى إليه علوّ الإسناد. سمع ابن شهاب والثوري وشعبة وأخذ عنه ابن المهدي وابن المديني والشافعي والحميدي. سير أعلام النبلاء، الذهبي، ٨/٤٥٥-٤٧٥.

٤. أبو الحجاج رِشدين بن سعد المهري محدث مصري ضعفه كل النقاد. ولد سنة ١١٠ه وتوفي سنة ١٨٨ه. تهذيب التهذيب، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٥ه، ٣/٢٧٧-٢٧٩.

٥. هذان المذكوران أخيرًا لم أقف على ترجمة لهما.

٦. رياض النفوس، ١/٢٤٤.

٧. انظر أخبار رحلاته وتنقلاته في رياض النفوس، ١/ ٢٤٣-٢٤٥.

٨. م ن، ١/ ٢٤١.

٩. طبقات علماء إفريقية وتونس، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، تحقيق: علي الشابي ونعيم اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢، دت، ص١٢٧ وترتيب المدارك، ٣/٨٧. والبهلول واحد من كبار إفريقية. ثقة يجمع بين العلم والعمل. تتلمذ لمالك وللثوري والليث. ترجمته في طبقات أبي العرب، ص ص ١٢٦-١٣٨ وفي رياض النفوس، ١/٢٠٠-٢١٤ وفي ترتيب المدارك، ٣/٨٧-١٠١.

١٠. المقفى الكبير، تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ٣/٧٨٤.

١١. طبقات أبي العرب، ص١٥١

١٢. فقيه محدث عالم بالفرائض والحساب. أخذ عن عبد الملك بن أبي كريمة وعبد الرحمان بن زياد بن أنعم وفي المشرق من ابن عيينة والفضيل بن عياض. روى عنه يحي بن عمر وخلق كثير من أهل القيروان. طبقات أبي العرب، ص١٧٤.

١٣. أبو محمد عون بن يوسف: ثقة مأمون. سمع من البهلول وابن غانم من بلده وتفقه بابن وهب. صلى عليه سحنون. طبقات أبي العرب، ص ١٨٨-١٩١ وعنه رياض النفوس، ١/٣٨٥-٣٨٧ وترتيب المدارك، ٤/٨٩-٩٢.

١٤. شيخ من شيوخ إفريقية من صليبة العرب أصله من الشام. قدم أبوه مع الجند. أخذ الفقهَ عن ابن القاسم وأشهب وغيرهما والحديثَ عن ابن وهب وابن عيينة وابن المهدي وأنس بن عياض ووكيع بن الجراح. ولد سنة ١٦٠ه وولي القضاء سنة ٢٣٤ه وهو ابن ٧٤ سنة وثبّت أركان المذهب وكان يدا على أهل الأهواء. طبقات أبي العرب، ص ١٨٤-١٨٧ وترتيب المدارك، ٤/٤٥-٨٨.

زائدًا له، وأبو داود أحمد بن موسى بن جرير العطار(-٢٧٣ه/٨٨٦م) وابنه[١]، وسعيد بن حسان البُرُلُّسي[٢]، وغانم بن سعيد[٣]، وعلي بن كثير[٤]، وعيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر[٥].

٤- مرتبته ومناقبه العلمية والأدبية: وثقه أبو العرب، قال كان ثقة مأمونًا[٦]. وسئل أحمد بن برد عن أبي خارجة فقال: "المثله يقال ثقة وهو رجل صالح"[٧]. ووصفه القاضي عياض بوصف جميل قال: "من أنفَسِهم"[٨]. وكان عنبسة محلّ إجلال العامة والعلماء ومقصدهم، يسألونه ويستفتونه. وكان الإمام سحنون بن سعيد يعرف قدره، ويحيل عليه، ويمتنع عن الجواب في حضرته، إجلالا له وثقة بما عنده من علم بالفقه والحديث واختلاف الرجال واتفاقهم[٩]. وصنّفه أبو العرب في طبقة المجتهدين في العبادة[١٠]. وجمع المالكي خصاله العلمية والعملية قائلا: "كان رجلا صالحًا مستجاب الدعوة عارفًا بالعربية والعلوم الشرعية وعبارة الرؤيا عالمًا باختلاف العلماء واتفاقهم وكان ممن ينطق بالحكمة»[١١]. فماهي أهم آثاره علما وعملا؟

ب- أثره العلمي والعملي

ثقافته ورواياته وكتبه التي أدخلها: لعنبسة روايات وأحاديث وسماعات مدونة عن شيوخه، وكتب يرويها عنهم.

- علمه بتاريخ الرجال: روى أبو العرب بسنده عن عنبسة بسنده إلى الصحابي أبي زمعة البلوي رضي الله عنه الذي كان ممن بايع تحت الشجرة وأنه لما حضرته الوفاة بإفريقية أمرهم أن يسوّوا قبره بالأرض[١٢].

- أثر يرويه في سماعه عن ابن أبي كريمة: "من آثر الدينار والدرهم على أخيه المسلم إذا اضطر

١. أبو داود هذا ثقة خيّر سمع ابن غانم وأسد بن الفرات ومعاوية الصمادحي ويحي بن سلام وهو من كبار تلامذة سحنون. طبقات علماء إفريقية، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ثعلبة الخشني، تحقيق: محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٣ه/١٩٩٣م، ص٢٨ وترتيب المدارك، ٤/ ٣٩٥-٣٩٧.

٢. نسبة إلى قرية البرلس المصرية على الساحل المتوسط. سمع أيضا من عيسى بن مسكين. قال أبو العرب: ما علمت إلا خيرًا. طبقات أبي العرب، ص٢٠٧.

٣. م ن، ص ٢٠٨.

٤. وثقه أبو العرب وقال روى عن علي بن زياد وابن أبي كريمة وأسد بن الفرات. طبقات أبي العرب، ص٢٠٩.

٥. سمع من ابن وهب، ألّف كتابا في فتوح إفريقية. قال أبو العرب: لم أسمع فيه بسوء. م ن، ص٢٠٦. ولم أظفر بوفاة هؤلاء الأربعة.

٦. م ن، ص ١٥٠ وذيل على الميزان، ص ٢٨٦.

٧. ترتيب المدارك، ٣/ ٣١٨.

٨. م ن ، ٣١٧/٣.

٩. رياض النفوس، ١/ ٢٤٤.

١٠. طبقات أبي العرب، ص ١٥٠.

١١. رياض النفوس، ٢٤١/١ و٢٤٥.

١٢. طبقات أبي العرب، ص ٧٦-٧٧. والصحابي أبو زمعة البلوي ممن شهد بيعة الرضوان وغزا إفريقية مع معاوية بن خديج غزوته الأولى واختلف في اسمه فقيل عبيد بن أرقم. الاستيعاب في أسماء الأصحاب، أبو عمر يوسف ابن عبد البر، تصحيح وتخريج: عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، ط١، ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م، ص٨٠٩ وتجريد أسماء الصحابة، شمس الدين الذهبي، دار المعرفة، بيروت، د ت، ٣٦٤/١ و١٦٨/٢ .

إليه لم يدخل حظيرة الفردوس››[1].

- رواياته الغرائب عن مالك مما ليس عند غيره: من ذلك: «سألت مالكًا عن الذي يعتمّ بالعمامة ولا يجعلها تحت حلقه فأنكرها وقال: ذلك من عمل النَّبَط، وليس من عمّة الناس إلا أن تكون قصيرة ولا تبلغ›› وقال مالك: «ومما يقوي العِمّة عندي أن الميت يعمم، والعمامة والاحتباء والانتعال من عمل العرب[2]. قال خارجة: هل كانت العمامة في الجاهلية؟ فقال: كانت العمامة في أول الإسلام ثم لم تزل حتى كان هؤلاء. ولقد كنت أعدّ في مجلس ربيعة(-١٣٦هـ/٧٥٦م)[3] واحدا وثلاثين ورجلا ما منهم رجل إلا وهو معتمّ. قال مالك: وأنا منهم. وقال: ولقد كنت أراهم يعتمّون حتى تطلع الثّريّا رضي الله عليهم أجمعين››[4].

- من حديثه: روى حديث مالك عن نافع(-١١٧هـ/٧٣٥م) عن ابن عمر(-٧٤هـ/٦٩٣م): «ما بعث الله نبيًا قبلي فاجتمع عليه أمر أمته إلا كان فيهم قدرية ومرجئة يسوسون أمر أمته من بعده ألا إن الله لعن القدرية والمرجئة على لسان اثنين وسبعين نبيا قال أبو خارجة زاد فيه غير مالك أولهم نوح وأخرهم محمد صلى الله عليه وسلم»[5]. روى الدارقطني(-٣٨٥هـ/٩٩٥م) في غرائب مالك هذا الحديث من وجهين وضعّفه، وقال هذا إسناد مغربي ورجاله مجهولون ولا يصحّ. وقال منكر وغريب جدًّا[6].

- كتابه المدوّن في الحديث: ذلك أن عنبسة له سماع مدوّن عن إمامه مالك والثوري[7].

- إدخال جامع سفيان الثوري: ولسفيان جوامع. والمعلوم أنّ علي بن زياد هو أول من أدخل جامع سفيان وموطأ مالك. فأي الجوامع أدخله عنبسة حتى يقصده البهلول بن راشد ليسمعه منه والحال أنه كان يروي الجامع عن شيخه ابن زياد.

يروي أبو العرب أخبارًا متضاربة. وكذا المؤرخون القدامى، فإنهم لم يعينوا هذا الجامع[8]، الأمر الذي أوقع الباحثين في الاضطراب[9]. ذلك أن أبا العرب يذكر لسفيان الثوري الجامع الكبير والأوسط

١. رياض النفوس، ٣٢٤/١.

٢. عمدة القاري، بدر الدين العيني، إدارة الطباعة المنيرية (تصوير)، دار الفكر، دت، ٣٠٧/٢١.

٣. ربيعة بن أبي عبد الرحمن: عالم المدينة المشهور بربيعة الرأي. روى عن أنس بن مالك سعيد بن المسيب وعطاء بن يسار وروى عنه الأوزاعي وابن المبارك والسفيانان والليث بن سعد وبه تفقه مالك. سير أعلام النبلاء، ٩٠/٦-٩٦.

٤. رياض النفوس، ٢٤٧/١. والأثر مختصر في ترتيب المدارك، ٣١٨/٣ وسير أعلام النبلاء، ٩٦/٦ والتوضيح شرح الجامع الصحيح، سراج الدين أبو حفص عمر ابن علي ‹›ابن الملقن››، تحقيق: لجنة من دار الفلاح، وزارة الأوقاف، قطر، ط١، ٢٠٠٨م، ٦٢١/٢٧.

٥. رياض النفوس، ١/ ٢٤٢. ورد الحديث بألفاظ متقاربة عن أبي بكر وعلي ومعاذ بن جبل وأبي هريرة وابن مسعود وابن عمر بطرق كثيرة كلها لا يصحّ منها شيء. انظر العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، أبو الفرج عبد الرحمان ابن الجوزي، ضبط: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، باب ذكر القدر والقدرية، ١/ ١٥٠-١٥١-١٥٦ والذهبي في سير أعلام النبلاء، في ترجمة سويد بن سعيد، ٤١٨/١١.

٦. لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، ٢٣٨/٦ و٤٧٤/٨-٤٧٥ وذيل على الميزان، ص ٧٨-٧٩.

٧. طبقات أبي العرب، ص١٥٠.

٨. رياض النفوس، ٢٣٤/١ وترتيب المدارك ، ٨٠/٣.

٩. ذكر حسن حسني عبد الوهاب أن عنبسة أول من أدخل هذا الجامع إلى إفريقية. واستدرك عليه المراجعان محمد العروسي المطوي والبشير البكوش بأنّ المنصوص على أولويته هو علي بن زياد وليس عنبسة وقد أثبت ذلك أبو سعيد بن يونس كما ذكر المالكي في الرياض في

وكلاهما في الآثار. قال أبو العرب في ترجمة البهلول أنه روى عن سفيان جامعه الكبير عن علي بن زياد[١]. وزاد في موضع ترجمة علي بن زياد جامعه الأوسط. قال: روى البهلول عن علي بن زياد جامع سفيان الكثير الآثار. وقد روى عن سفيان جامعا له أوسطا، آثار كله. ولم أعلمه حمل عنه جامعه في الرأي[٢]. فيكون تأويل خبر قصد البهلول بن راشد عنبسة ليسمع منه جامعه أنه الجامع في الرأي. روى أبو العرب في طبقاته: حدثني محمد بن خالد بن يزيد عن أبيه قال: قال لنا البهلول بن راشد: اذهبوا بنا إلى أبي خارجة، فإنه بلغني أنه جاء مع سفيان لنسمع منه[٣].

٢- **مرابطة أبي خارجة عنبسة**: كثرت في إفريقية القلاع والمباني المحصنة المسماة حصونًا ومحارس ورباطات كما ذكر ابن خلدون(-٨٠٨هـ/١٤٠٦م) في القرن ٣هـ/٩م في تأريخه لعهد أبي إبراهيم بن الأغلب (٢٤٢-٢٤٩هـ/ ٨٥٦-٨٦٣م) حيث وضع برنامجًا كبيرًا؛ لتشييد الحصون بالحجارة والكلس وأبواب الحديد[٤]، وقامت على الساحل من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقد كان بعضها مشيدًا منذ القديم قبل المسلمين فأعيدت عماراته ووقع تجديده وأحدثت إنشاءات أخرى بقرارات محلية أو مركزية بأمر من عاصمة الخلافة بغداد؛ لحماية السواحل من البيزنطيين. وعمّر هذه المقرات علماء وعبّاد انقطعوا للعبادة والحراسة من بينهم عنبسة، حتى سمّي قصر زياد (الواقع ٥ كم جنوبي محرس اللوزة في الناحية الشمالية لمدينة صفاقس) بدار مالك؛ لكثرة من يتردد عليه من العلماء[٥]. وتفيد المصادر بأن عنبسة المرابط في حصن يونقا-يونقة كان على رأس قائمة تضم ستة وسبعين مرابطًا، وهو من النصف الذين أقاموا في الرباط حتى ماتوا[٦].

ترجمة علي بن زياد، ٢٣٤/١ وعياض في المدارك، ٨٠/٣. انظر: كتاب العمر، حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وإكمال البشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، بيت الحكمة، قرطاج، دار الغرب، ط١، ١٩٩٠، ٢٤٩/١ و٢٥١. وقد يكون المرحوم عبد الوهاب يقصد جامعه في الرأي. وكذا الأستاذ حسين شواط في: مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط١، ١٤١١هـ، ٥٨٩/٢. وفيها وقع الباحث في اضطراب. فهو أحيانا يعيّن جامع الثوري بأنه الكبير والأوسط كما في الموضع المذكور في ترجمته لسحنون الذي سمع الجامع الكبير والأوسط من شيخيه علي بن زياد وعنبسة. وأحيانا يقول إنه الجامع الصغير في موضعين متتالين: ج ٢/ ص٦٧٥ و٦٧٦ ويضيف أنه سمع غير ذلك من حديثه وأحال على رياض النفوس(٢٤١/١) وليس ذلك في الرياض لأن المالكي لم يعيّن الجامع. وفي الموضع عينه من الدراسة (٦٧٥/٢) قال الأستاذ شواط إن عنبسة سمع من سفيان بن عيينة وهذا صحيح ولكنه أخطأ عندما قال بأنه سمع وكتب عنه؛ فقد خلط بينه وبين مالك، وأحال على الديباج المذهب وليس ذلك في الديباج ولا الرياض ولا المدارك وهي المصادر التي ينقل عنها ابن فرحون .

١. طبقات أبي العرب، ص١٢٦- ١٢٧. انظر أيضا: فهرس ابن خير، أبو بكر محمد بن خير الأموي الاشبيلي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤١٠هـ، ١٦٢/١.

٢. طبقات أبي العرب، ص ٢٢٠.

٣. م ن، ص١٥١.

٤. العبر وديوان المبتدأ والخبر: تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، عناية: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ٢٥٦/٤.

٥. رحلة أبي محمد عبد الله بن محمد التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١م ، ص ٦٧ ونزهة الأنظار في ترجمة أبي إسحاق الجبنياني، ٢٥١/٢.

٦. الرباط ومجتمع المرابطين بإفريقية إلى نهاية القرن ٣هج، رياض المرابط، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس، ١٩٨٨، ص ٢١ و٨٨. وفي هذه الدراسة أعدّ الباحث قائمة في الرباطات المنتشرة على جهات البلاد كلها وتاريخ إحداثها: ص ٢٥ إلى ص ٥٢، كما أعدّ قائمة في المرابطين ومدة الرباط نوع رباطهم هل هو متواصل أم متقطع، وعلى رأس القائمة كان عنبسة: ص ٦٨ إلى ص ٨٦.

الفرع الثاني: التعريف بالمؤلف

أولاً: السيرة الشخصية: أول من ترجم له وعرّف به بلديّه محمد محفوظ(-١٩٨٨م)[١] في مجلة الفكر منذ ستة عقود[٢]، وفي ج٣ من تراجم المؤلفين التونسيين، أكثرها وصف لمؤلفاته المخطوطة، وفيها قليل جدًا من المعلومات عن حياته؛ لأنه لم يعثر على من ترجم له من معاصريه[٣]. وكل ما حصّله من أخباره إنّما هو مما فهمه أو ذكره السيالة نفسه في مخطوطاته التي ظلت محفوظة في المكتبة النورية ومتحف دار الجلولي بصفاقس حتى انتقلت إلى رصيد دار الكتب الوطنية بتونس بتاريخ ٩ جوان ١٩٧٠. وعن محفوظ نقل من كتب عن السيالة من غير التونسيين: خير الدين الزركلي(-١٩٧٦م) بإيجاز شديد في ج٧ من الأعلام (ص ١٨٤)، ومن التونسيين، من أبناء صفاقس خاصة، ومن غيرهم من الذين اهتموا بالتأريخ للموسيقى ومن أبرزهم: الأستاذ مصطفى علولو في تحقيقه لنصه المخطوط ‹‹قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء›› في دراسته الجامعية[٤]، والأستاذ محمود قطاط في ثلاثة آثار: مقاله ‹‹من المخطوطات الموسيقية›› الصادر في مجلة الفكر، العدد ٦، السنة ٣١، مارس ١٩٨٦، ومقاله ‹‹نظرية الإيقاع الموسيقي عند العرب›› الصادر في مجلة الحياة الثقافية في عددها ٢٢-٣٢ سبتمبر- أكتوبر ١٩٨٢، وكتابه بالفرنسية ‹‹الموسيقى الكلاسيكية بالمغرب العربي›› المنشور في باريس سنة ١٩٨٠. وأما الأستاذ أبو بكر عبد الكافي(-١٩٨٦م)[٥] فقد ترجم له في الجزء ٣ من كتاب تاريخ صفاقس المخصص للأعلام والصادر سنة ١٩٨٧ في تاريخ غير بعيد عن تاريخ صدور الجزء الثالث تراجم المؤلفين التونسيين لمحفوظ سنة ١٩٨٤ وتكلّم بلهجة يفهم منها أنه لم يكن ناقلا عنه بل كان مطلعا بنفسه على مخطوطات محمود السيالة ومنها أرّخ له[٦].

١- اسمه: أتى بسلسلة نسبه مختصرة في بعض مؤلفاته وكاملة في بعضها الآخر. بل إنه ذكر أصولا تعود إلى مئات السنين إلى الفترة الأغلبية. فهو محمود بن محمد بن الحاج محمد بن محمد بن أحمد السيالة نسبا الصفاقسي بلدا ومسكنا المالكي مذهبا الأشعري اعتقادا الشاذلي والقادري طريقة البكري أصلا، أحد عدول تونس وأعمالها ومن علماء صفاقس وحكمائها. هكذا كان يمضي في رسائله[٧].

٢- **نسب السيالة:** في كتب السيرة والبلدان السّيالة بالياء المخففة كالسّحابة: موضع على الطريق

---

١. كاتب ومؤرخ تونسي أصيل صفاقس ولد في فاتح جانفي ١٩٢٣ وتوفي في ٦ جوان ١٩٨٨. شغل وظائف إدارية وكتب بحوثا وتحقيقات وكتبا عديدة أهمها تراجم المؤلفين التونسيين في ٥ مجلدات صدرت بين ١٩٨٢ و١٩٨٦.

٢. محمود السيالة، محمد محفوظ، مجلة الفكر، السنة ٨، العدد ٣، ديسمبر ١٩٦٢، من ص ٥٥ إلى ص ٥٩.

٣. تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٤ه/١٩٨٤م، ج١، ص ص ٩٩-١١١.

٤. تحقيق قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء لمحمود السيالة، تحقيق: مصطفى علولو، شهادة التعمق في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس، ١٩٨٥-١٩٨٦م، من ص ٢٦ إلى ص ٤٧.

٥. كاتب تونسي أصيل مدينة صفاقس ولد سنة ١٩١٨ واشتغل بالنضال السياسي والإنتاج الفكري والأدبي في الصحافة والإذاعة واهتم بالتأريخ لمدينة صفاقس وأعلامها. تعد ثلاثيته: تاريخ صفاقس أبرز مؤلفاته.

٦. تاريخ صفاقس: ج٣ ، أبو بكر عبد الكافي، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، صفاقس، ط١، ١٩٨٧، ص ص٩٨-١٠٠.

٧. انظر تلقين المقالات الأدبية في معرفة الطريقة القادرية، رقم ٢٠٣٥٤ [١/و] ورسالته المنارة الذهبية، رقم ١٩٤٠٤ [١/و] والقطعة الثانية من الرسالة البشرية [١/ظ] إلى [٤/ظ] ضمن مجموع ١٩٢٦٨ دار الكتب الوطنية تونس. وأما نسبه المتصل فقد ذكره في خاتمة نسخته من رسالة أبي الحسن علي المؤخر في العمل بالربع المُجَيَّب، رقم ١٩٤٣٢ في دار الكتب الوطنية.

بين مكة والمدينة يبعد عنها ٣٠ ميلا. يقال إنّ تبّع هو الذي سمّاها عند رجوعه من قتال أهل المدينة فوجد واديها يسيل فسماها السّيالة[١]. والسيالة بتخفيف الياء وزن فعالة شجر شائك له قشر أحمر يستعمل في الدباغة. وبتشديد الياء وزن فعّالة مبالغة من سال أي جرى وطغى. والسّيّالي السريع الجري والكثير الطغيان. وكذا الغرّة إذا استطالت وعرضت. واستعمل في تونس لقبا عائليّا[٢].

٣- لقب القادري: نسبة إلى الطريقة القادرية من الطرق الصوفية التي انتمى إليها وترقى في مدارجها وألف فيها كتاب "تلقين المقالات الأدبية في معرفة الطريقة القادرية"[٣]. ونقل أحد الباحثين أن محمود السيالة هو رائد الطريقة القادرية في صفاقس لأنه يعدّ أوّل مجاز فيها سنة ١٢٤٢ه/١٨٢٦م وله مراسلات مع شيخ الطريقة محمد الإمام المنزلي(١٢٤٨ه/ ١٨٣٢م) يستجيزه فيها، وإليه يرجع الفضل في مباشرة أعمال الطريقة وذلك في جامع العجوزين بباب الديوان في الجهة الجنوبية من مدينة صفاقس[٤].

٤- أسرته: عرفنا بمطالعة مخطوطاته الكثيرة أفرادا من أسرته الضيقة والممتدة: المحمّدون: جده الحاج محمد السيالة، ووالده الشيخ محمد بن الحاج محمد السيالة، وأخوه محمد، وابنه محمد، وأيضا زوجته حليمة بنت الحاج محمد مزيد. فأما جده[٥] ووالده فيعرفان من خلال إمضائه في رسائله وكتبه. وأما أخوه فقد ذكر في خلافة أبيه في الزاوية العيساوية[٦]، وفي وفاته في الوباء من غير زوج ولا ولد في الرسالة التي خاطب بها محمد التركي والمؤرخة في ٨ محرم ١٢٦٢ه/ ٥ جوان ١٨٤٦م[٧]. وأما ابنه محمد فقد ذكره في رسالته إلى محمد حامد النوري[٨]. وأما زوجته فهي مذكورة في عقد معاوضة جنان له بدار تملكها[٩]. كما ذكر جده للأم الشيخ علي اللومي في المواضع منها خاتمة هذه الرسالة وكذا خاله العدل محمود اللومي في إحدى رسائله[١٠].

١. انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد العزيز البكري، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، دت، ٧٧٠/٣ ووفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، نور الدين علي بن أحمد السمهودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، دت، ١٢٤٠/٤.

٢. انظر: معجم أسماء العرب، لجنة من الأساتذة بإشراف محمد بن الزبير، جامعة السلطان قابوس ومكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١، ٨٦٩/١ وسجل أسماء العرب، لجنة من الأساتذة بإشراف محمد بن الزبير، جامعة السلطان قابوس، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ٣/ ١٧٨٦.

٣. مخطوط في دار الكتب الوطنية تونس رقم ١٩٢٢٣ و٢٠١٦٩.

٤. هو الأستاذ الأزهر الكسراوي في رسالته: الطرق الصوفية بصفاقس: مواردها الاقتصادية ومعالمها الأثرية خلال القرنين ١٢ و١٣ه/ ١٨ و١٩م، شهادة التعمق في البحث، كلية الآداب، تونس، ١٩٨٤-١٩٨٥م، ١٢٧/١ و١٦١.

٥. ذكر محمود مقديش في النزهة جده هذا ودخوله على علي باشا الأول (١٧٤٠-١٧٥٥) ليرفع شكوى سكان صفاقس من عاملها وهو محمد السيالة ابن أخيه والمحنة التي أصابت وجهاء الجهة في ترجمة الشيخ عبد العزيز الفراتي. ر: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، محمود مقديش، ٣٨٧/٢ إلى ٣٨٩.

٦. تاريخ صفاقس: ج٣ أعلام ورجال، عبد الكافي، ص٢١٢.

٧. رسالة إلى محمد التركي دار الكتب الوطنية بتونس [١/و] رقم ١٩٣٨٢.

٨. الرسالة رقم ١٩٦٨٣ في دار الكتب الوطنية بتونس.

٩. انظر عقد معاوضة جنان حبس بطريق دار عطية بدار داخل صفاقس لزوجة محمود السيالة: مخطوط بخطه وإنشائه مؤرخ في أواخر جمادى الأولى ١٢٦٣هـ/ ماي ١٨٤٧م، رقم ١٩٣٣٦ دار الكتب الوطنية تونس.

١٠. رسالة إلى أحمد باي رقم ١٩٢٢٧.

٥- عراقة العائلة وتاريخها: عائلة السيالة عائلة عريقة وثرية قديمة الاستيطان في صفاقس، ترجعها الذاكرة الشعبية إلى فترة الأغالبة مؤسسي صفاقس القرن ٣ه/٩م[١]، ولكن الأكيد أنها كانت من العائلات النافذة في الفترتين الحفصية والعثمانية. وزادت شهرة بعض أفرادها المتحلّين بالعلم والنجابة في المجالات الدينية والإدارية والحرفية بين القرنين ١٨ و١٩م، حيث انتدبت الدولة الحسينية الناشئة أوائل القرن ١٨م فريقًا منهم في المخزن الإداري، وأغدقت عليهم امتيازات عقارية وجبائية منها: امتلاك الأراضي بأقل الأسعار، والإشراف على بيع مساحات شاسعة تمتد على مئات الكيلومترات عرفت باسمهم ‹‹الأراضي السيالية››، جعلت آل السيالة من أكبر المالكين العقاريين في البلاد التونسية[٢].

ولهذه العائلة فرعان، فرع بقي في صفاقس وفرع نزل بالعاصمة تونس واستقرّ فيها أو ظلّ يتردد عليها مثل صاحبنا الذي نترجم له. وبرز منهم العلماء والوجهاء وأمناء الحرف والعمّال وكبار موظفي الدولة[٣].

ثانيا: السيرة العلمية والعملية

أ- التحصيل العلمي والمؤلفات

١- التحصيل العلمي: تلقى محمود السيالة تعليمه الأول القائم على حفظ القرآن ومبادئ القراءة والكتابة في صغره في أحد كتاتيب بلده على عادة أبناء زمانه[٤]. وترقى في العلوم وحضر دروس مشايخ الجامع الكبير في صفاقس وربما في المدارس المنتشرة هناك، ومنها المدرسة الحسينية التي تولى آل الشرفي مشيختها[٥]، وفيها تتلمذ لشيخه أحمد بن أحمد الشرفي(-١٢٢٩ه/١٨١٤م)[٦]. ولم يذكر من شيوخه إلا المؤرخ أبو الثناء محمود بن سعيد مقديش الأب(-١٢٢٨ه/١٨١٣م)[٧] والابن(-

1. Sfax aux 18eme et 19eme siècles :chroniques d'une ville méditerranéenne, Ali Zouari, MED Ali éditions, Sfax et CPU, Tunis, 1er édition, 2016, p.304.

انظر القصة التي يرويها عبد الكافي في تاريخ صفاقس، ١/١٥-١٧.

٢. الأصل والفصل في تاريخ عائلات صفاقس، عبد الواحد المكني، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط١، ٢٠١٦، ص٧٣- ٧٦.

٣. للاطلاع على كثير من آل السيالة وشجرة العائلة انظر حجج إشهاد وعقود في: الأرشيف الوطني التونسي: السلسلة B (أمناء الصناديق والحرف) الصندوق ١٨٤ الملف ٦٠ الوثائق ١٠،٩،٨،٧،٢،١،١٢ والسلسلة c الحافظة ١ الملف ٣ الملف الفرعي ١٠ الوثائق: ١٠ و٢٣ و٢٤ و٢٦ و٢٨ و٣٠ و٣٢ و٣٥ و٣٦ وأرشيف تفقدية التراث للجنوب الشرقي ‹‹دار الجلولي بصفاقس›› الحافظة ٢٤، الملف ٩٠، الوثائق ٢٧٣٤ إلى ٢٧٣٩.

٤. مخطوط شهد الشهود ١٩٢٥٤ [١/ظ].

٥. من أقدم المدارس في صفاقس تونس عامة تقع في نهج العدول قريبا من الجامع الكبير بناها حسين باي صاحب الدولة الحسينية للشيخ محمد بن المؤدب الشرفي سنة ١١٢٤ه/ ١٧١٢م وافتتحت سنة ١١٢٦ه/ ١٧١٤م. تولى المفتي أحمد بن أحمد الشرفي إدارتها بين سنتي ١١٩٨ه/١٧٨٤م و١٢٢٩ه/١٨١٤م. تحولت بعد الاحتلال إلى مدرسة ابتدائية ثم أهملت حتى أضحت اليوم خرابا. نزهة الأنظار، ٢/٣٩١ وإتحاف أهل الزمان، ٢/١٠١.

٦. هو الإمام الفقيه المحدث المفسر أبو العباس أحمد بن أحمد الشرفي من بيت العلم والنباهة المعروف بصفاقس. برع في العلوم الشرعية واللغوية والرياضية. سافر إلى العاصمة سنة ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م وأخذ عن شيوخ الجامع المعمور. تولى إمامة الجامع الكبير بصفاقس والتدريس فيه. وتولى بمقتضى أمر محمد رشيد باي خطة العدالة سنة ١١٧٠هـ/ ١٧٥٦م. له تقريرات على شرحي الخرشي وعبد الباقي على مختصر خليل وعلى كفاية الطالب. ذكر تلميذه محمود السيالة أنه توفي في جمادى الأولى ١٢٢٩هـ. نزهة الأنظار، ٢/٤١٤-٤١٥ وإتحاف أهل الزمان، ٧/٨٩ وتاريخ صفاقس، ح٣، ص ٨٧ وتراجم المؤلفين التونسيين، ٣/١٦٧.

٧. ولد سنة ١١٥٤هـ/١٧٤٢م وتوفي في القيروان سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م. من بيت نبيه من بيوت صفاقس تعلّم هناك وفي جربة وفي الزيتونة والأزهر. من أشهر علماء صفاقس. ألّف حاشية على تفسير أبي السعود وأخرى العقيدة الوسطى للسنوسي وله شرح لمتن ابن عاشر وله

١٢٥١ه/١٨٣٥م) حيث شهد دروسه في الرياضيات وعلم الكلام والمنطق والفلك حين كان مدرّسًا في صفاقس قبل انتقاله للعاصمة وللخارج حيث توفي بجدة حاجّا[١].

واتسعت ثقافته بما كان يتابعه من الدروس والمناظرات والمناقشات العلمية، وما كان يثريها بالمطالعات وزيارة خزائن الكتب[٢] وباحتكاكه بأربعة أنواع من أهل المعارف: العلماء والقضاة الشرعيون والأدباء والمشتغلين بالعلوم العقلية والتجريبية ومشايخ الصوفية أصحاب الأسرار والمعارف الحكمية في مسقط رأسه أولا ثم في الحاضرة تونس لاحقا: المحمودون من آل مقديش والجلولي(-١٢٥٥ه/١٨٣٩م) ومحمد الخضار(-١٢٦٧ه/١٨٥١م)[٣]ومحمد بن الخوجة(-١٢٧٩ه/١٨٦٢م)[٤]. وصف عنايته بالتحمل عن الشيوخ وتنويع المراجع وتوثيق الإجازات في رسالته شهد الشهود: ‹‹وقد كنت نباحث كل من قل وجل، ونعتني بملاقاة الأشياخ، وقرأت عليهم المعقول والمنقول، وأخذت عنهم علوم السر والمعمول، فأجازوني بإجازاتهم››[٥]. وبذلك كوّن علاقات علمية وإنسانية مع أهل العلم من العاصمة ومن الجهات، تنبئ بذلك مراسلاته معهم.

وفي العاصمة واصل تعليمه وأخذ عن علماء الزيتونة المالكية والأحناف في وقته في النصف الأول من القرن ١٣ه/١٩م، وحصل على إجازات في العلوم عن الأكابر بالسند كما قال في رسالته إلى القاضي بالعاصمة، وكما يستفاد ذلك من مكاتباته مع العلماء وافتتاحها بلقب: ‹‹شيخنا وأستاذنا››. ومن بين هؤلاء علماء من الصف الأول: أبو عبد الله محمد بن سلامة(-١٢٦٦ه/١٨٥٠م) القاضي والمفتي المالكي، والشيخ بيرم الثالث الحنفي(-١٢٥٩ه/١٨٤٣م)[٦]، والقاضي الحنفي محمد بن الخوجة، والشيخ محمد بن ملوكة(-١٢٧٦ه/١٨٦٠م)[٧]، فقد ذكر في رسالته إليه أنه انتظم في سلك طلبته[٨]. ومما جاء في رسالته إلى القاضي المالكي بالعاصمة: ‹‹ثم بلغني أن يبحث عن أصلي وعلمي ويفحص عن فرعي وفهمي فأخبروه بأصلي وعرفوه بنسلي وقولوا له قد نشأ أصله في الجوهر وحلّي

في التاريخ نزهة الأنظار. انظر إتحاف أهل الزمان، ٨٥/٧-٨٦ وتراجم المؤلفين التونسيين، ٣٥٦/٣-٣٦٣.

١. كان محمود مقديش الابن من خواص الوزير يوسف صاحب الطابع درّس قليلا بصفاقس ثم انتقل إلى العاصمة وولي بعض الأعمال للدولة ونالته بسبب ذلك محنة على يد الوزير شاكير صاحب الطابع. إتحاف أهل الزمان، ٢٤/٨. وقد ذكر محفوظ مشيخته للسيالة في ترجمته له في تراجم المؤلفين التونسيين، ٣٦٤/٣.

٢. من ذلك مكتبات بلده صفاقس: المكتبة النورية ومكتبة آل الكراي ومكتبة محمود الجلولي التي أفاد من مصادرها لدى وضع كتابه قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء بحسب ما صرح به في فاتحته.

٣. محمد بن محمد الخضّار: أخذ عن محمد بن ملوكة وشيخي الجامع الأعظم حسن الشريف وإبراهيم الرياحي. درّس في جامع الزيتونة وتولى القضاء والفتوى وغيرها من الخطط. توفي في ذي القعدة ١٢٦٧هـ/ سبتمبر ١٨٥١م. إتحاف أهل الزمان، ٨١/٨.

٤. محمد بن حميد بن الخوجة: أخذ عن الإمام الأعظم حسن الشريف والبيرمين الثاني والثالث. تولى القضاء الحنفي ثم الفتوى ثم ترأسها. كان له ورد يومي في قراءة البخاري. توفي يوم عاشوراء ١٢٧٩هـ/٨ جويلية ١٨٦٢م. إتحاف أهل الزمان، ٨/ ١٢٧-١٢٩.

٥. شهد الشهود ١٩٢٤٩ [٢/و]. وقد نقلنا النص كما كتبه صاحبه بإسناد المتكلم الفرد إلى الجمع: قد كنت ‹‹نباحث›› كل من قل وجل و‹‹نعتني››.

٦. محمد بن محمد بيرم الثالث: أكثر القراءة على والده وعلى حسن الشريف. درّس في الجامع الأعظم وفي بعض المدارس التابعة له. ولي الفتيا وترأس المجلس الشرعي بعد أبيه. توفي في ربيع الأنور ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م. إتحاف أهل الزمان، ٥٤/٨-٥٥.

٧. محمد بن صالح بن ملوكة: أخذ عن شيخي الجامع الأعظم حسن الشريف وإبراهيم الرياحي. درّس بجامع الزيتونة وبمساجد أخرى. امتنع عن القضاء والفتوى والإمامة. توفي في ٢٨ شوال ١٢٧٦هـ/١٨ ماي ١٨٦٠م. إتحاف أهل الزمان، ٨/ ١٠٩-١١١.

٨. رسالة الترقي وسلوكه إلى الشيخ محمد بن ملوكة وهي القطعة الثانية من المجموع رقم ١٩٢٥٧ [٦/و].

بالياقوت والكوثر ومعارفه في العلوم لا تخفى ونظمه ونثره لا يجفى... وله إجازات في العلوم من الأكابر بالسند». والأكابر عصر ذاك هو شيوخ الحاضرة وجامعها المعمور[١].

٢ـ التراث العلمي المخطوط: تحدّث السيالة في رسالة المنارة الذهبية في الآداب العقلية عن معارفه وثقافته العلمية ورسائله ومؤلفاته في علوم الهيئة والرياضة والطب والموسيقى...[٢]. فللرجل مؤلفات مخطوطة في فنون من المعرفة متنوعة: المناقب والتراجم واللغة والشعر الفصيح والملحون والطب والصيدلة والفلك والموسيقى والحكم والأسرار والروحانيات والأدعية والعقود، بعضها كتب وشروح وكثير من الرسائل والمكاتبات مع شخصيات دينية وعلمية وسياسية، كلها مسودات غير تامة، لم يبيضها، كثير الشطب، وتعسر قراءة كثير منها، ولم يتم أي كتاب أو رسالة من مؤلفاته كما لاحظ محفوظ[٣]. وكلها لا تزال مخطوطة محفوظة في دار الكتب الوطنية بتونس إلا قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء فقد حقق في ثمانينات القرن الماضي ومنه نسخة مخطوطة انتقلت إلى العراق. وتتفاوت أحجام مؤلفاته بين الاختصار والتوسط والبسط. فمنها ما جاء في أوراق قليلة، ومنها ما كان من المئين، ومنها ما جاء في أجزاء. وفيما يلي ثبت بالكتب والرسائل والشروح التي ألفها وفي ذيله تلك التي نسخها.

الشرعيات: الدعاء وآدابه. وأشار في هذا المخطوط إلى مؤلف عنوانه: شرح أسماء الله الحسنى، ولم أقف عليه. وله خطبة عيد الفطر[٤]، وقصة الذبيح إسماعيل عليه السلام.

اللغة والأدب والشعر: حكمة اختصار العروض لمن له بشاشة وحظوظ، ورسالة في النحو، وكنش منتخبات من الشعر وطرائف من الأدب وفيه أشعار من نظمه، وله شعر ملحون عن احتلال الجزائر.

المناقب والتراجم: مناقب عنبسة موضوع التحقيق والدراسة. وكرامات الشيخ عبد القادر الجيلاني، وله ورقة مخطوطة عرّف فيها جده للأم علي اللومي[٥].

التصوف ورجاله: تلقين المقالات الأدبية في معرفة الطريقة القادرية، وعطر الأزهار في مدح أهل الأسرار ومذمّات الجهلاء الأغمار.

الموسيقى: قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء، حققه مصطفى علولو بتونس وهو المخطوط الوحيد الذي يعلم له مكان آخر إذ توجد منه نسخة في بغداد في مكتبة المتحف العراقي في إحدى وثلاثين ورقة الظاهر أنها المبيّضة[٦]. وعدّه الأستاذ محمود قطاط من أهم وثائق الموسيقى المغاربية والتونسية

١. انظر النص عينه بألفاظ متقاربة في شهد الشهود رقم ١٩٢٥١ ورقم ١٢٢٤٨ [٨/ظ] ورقم ١٩٣٠٠ و١٩٣٠١ [٤/ظ].
٢. المنارة الذهبية في الآداب العقلية، [٣/ظ] رقم ١٩٢٥٧ دار الكتب الوطنية. (انظر الفقرة المكتوبة بالخط المائل أعلى الحاشية).
٣. تراجم المؤلفين التونسيين، ١٠٢/٣. وفي هذا الإطلاق مبالغة فإن له مؤلفات تامة.
٤. سماها المفهرس خطبة عيد الإضحى والحال أنّ المؤلف يصرح بالعنوان حيث قال في الورقة الأولى: هذه خطبة عيد الفطر.
٥. تراجم المؤلفين التونسيين، ٦٩/١.
٦. قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء، تحقيق: مصطفى علولو، ص٢.

خاصة[1]. وله رسالة فيما يلزم المنشد من معرفة القواعد الموسيقية.

سر الحرف: كتاب في الأوقاف وسر الحروف، وكتاب العرف في تعريف الحرف، ورسالة في تعريف الحرف.

الفلك: لولب السيادة لصعود سلم السعادة: وهو شرح لسلم السعادة لمعرفة سمت القبلة وأوقات العبادة لشيخه محمود مقديش الابن[2]. وله مجموع به رسائل في الفلك: في هذا المجموع المؤلف من ٨ أوراق ثلاث قطع. والثالثة عنوانها "رسالة في تحقيق قبلة أقطار المغرب العربي". كما أن له جداول فلكية.

الطبّ: المنافع الحاضرة في النوازل الحادرة ألفها برسم الشيخ قاضي المالكية محمد البحري بن عبد الستار(-١٢٥٤ه/١٨٣٨م)[3]. المصاب بالنزلة (وهي الزكام) وكان سباقًا لذلك فلم يفرد ذلك الموضوع أحد قبله. وله كتاب الجواهر النورانية في الأدوية الجسمانية والروحانية في ٤أجزاء وهو شرح وتهذيب لتذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب لداود الأنطاكي(-١٠٠٨ه/١٥٩٩م) استدرك عليه ما فاته وما وقع له من أوهام. وله سر اللب في الحكمة والطب. عدّه محفوظ خاتمة آثاره لأن آخر رسائله يقف عند سنة ١٨٦٥م[4]. وله جامع الأنوار في الطب والأسرار. ورسالة أدوية لعلاج الملسوع.

العقود والحجج: لكونه قد انتصب للعمل عدلا فقد حفظ من وثائقه التي عقدها الآتي: نماذج من عقود الموثقين فيما يناهز ٢٠٠ ورقة وقصاصة، وعقود توثيق، وحجة في دعوى كراء جنان، وعقود معاوضة جنان والتزام ودين، وتوكيل وكراء[5]. كما وضع رسالة شهد الشهود في بيان مراتب الشهود.

ومن رسائله إلى الحكام ورجال الدولة المدنيين والعسكريين:

- رسالة إلى المشير أحمد باي: شكاية المقهور بالفي للملك الأعلى سيدي أحمد باي: موضوعها الشكاية من قائد صفاقس، ورسالة أخرى بلا عنوان يبدو أنها للمشير لورود اسمه في ورقتها الأولى قدم فيهما وصفًا لحالته وعرضًا لشكايته وما ناله من الحسّاد والوشاة وما أصابه من الفقر والتهمة والخطيّة والمضايقة من‹‹مخازنيّة›› القايد الظالم محمد الجلولي وشاوشه سعيد ملاّك الذي أطلق له العنان وقاضيها محمد شيخ روحه(-١٢٥٠ه/١٨٣٥م)[6] وأسلافه وتابعه العدل محمد

1. La musique classique du Maghreb, Mahmoud Guettat, Sibdbad, Paris, 1980, p 184.

٢. تراجم المؤلفين التونسيين، محفوظ، ٣٦٤/٣.

٣. الشيخ أبو عبد الله محمد البحري بن الحسين بن عبد الستار المانسي لازم الشيخين حسن الشريف وإبراهيم الرياحي. درّس بجامع قرب داره لبعدها عن الجامع الأعظم. تقدم لخطة القضاء في المحلة وفي العاصمة كان قويا في الحق فقد يعارض شيوخه ورؤساءه: إسماعيل التميمي وإبراهيم الرياحي. توفي يوم الأربعاء ٢١ ربيع الأول ١٢٥٤ه/ ١٣ جوان ١٨٣٨م. تتلمذ له أحمد بن أبي الضياف وذكره في مواضع كثيرة من الإتحاف وترجمته في هذا الجزء ٨، ص ٣٥-٣٦.

٤. تراجم المؤلفين التونسيين، ١٠٤/٣-١٠٥ وقال إنه لم يطلع عليه وإنما أفاده به محمد الطيب بسيس في كتاب له مؤرخ في ١٩٨٢/٧/٢٠.

٥. هذه العقود الثلاثة الأخيرة تجدها في مخطوط الجواهر النورانية رقم ١٩٤٣٧ [٢/و] و[٤/ظ] و[٢١١/ظ].

٦. أبو عبد الله محمد شيخ روحه الصفاقسي: أخذ العلم عن محمود مقديش الأب وغيره من علماء صفاقس وتقدم لخطة القضاء فحمدت سيرته وظهرت عفته وتولى خطابة الجامع الكبير بصفاقس. توفي سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٥م. الإتحاف، ٢١/٨ وتاريخ صفاقس، عبد الكافي، ج١، ص٦٣-٦٤. انظر أيضا رضا خماخم، تاريخ القضاء في صفاقس من ١٥٧٤م إلى ١٨٨١م، تبرورة للنشر، صفاقس، ط١، ٢٠١٧، ص ١٠٥-١٠٦.

كريشان[1].

- رسالة إلى الوزير شاكير صاحب الطابع(-١٢٥٣ه/١٨٣٧م)[2]: موضوعها بيان مظالم القاضي شيخ روحه ومنشئ ثروته واغتصابه مع تابعه كريشان لقراريط من أرض زوجته بجهة الحزق.
- رسالة إلى أمير آلاي رشيد(-١٢٨٤ه/١٨٦٧م)[3] في التهنئة بولاية عصمان(-١٨٧٩م)[4]، ورسالة إلى عصمان هذا في التهنئة بتسميته أمير آلاي على طبجية النظام[5]، ورسالة ثانية له في التهنئة بازدياد مولود، ورسالة ثالثة له في طلب تدخله لفصل قضية بينه وبين خصومه تتعلق بمعاوضة ودين.
- المنارة الذهبية في الآداب العقلية: كاتب بها أبا العباس حمودة بن علي الشباب(-١٢٦٣ه/١٨٤٧م)[6] من المقربين لرجال أحمد باي، يشتكي فيها من مكائد الحساد، ويطلب جاهه في تنفيذ المعاوضة التي قضى له بها القاضي الحنفي بيرم الثالث.

ومن رسائله إلى العلماء:

- رسالة الترقي وسلوكه إلى محمد بن ملوكة ورسالة السر في تهنئة أهل البرّ: هنّأ بها الشيخ محمد بن سلامة المفتي المالكي في العاصمة بمناسبة زواج أنجاله وفيها شيء من آداب الزواج. ورسالة إليه في تهنئته بخطة الإفتاء[7] والرسالة البشرية في المطالب الحكمية: كتبها إلى القاضي الحنفي مصطفى بيرم[8].
- مجموع فيه أجوبته إلى ثلة من العلماء: ومنه تكتشف بعض مواضيع الاهتمام العلمي واللغوي

١. ذكره عبد الكافي في تاريخ صفاقس، ٩٧/٣ وأنه أرسل رسالة إلى محمود السيالة سنة ١٢٥٧هـ.

٢. في الأصل المخطوط لا يظهر إلا اللقب الوظيفي صاحب الطابع أما الاسم فلم يتعيّن والذي عيّنه أبو بكر عبد الكافي في كتابه تاريخ صفاقس، ج٣: رجال وأعلام، ص ٩٩. وشاكير صاحب الطابع هو صهر ووزير حسين باي ثم مصطفى باي الذي أمر بقتله في ١١ جمادى الثانية ١٢٥٣ه/ ١١سبتمبر ١٨٣٧م. انظر الإتحاف، ٢٢٢/٣-٢٢٣.

٣. وزير الحرب والقائد العسكري المتخرج في المدرسة الحربية بباردو. نشأ في قصور البايات. قاد عسكر الساحل وتحصل على رتبة أمير لواء سنة ١٢٦٢هـ/١٨٤٧م ثم أمير أمراء سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م، وتولى إمارة الجيش الموجه لنصرة الدولة العثمانية ضد الروس في حرب القرم. ر: رسائل الجنرال رشيد إلى الدولة التونسية خلال حرب القرم ١٨٥٤-١٨٥٦م، الشيباني بن بلغيث، مكتبة علاء الدين، صفاقس، ٢٠٠٩م، ص ١١.

٤. قائد عسكري من أصل يوناني ولد في مدينة كاندية سنة ١٨١٠م وتوفي في المنستير سنة ١٨٧٩م. كان من المقربين لعديد البايات: أحمد ومحمد والصادق. ترأس فرقة الجيش التونسي في الجنوب وقاد محميات السحل وصفاقس وقابس وجربة وتناوب مع الجنرالين رشيد ومحمد الشاوش في قيادة جيش القرم.

٥. الطبجية مصطلح عسكري يعني قوات المدفعية.

٦. هو أبو عبد الله عند ابن أبي الضياف. والسيالة يكنيه أبا العباس حمدة بن علي الشباب: من أبناء الحاضرة. تعلق بخدمة أحمد باي في دولة عمه ثم في دولته. فقربه إليه سياسيا واجتماعيا. فكان يقيم معه في قصره ويوليه الخطط النبيهة كالقمرق وغيرها. توفي سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٦-١٨٤٧ م ووزعت تركته في الديون. إتحاف أهل الزمان، ٨/ ٦٥ وتاريخ صفاقس، عبد الكافي، ٨٥/١-٨٦.

٧. تقلد الفتوى في غرة المحرم سنة ١٢٦١هـ/ ١٠ جانفي ١٨٤٥.

٨. مصطفى بن شيخ الإسلام محمد بيرم: من بيت البيارمة الذين قدم جدهم للجهاد مع سنان باشا. أخذ عن شيخي الجامع الأعظم حسن الشريف وإبراهيم الرياحي. عيّنه المشير أحمد باي لقضاء الحنفية ثم تقلد الفتوى. توفي في ذي القعدة ١٢٨٦هـ/ فيفري ١٨٧٠م. إتحاف أهل الزمان، ١٧٤/٨-١٧٦.

والأدبي والتاريخي والسلوكي التي كان محمود السيالة يطالع ويناظر ويبحث ويؤلف فيها، وبعض الحوادث الخاصة بحياة المؤلف. الجواب الأول الأنور للمفتي الحنفي الأكبر محمد بيرم الثالث فيها اعتذار للمفتي عن التأخر في الجواب بسبب الاشتغال بالخصومة الملازمة له منذ سنوات مع القاضي والقائد وأعوانه والأعداء والحساد وأهل الفساد، وإخبار بعزمه على استكمال الكتاب بعد أن يرسل إليه المفتي بما عنده من آخر الكراسة الأخيرة حتى ينبني عليه التركيب. والجواب الثاني من الأسرار إلى قاضي قضاة الأمصار شيخ المالكية محمد بن سلامة وفيه تهنئة للقاضي بالمنصب[1]. والجواب الثالث المسرور إلى قاضي الحنفية المبرور محمد بن الخوجة موضوعه استئناف البحث الذي كان بينهما في رسم صفاقس بالسين أو بالصاد، وطلب المراجع اللغوية في هذا الموضوع وما انتهى إليه نظر القاضي من التحقيق. والجواب الرابع للأخ الشفيق الذي هو عون لي ورفيق أبي العباس الحاج أحمد الأكودي وفيه يعتذر عن التأخر في الرد عليه وفي إرسال بعض الكتب التي طلبها بسبب فقد رجل أمين يوصلها إليه. والجواب الخامس للحبيب المواصل والأخ النجيب المتواصل أبي عبد الله محمد الملولي ‹‹التاجر المحسن›› كما وصفه في رسالة أخرى[2]، وفيه يطلب عونه في بعض أموره.

- ومن رسائله إلى رجال التصوف: الجواهر المثمنة والأشاير المكمنة: كل جوهرة لواحد من هؤلاء: محمد الباهي ومحمد خلف وعلي الشريف شيخ الطريقة العيساوية بتونس. ورسالة إلى الشيخ محمد الإمام المنزلي يذكره بطلب إرسال الإجازة في الطريقة القادرية، ويرجوه مكاتبة ثلاثة من كبار صفاقس وهم: القائد فرحات الجلولي والقاضي محمد شيخ روحه والمفتي أحمد الفراتي وعموم مشايخها ليردوا أذى المفسدين عنه. ورسالة الأرواح ومرجانة السرور والأفراح تهدي الانشراح إلى أهل الصلاح: خاطب بها صديقه المنشد أحمد الأكودي القادري. وله رسالة إخوانية إليه تظهر جانبا من اهتماماته العلمية فيها طلب شراء قطعة نحاس لاستعمالها في تحرير أقطاب دوائر الهندسة والمساحة وجداول الأقواس.

- رسائل إلى: العدل محمود العذار وجملة الإخوان القادرية والعدل محمد التركي ومحمود المصمودي ومحمد حامد النوري. ورسائل إلى عبد الرحيم المغربي الفاسي يطلب منه الإسراع بإرسال الأمر العلي من حسين باشا باي(-١٢٥١هـ/١٨٣٥م) بتولي محمود السيالة خطة الإشهاد.

منسوخاته: الجواهر المنظومة في الأنكحة المحكومة: شرح به قاسم بن أحمد بن يامون منظومته في أعمال النكاح وأوقاته المذمومة. وإنشاد الشريد في طول القصيد: تذييل واستدراك على قصيدة حرز الأماني لأبي محمد الشاطبي(-٥٩٠هـ/١١٩٤م) وضعه محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني

١. وجدنا قطعة من هذه الرسالة مخرومة متآكلة ولكن بقي اسم القاضي سليما بين أوراق وقصاصات متناثرة في مواضيع متنوعة في الفلك والطب واللغة والعقود في ملف يحوي ١٢٤ ورقة رقمه ١٩٢٢١. وقد تولى الشيخ قضاء العاصمة في غرة رمضان ١٢٥٥هـ/ ١٤ جوان ١٨٣٩م، وكان دائم الاستعفاء حتى أعفي.

٢. انظر القطعة الخامسة من المجموع رقم ١٩٢٦٨ وهي رسالة غير تامة إلى محمد المصمودي.

المكناسي(-٩١٩ه/١٥١٣م). وعليها بعض تعليقات للسيالة. ورسالة في العمل بالربع المجَيّب ورسالة مختصرة منها: تأليف أبي الحسن علي بن محمد التميمي الشهير بالمؤخر أحد علماء بلده صفاقس. وفي ذيلها لغز من نظم أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي المعروف بـــ ‹‹ابن البناء›› (-٧٢١ه/١٣٢١م) يعرف به جيب القوس وقوس الجيب، وإثره حلّه من قبل السيالة. ولم يكتف السيالة بالنسخ المجرد، بل وضع عليها تقييدات وشروحًا بسيطة. ومفيد المحتاج في شرح السراج: والسراج منظومة لعبد الرحمان الأخضري(-٩٥٣ه/١٥٤٦م) في الفلك والشرح من تأليف سحنون بن عثمان بن سليمان بن أحمد بن أبي بكر الديريني الونشريسي (أواخر ق١٠ه). ونزهة المتعلم بها يصير يعلم: وهي رسالة في بعض المسائل الفلكية تأليف: أبي راوي بن محمد بن عمران ابن الشيخ عبد السلام الأسمر الفيتوري(-١٠٨٨ه/١٦٧٨م).

وجميع ما سبق عدّه يوجد الآن في خزائن دار الكتب الوطنية في العاصمة تونس في قسم المخطوطات. ولكن بالبحث في المحفوظات الأرشيفية في تفقدية التراث للجنوب الشرقي ‹‹دار الجلولي بصفاقس›› وقعنا على حجج عدلية ورسائل سقطت من مجموع تراثه المنقول إلى المكتبة الوطنية سنة ١٩٧٠:

- رسالة إلى محمد حامد النوري حول مقابلة كتب وكراريس بنسخ في مكتبة الجلولي أو البحث عنها في مكتبات أخرى.
- حجة عادلة في إقرار بدين بين أحد الأهالي والتاجر روبين اليهودي ممثل والد القنصل الفرنسي في صفاقس مؤرخة في ١٨ المحرم ١٢٦٥ه.
- حجة إشهاد في معاينة أحد السجناء في القصبة بإذن من عامل صفاقس يوسف الجلولي محررة في ٩ ذي الحجة ١٢٥٦ه.
- حجة إشهاد عبارة عن إذن توجه صادر من عامل صفاقس خميس الشباب إلى تابه محمد الجبالي لمعاينة الحالة الصحية لواحد من الأهالي جرح في خصومة ويعالج في حانوت أمين الأطباء محمد سحنون حررها السيالة في ٢٨ جمادى الآخرة ١٢٥٩ه.

وظائفه وبعض أخباره:

١- وظائفه: شغل عدة وظائف في قطاعات متعددة ومتصلة، وربما جمع بينها: قطاع القضاء، وقطاع العلم والتدريس، وقطاع الوعظ والخطابة، وقطاع التصوف الطرقي. والمعروف عنه ثلاثة وظائف: العدالة والتدريس والمشيخة القادرية.

انتصب عدلا موثقا ببلده صفاقس بمقتضى أمر من حسين باي الثاني في ٩ رمضان ٦/١٢٤٢ه

أفريل ١٨٢٧م[١]. وباشر الخطة في فترة ما بالعاصمة تونس بعد أن ألجئ إلى مغادرة مسقط رأسه. شرح ذلك في خطبة المنافع الحاضرة. ولا يتولى هذه الخطة إلا من جمع بين العلم والعدالة والمعرفة اللغوية الضرورية للتحرير والمعرفة الشرعية اللازمة للأحكام. وتعدّ هذه الخطة من الخطط النبيلة التي تقرّب صاحبها من مراتب المناصب العلمية الدينية العليا مثل القضاء لكون العدول من معاوني القضاة.

كما انتصب مدرسا في صفاقس بحسب ما جاء من الرسالتين إلى أحمد باي لكن سرعان ما اتهم وأطرد من الخطة[٢].

واضطلع بالإمامة والخطابة كما ينبئ عن ذلك مخطوط خطبته في عيد الفطر. وترجم له مؤرخو الطبّ والأطبّاء[٣]، وكان يلقّب بـ›› طبيب العلماء‹‹[٤]. ولا يعلم هل مارس الطب خاصة وأنه ألف فيه، وكان يستشار في مسائل من الطب دقيقة عجز عنها غيره بحسب ما يستفاد من المنافع الحاضرة التي ألفها نزولا عند رغبة الشيخ الخضّار في مداواة الشيخ ابن عبد الستار. وقد اشتهر من آل السيالة بعض من اشتغل بالطب ولقّب بالحكيم من فرع تونس. وكانت له وظيفة مرموقة في الطريقة القادرية قد يكون شغل خطة شيخ العمل أو شيخ الحزب كما يستوحى من رسالته إلى محمود العذار[٥] وجملة الإخوان القادرية[٦]، وكما يفترض الأستاذ مصطفى علولو من رسائله وكتبه في الموضوع: ما يلزم المنشد وأيضا تلقين المقالات الأدبية. ومما يؤكد ذلك الدقة والبسط الذي ضبط به الطبوع والمقامات لأهل المدائح والأذكار ونقده لمن يتقدم لهذا العمل من دون معرفة كاملة وذلك في رسالته الجامعية في تحقيقه لمخطوط قانون الأصفياء في رسالته الجامعية[٧].

٢- محنته المادية ومواجهته مع السلطة: رغم هذه الخطط والمعارف المتعددة والأصل التليد والمجد الأسري لم يهنأ بطيب العيش، بل كانت حياته كلها حلقات متواصلة من نكد الأعداء ونوائب الدهر وسوء الحال[٨]، تفصح عن ذلك أغلب مؤلفاته. يقول في رسالته إلى أحمد باي ‹›مع علمه بأني فقير محتار عاجز عن قوت الصغار ولا نملك دابة ولا دار ولا راتب درهم ولا دينار ... ولا أجد

١. رسالته إلى الشيخ عبد الرحيم المغربي طلب منه التوسط في استصدار الأمر العلي بمباشرة خطة الإشهاد المطلق المؤرخة قي ٤ صفر ١٢٤٤ه رقمها ١٩٤٢٣.

٢. قوله مستعطفا الباي: ‹›انظر لهذا الفقير المستهين الذي هو من العلماء المدرسين››. رسالة إلى أحمد باي [٤/و] ١٩٢٣٠.

٣. معجم أعلام الطب في التاريخ العربي الإسلامي، سليم عبابنة، دار البيروني للنشر، عمّان، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، رقم: ١٥١١، ٣١٦/١.

٤. مخطوط قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء، ورقة التقديم من المفهرس.

٥. ذكر عبد الكافي أنه رئيس جمعية الغرامة الحربية. ر:تاريخ صفاقس ١٦٣/٢-١٦٤ وذكر مبروك الباهي في دراسته الديون والاستثمار الربوي أن الجمعية يرأسها ‹›القايد›› والقاضي عضو فيها من ضمن ٢٠ عضوا.

٦. وهي المخطوط رقم ١٩٣٨١. موضوعها الرئيس طلب السيالة منه الاتصال بالشيخ القاضي للنظر في إمكان أخذ مسجد ‹›سيدي أبو صيود›› ونقل أثاث موجود في جامع آخر (ابن عزوز) إليه.

٧. تحقيق مخطوط قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء، علولو، ص٣٣. انظر الفصل التاسع منه ص ص ١٧٢-١٩٨.

٨. قانون الأصفياء، ص٣٤

في خزانتي ثمن بلغة ولا زيت ولا مضغة ... ولا عندي عمامة وكبوس...››[1]. وفي نص مماثل في رسالته إلى القاضي مصطفى بيرم الحنفي: ‹‹ليس لي مسكن فقد أعياني الكراء والتحويل››، ‹‹والذي قال الحج عرفة وعظم المزدلفة لا نكسب درهما ولا دينار ولا ربعا في البلاد ولا عقار ولا نجد في خزانتي ثمن لقمة...››[2].

ويشير في شهد الشهود إلى سبب ذلك وهو الخصومة بينه وبين أحد مدعي العلم في صفاقس وقد يكون أحد العدول، يقول: ‹‹فلما انقضت أيام عني السعود وانقطع عني العز الممدود... فنقص المال والمقام وباعدني الخاص والعام... ونهكني خصوصا ممن يدعي العلم من أهل مسقط رأسي...››[3].

ولا نملك دليلا قاطعًا على سبب هذه المحنة إلا ما نستوحيه من بعض رسائله التي رفع فيها الشكوى بالقاضي شيخ روحه وأعوانه وبعمال صفاقس من آل الجلولي والسبعي. فالرسالة التي يبدو أنها صاحب الطابع تعدّ شهادة على العصر قال: ‹‹ولا ينبئك مثل خبير››[4]، أخبر فيها السلطة المركزية في الحاضرة بحالة القضاء في زمانه وتبعيته لقايد صفاقس. وبيّن مساوئ هذا القائد، وتدخله في القضاء، وفساده الإداري وتبديده الأموال العامة، وبذلها لنفقته الخاصة، وتسلطه على الناس بالظلم وسلب الأرزاق. ووصف مساوئ أحمد شيخ روحه(-١٢٣٤ه/١٨١٧م) خازن القايد السبعي ووكيله، وتكلم عن مصدر ثروته التي آلت إلى أسلافه ومنهم القاضي محمد بن أحمد شيخ روحه (-١٢٥٠ه/١٨٣٥م)[5]، وابنه قاضي وقته وما عرف به من ضعف عقله وسوء تدبيره وعدم كفاءته، مما أثّر على مصالح الناس خصوصًا إهمال الأحباس ومصروفات الأوقاف. وأرجع هذه الثروة أولا: إلى خيانة أمانة القائد السبعي الذي أخفى أمواله عنده (عند أحمد شيخ روحه) من الدائنين ولكنه استولى عليها بعد أن مات القايد في سجنه. وثانيًا: اغتصاب أموال رفيقه الغربي الغشام الذي توفي في حبس العاصمة. وثالثًا: الاستيلاء على تركة الشيخ المكي. وهذه الأخبار سمعها من المتقاضين الواقفين على باب القاضي المشغول بالبيع والشراء والمنشغل عن قضايا الناس. ورابعًا: وهذا الذي سمعه من خاله العدل محمود الأومي هو استيلاؤه على أمانات بعض ريّاس البحر[6] ومغانمهم بعد موتهم في الجهاد وجحوده له عن ورثتهم رغم أنه محفوظ بشهادة العدل محمود المصمودي. والتقط الوشاة هذا القول ونقلوه إلى القاضي فنقم منه قوله وانتقم منه. كما تحدّث عن تابع القاضي محمد كريشان الذي أضحى يتلاعب به، ويطلب من المقاضين الرشوة ليحكم له القاضي[7]. ولهذا القاضي ولتابعه كريشان حساب

١. رسالته إلى أحمد باي رقم ١٩٢٣٠، [٣/ظ]. ولعله يشير إلى أمر الباي محمود باشا (-١٢٣٩ه/١٨٢٤م) المؤرخ في سبتمبر ١٨٢٣ لعدول الحاضرة المنتصبين للشهادة بلبس عمامة مثل المفتين والقضاة وتوعد المخالفين بالعزل. انظر الإتحاف، ١٤٤/٣.

٢. انظر القطعة الثالثة من المجموع ١٩٢٦٨، [٧/ و] و [٧/ظ].

٣. مخطوط شهد الشهود رقم ١٩٢٥١، [٨/ظ].

٤. رسالة الغالب على الظن أنها لأحمد باي، محمود بن محمد السيالة، رقم ١٩٢٢٧، دار الكتب الوطنية، تونس، [١/ظ].

٥. سماه في رسالته لمحمد الإمام المنزلي ١٩٦٩٥.

٦. لفظ عامي يعني قائد طاقم السفينة ويحيل على الرجال الذين نشطوا في الغزو والجهاد البحري ويسميهم الافرنج القراصنة.

٧. رسالة يغلب على الظن أنها موجهة إلى أحمد باي في بيان مساوئ القاضي شيخ روحه وأسلافه وقايد صفاقس وكريشان عون القاضي، رقم ١٩٢٢٧ دار الكتب الوطنية تونس، والرسالة تقع في ورقة ونصف وهي ناقصة من أولها وغير مستوفاة.

لم يُصفّ بعد مع السيالة. فقد عمدا إلى اغتصاب قراريط من أرض زوجته بجهة الحزق[1].

وأما الأمر غير المصرح به، فهو أنّ خصومته مع عمّال صفاقس راجعة إلى نزاع تاريخي يمتد إلى عقود قبل محمود السيالة وسيتواصل عقودا أخرى بعده بين آل السيالة والسلطة، كان بعض قادة صفاقس من آل الجلولي خاصة وآل السبعي كما يستفاد من رسائله طرفا فيه فيما يعرف بقضية الأراضي السيالية[2] التي حرمت العائلة من تلك الميزة العقارية التي جعلت منها من الأثرياء النافذين. ولذلك كان عمال صفاقس وقضاتها وأتباعهم الذين هم على نزاع مع محمود السيالة يستغلون سياسة الدولة لزيادة الضغط عليه وعلى أفراد العائلة الآخرين لعقابه وافتكاك أمواله والتشفي منه، وتلك كانت سيرتهم لا يرحمون عزيز قوم ذلّ. وكان من آثار هذه المحنة والتضييق عليه أن ترك مسقط رأسه وانتقل إلى العاصمة تونس لرفع الشكاية ودفع الإذاية.

٣- إقامته بين صفاقس والعاصمة: ويعرف من أخباره أنه كان يتنقل بين صفاقس والعاصمة تونس بعد أن ضاقت عليه مسقط رأسه بسبب المكائد من الحساد والتتبعات من أهل السلطة الذين لم يتركوه إلا وهو مفلس معدم يبيع كل ما لديه ليقضي الغرامة التي عليه. فالتجأ إلى رفع مظلمته للسلطة الحاكمة وللمقربين منها من العمال والقضاة في العاصمة، وللبحث عن فرصة للعمل هناك وممارسة خطة الإشهاد. وكان يمضي في رسائله بما يفيد معنى الغربة: ‹‹من تجرع علقم الترحال والانفصال وشرب مرارة القطع والانتصال››[3]، ‹‹نازح الدار الملازم للسهر والأفكار الفقير لربه محمود سيالة الصفاقسي القادري››[4]. وامتد هذا التنقل ما يناهز ثلاثة عقود تكشف عنها الأخبار الواردة في مؤلفاته ورسائله أو تواريخ إمضائها التي ثبت أنها كان فيها أو قريبا منها في صفاقس أو في تونس.

القسم الثاني: دراسة النص المخطوط وإخراجه

الفرع الأول: منهج الكاتب ومادة النص

أولا: منهج المؤلف:

١- عنوان النص ونسبته إلى المؤلف: نسبة المؤلف إلى صاحبه ثابتة لا تحتاج إلى فهرس مؤلفات لتأكيدها، ذلك أن المخطوط مسودة مكتوبة بخط يد المؤلف، ومذكور فيه اسمه وتاريخه وعنوانه، الأمر الذي لم يوقع مفهرسي مخطوطات المكتبة النورية في صفاقس[5] ودار الكتب الوطنية والباحثين

١. قرية في شمال صفاقس. انظر: رسالته في هذا الموضوع إلى صاحب الطابع، مخطوط في ورقة واحدة من القطع الكبير في ٣٨ سطرا رقم ١٩٣٦٢.
٢. انظر أرشيف تقفدية التراث للجنوب الشرقي ‹‹دار الجلولي بصفاقس›› الحافظة ٢٤، الملف ٩٠، الوثائق ٢٧٣٤ إلى ٢٧٣٩.
٣. ثلاث مسودات غير كاملة من رسالة إلى أحمد باي رقم ١٩٢٢٥، [٢/و].
٤. انظر: الجوهرة الرابعة إلى إخوانه أهل الطريق القادرية ضمن مجموع رقمه ١٩٢٧٠، [٧/و] ومرجانة الأرواح ١٩٧٢٦، [٣/و].
٥. نسبة إلى الشيخ أبي الحسن علي النوري الصفاقسي أحد أعيان علماء صفاقس(-١١١٨ه/١٧٠٦م) والمفهرس هو الأديب المؤرخ المرحوم محمد محفوظ(-١٤٠٨ه/١٩٨٨م) أصيل مدينة صفاقس وصاحب موسوعة: تراجم المؤلفين التونسيين.

في تراث الرجل في صعوبة أو خلاف إلا ما وقع من الخطأ من المفهرس في ضبط الاسم على ورقة الغلاف: ‹‹مناقب أبي عنبسة خارجة بن عنبسة الغافقي››. والصحيح أبي خارجة عنبسة بن خارجة.

٢ـ **دواعي التأليف**: ألّفت الرّسالة على العادة الجارية بين الكتّاب والقرّاء أو العلماء فيما بينهم، فكانت إجابة لبعض الإخوة: ‹‹قد سألني بعض الإخوان ... أن أقيّد له بعض مناقب من كرامات الشيخ ... عنبسة بن خارجة الغافقي رحمه الله››[١].

٣ـ **لغة الكاتب**: كان الكاتب حريصًا على السجع وتنميق الفواصل وتنغيم الكلام. وهذا الأمر كثير في المقدمة والنص فلا فائدة من النماذج.

الشعر: وهذه ميزته في كل ما يكتب وفي هذا النص، فلا تجد ورقة خلا الأولى إلا وهي محلاة ببيت أو أبيات. وعدتها سبعة مقاطع. كلها من نظمه، وتتراوح بين بيت واحد وستة أبيات.

عبارات قرآنية: من ذلك تضمين قوله تعالى: (يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ الله وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلك مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ)[٢]. من سورة الفتح/ الآية ٢٩.

ألفاظ عامية وكلمات غير فصيحة: من الذي كان مستعملا في زمانه، أو مما صنعه لغرض السجع المجرد. واستعمال الألفاظ العامية المحلية يعمي المعاني أحيانا لمن لا يفهم تلك اللهجة من أهل البلد الواحد أو من الأقطار الأخرى. فمنها: يوم الوحيل [١/ظ]، ونتعشا [٤/و]، وضيقة [٤/و]، والوعايد [٣/و] و[٥/و]، وعيب وسّاخ [١/ظ] من ساخ يسوخ في الطين غاص فيه. أتى بهذا الوزن لضرورة السجع للتناسب مع قوله يوم الاصطراخ.

أخطاء نحوية وصرفية: قوله: أبو العباس سيدي أحمد [٢/و] والصحيح أبي العباس لوروده في مركب بالجرّ. وقوله: بركتا من الشيخ [٢/ظ] بالتاء المنونة والممدودة بالفتح والصواب بركة بالتاء التي على صورة الهاء. وقوله: كما تشهد به أهل التحقيق وعامة الناس [٣/ظ] وصوابه يشهد بالتذكير لا بالتأنيث لتقدم أهل التحقيق في الكلام. وقوله: فلم يجدوا أحد من العرب [٤/و] ولم ينصب المفعول وصوابه أحدًا. وقوله: فإذا فيه قدحا كبيرا [٤/ظ] والصحيح قدح كبير. وقوله: إذا دخله الداخل يرى فيه نور زايد [٥/ظ] س١٥ لا يوجه بأنه المبني للمجهول بعيد ان يكون لأنه أتى باسم الفاعل ‹‹الداخل››. وقوله: الكلام في كراماته كثيرا [٦/و] والصحيح كثير: نعت مرفوع تابع للمبتدأ. وقوله يستفاد الإنسان [٤/ظ] والصواب يستفيد.

الرسم: إسقاط الهمزة المتطرفة: الاستسقا [٣/ظ] الأوليا [٥/ظ] الصحرى [٣/ظ].

رسم الهمزة المشبعة في أول الكلمة على السطر يتبعها حرف المدّ حسب رسم المصحف وهو الرسم السائد في ذاك العصر: ءالام [٥/و]. وكذا رسمها في الوسط يقرءون [٥/ظ]، وفي آخر الكلمة مع ألف

١. مخطوط مناقب عنبسة [١/ظ] و[٢/و].
٢. م ن، [٢/و].

مدّيّة منصوبة: رءا [٥/و] وحينا بالألف المقصورة رءى [٧/و].

رسم الهمزة المنصوبة والمرفوعة في وسط الكلمة: رسمها على السطر: رءى [٧/و] بدل رأى على الألف، ورءوف بدل رؤوف على الواو[٧/و] أخذا من الرسم القرآني.

رسم الهمزة المتوسطة والمتطرفة ياء: سيل [٣/و] وهي سئل، عجايب [٣/ظ]، زايرا [٣/ظ] و[٤/ظ] و[٥/ظ] و[٦/و] وجمعها على زيار [٤/و]، ساير [٤/و] و[٥/و]، الفضايل والأوايل [٥/و]، بنايها [٦/ظ]، يقري [٥/ظ] وهي يقرئ.

إبدال الهمزة واوا: مملووا [٤/ظ].

رسم التاء المتطرفة بصورة التاء المفتوحة والمنونة بدل الهاء: رحمتا [٢/و]، بركتا [٢/ظ]، نزهت وعمدت [٢/ظ]، الحيات [٣/ظ]، شات [٤/و]، القبت [٤/ظ]، قراءت [٥/ظ]، غايت [٦/ظ].

رسم الألف: مثاله: العالم الهموم بالواو وترسم بالألف الهمام [٧/و].

رسم الحرف كما يسبق إليه اللسان: مشتهدون [٦/ظ] وأصلحها بنفسه في الحاشية: مجتهدون.

رسم الأسماء والأفعال الناقصة: الناجيون بدل الناجون [١/ظ]، وتنجا بالألف بدل الواو [٣/ظ].

٤ـ ترتيب المادة: فقرات الرسالة:

[المقدمة] بدأ بفاتحة تقليدية: بالتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بيّن سبب تأليف هذه الرسالة وغايته وهي إجابة من سأله ذلك، والتماس بركة الشيخ عنبسة. وعرّج على ذكر مصدره الذي يستند إليه في مادة هذه الرسالة: وهو محمود بن سعيد مقديش وتاريخه المسمى نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار.

الفقرة الأولى: [ذكر شيوخ عنبسة ومناقبه وقيمته بين العلماء]

الفقرة الثانية: [مقر سكناه ورباطه]

الفقرة الثالثة: [ذكر كرامات الشيخ عنبسة] وعدتها خمسة: ثنتان نقلهما من نزهة الأنظار، والباقية من سماعه ونقله ومما حكي له من أهل البلد. فأما ما نقله عن مقديش فهو خبر استسقائه لأهل صفاقس وغافق حتى سقوا. وكذا خبر الشاة التي هيّئت لبعض المسافرين في البحر الذين نزلوا لزيارته[١]. وأما الثلاث الأخر فهي: خبر الرجل الذي اشتهى تمرا وزبد حليب، وأقسم على أكله، ولم يكن في المقام شيء من ذلك، فظفر به، فطعم وقسّم على مرافقيه، فوافق قدرهم بالعدد. وخبر نذر بعض المسافرين أن يذبحوا له شاة إن نجوا وغنمهم، ثم لم يوفوا بنذرهم وما أصابهم. وخبر إقراء تلاميذه وتكليمهم من قبره بعد موته.

١. نزهة الأنظار، ٢٤٣/٢.

الفقرة الرابعة: [الحديث عن حافظ المقام أحمد التركي الحنفي وبناء القبة] وفيها ذكر سبب زيارته لمقام عنبسة وبناء قبة له ودفنه بجوار الشيخ، وذكر لآل بريك الذين توارثوا خطة ‹‹الحفيظ››.

الفقرة الخامسة: [خاتمة الرسالة] تاريخ الفراغ من التأليف وذكر اسمه ونسبته إلى جده للأم الشيخ علي الأومي.

٥- مصادره: لقد صرّح المؤلف في مقدمة مؤلفه وخاتمته بمصادره المكتوبة والمسموعة ‹‹سمعًا ونقلا››[١]. ذلك أنّ مستنده في هذه الرسالة أولا: تاريخ شيخ شيوخه محمود مقديش الأب المسمى "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار" المؤلف في أواخر القرن ١٢هج أو بداية القرن ١٣هج، وثانيًا الرواية الشفوية عن معاصريه المتناقلة جيلا عن جيل.

مصادرة المكتوبة: نقل من نزهة الأنظار كل ما فيه وهي هذه المقاطع:

١. في بيان تتلمذه لمالك وذكر شيوخه ومنزلته عند سحنون: قال: ‹‹أول من اجتمع بإمامنا مالك رضي الله تعالى عنه وأخذ عنه من أهل هذا الوطن وهو أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي سمع من مالك ...››.

٢. وفي ذكر سكناه بحصن يونقة وبيان موضعها: ‹‹وكان ساكنًا بحصن من جهة صفاقس غربًا منها ويسمى ذلك الحصن يونقا ..... وضريح الشيخ إلى الآن مشهور مزار››.

٣. في ذكر بعض كرامته: ‹‹وللشيخ كرامات في حياته وبعد وفاته. قال شيخنا رحمه الله: فيحكى عنه عجايب من الأخبار والوصف ...››

٤. وفي ذكر وفاته: ‹‹قال شيخنا رحمه الله وكانت وفاته رحمه الله بشهر ربيع سنة عشرين ومائتين››.

مصادره الشفوية: وفي هذا المقام تجده يبهم مصدره ويستند إلى الروايات الشعبية قائلا: حكي لي أو قيل. ودونك بعض النماذج: ‹‹وقد حكي لي أيضا أن بعض الناس كانوا مسافرين››[٢]، ‹‹وقد حكي لي أيضا أن الشيخ رحمه الله كان يقري تلاميذه من قبره بعد موته ويكلمهم من قبره ويرد الجواب عليهم››[٣]، ‹‹وقد حكي لي أن رجلا أتى زائرا لمقام الشيخ››[٤]، ‹‹قلت: وقد حكي لي عن بعض الزيار أن رجلا منهم اشتهى في زيارته لمقام الشيخ أكل تمر وزبد حليب››[٥]، ‹‹وقيل هو الذي بنى قبة الشيخ››[٦]، ‹‹قيل إنهم كملوا قراءة كتبهم ... وقيل إنهم تمادوا في قراءتهم عليه حتى انتقلوا إلى

١. مخطوط مناقب عنبسة، [٧/و].
٢. م ن، [٥/و].
٣. م ن، [٥/و] و[٥/ظ].
٤. م ن، [٥/ظ].
٥. م ن، [٤/ظ].
٦. م ن، [٦/ظ].

الآخرة[1].

ثانيا: دراسة محتوى المناقب والكرامات

١ـ ضبط حجم المناقب: تعدّ مناقب عنبسة رسالة صغيرة من سبع أوراق. ويرجع صغر حجمها إلى غرض المؤلف الذي لم يرم إلى الاستقصاء والتوسع في أغلب المناقب، وإنما كان يهدف إلى إثبات أنه من العلماء، فعدد أساتذته الكبار وما رواه عنهم مدوّنا، وأنه من الأولياء الصالحين العالمين العاملين فذكر مرابطته، واكتفى ببعض الكرامات المشهورة[2]. ومن هذه الورقات السبعة، خصص المؤلف نصفها، وليس أكثر، للحديث عن المناقب والكرامات، والباقي مقدمة وخاتمة وكلام عن حفاظ المقام.

٢ـ مقارنة مناقب السيالة بالمصادر الأخرى لترجمة عنبسة: عدد الكرامات عند السيالة (٥) جمعها من مرجعه مقديش في نزهة الأنظار وعددها (٢) ومن مصادر متقدمة. فأما أبو العرب أول من ترجم لعنبسة فإنه لم يذكر شيئا من هذه الكرامات مكتفيًا بالجانب العلمي. ورياض النفوس -وهو الأوعب- فقد شمل (٦) كرامات. وفي ترتيب المدارك (٦) أيضا، منها ما ينقله عن المالكي، وواحدة انفرد بها وهي: ارتفاع السواري في المسجد الذي بناه[3]، ونقلها ابن فرحون في الديباج المذهب. والملاحظ أن مقديش لم ينقل إلا خبر الاستسقاء عن المصادر السابقة. والكرامات الأخرى ظهرت بعد عهد هؤلاء بعد عيسى بن مسكين الصفاقسي المدفن(ـ٢٩٥ه) الذي يعتمد عليه المالكي في نقل أخبار أبي خارجة

٣ـ الحدود الزمنية للكرامات: لم تقتصر كرامات عنبسة المشاهدة على حياته، بل امتدت بعد وفاته. قال السيالة: ‹‹وللشيخ كرامات في حياته وبعد وفاته كما تشهد به أهل التحقيق وعامة الناس ونظم:

لَهُ الْكَرَامَاتُ جَاءَتْ فِي الْحَيَاةِ كَذَا ظُهُورُهَا بَعْدَ الْمَمَاتِ›› [٣/ظ].

- حوادث في زمن عنبسة: الاستسقاء: ‹‹قال شيخنا رحمه الله: فيحكى عنه عجائب من الأخبار والوصف ... ويحكى أنه وقعت في زمنه شدة، فطلبوا منه الاستسقاء، فأمر الناس بالصوم والصلاة وصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء ومعه [٣/ظ] ساير الحيوانات، ففرق بينها وبين أولادها، ووقع البكاء والضجيج. فأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صلّى وخطب بالناس فسُقُوا››. [٤/و]

- حوادث بعد وفاته: قال المؤلف: ‹‹وقد حكي لي أيضا [٥/و] أن الشيخ رحمه الله كان يقري تلاميذه من قبره بعد موته، ويكلمهم من قبره، ويرد الجواب عليهم في بعض مسائل علمية. قيل إنهم كملوا قراءة كتبهم التي كانوا يقرؤون بها عليه في حياته. وقيل إنهم تمادوا في قراءتهم عليه حتى انتقلوا إلى الآخرة››. [٥/ظ].

---

١. م ن، [٥/ظ].

٢. قال المؤلف: ‹‹والكلام في تعدد كراماته كثيرا يستدعي مؤلفا مختصا بل لا يكفي فيه مؤلف واحد لأن كل واحد قد شاهد من بركاته شيئا كثيرا وتتبع ذلك يطول والمقصود هو الإعلام بأنه كان من أولياء الله المقربين وكراماته متواترة عند الناس حيا وميتا كما هو مشاهد وفي هذا القدر كفاية››. م ن، [٦/و].

٣. ترتيب المدارك، ٣١٩/٣.

‹‹قلت: وقد حكي لي عن بعض الزيار أن رجلا منهم اشتهى في زيارته لمقام الشيخ أكل تمر وزبد حليب ... فلم يجد شيئا من ذلك فقسم عليه إن لم يأكل تمرا وزبدا حليب في هذا اليوم وهذه الساعة لم أعد لزيارتك البتة أبدا ... فما استتم كلامه إلا والتفت إلى شباك في القبّة ونظر فإذا فيه قدحًا كبيرًا مملوءا بتمر وزبدة حليب فأخذه وفرق ما فيه على الزيار الذين معه، فوافق قدرهم بالعدد، فعلموا أن هذا الأمر كرامة من الشيخ رحمه الله››. [٤/ظ].

- حوادث قريبة من عصر المؤلف: ‹‹قال شيخنا رحمه الله: مما وقع في هذه الأعصار أن بعض الناس كانوا مسافرين في البحر، فنزلوا لزيارته، فقال بعضهم: ‹‹وددنا لو وجدنا من يبيع لنا شاة نتعشا منها. فنظروا فلم يجدوا أحد من العرب ولا من غيرهم. فدخلوا ضريح الشيخ وخرجوا، فإذا بصوت شاة فتبعوا [٤/و] صوتها، فإذا بشاة مكتوفة على عادة العرب ينذرون ويضعون نذورهم حذو الشيخ إذا لم يجدوا زائرا، فأخذوها وأكلوها وعدوها من كرامات الشيخ››[1].

الفرع الثاني: عمل التحقيق

أولا: الوصف المادي للنص المخطوط

رقم المخطوط: ١٩٢٦٩ دار الكتب الوطنية تونس. انتقل إليها من رصيد المكتبة النورية بصفاقس ع/١٢٨١ الذي كان محفوظًا في متحف دار الجلولي بصفاقس، ورقم تسجيله هناك ٧٤٥٨.

نوعه: مسوّدة المؤلف بخطّه عليها ضرب في النص وإصلاح في مواضع كثيرة في الحاشية.

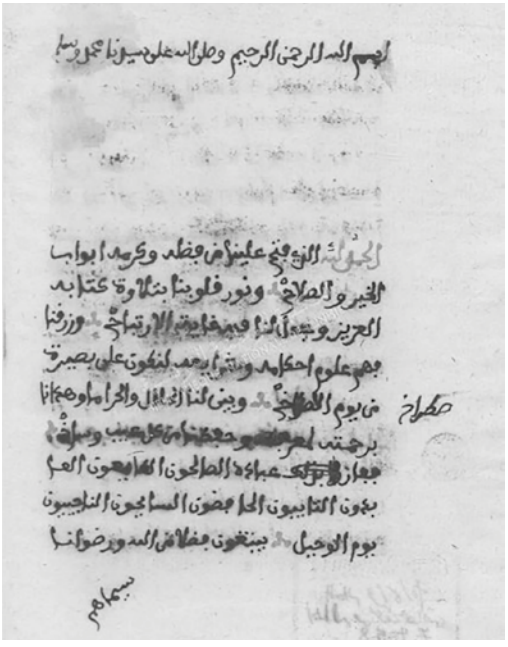
- عدد الأوراق: ٧.
- عدد الأسطر: ١٥ إلى ١٧ سطرا.
- المسطرة: ٢٢,٦/ ١٦,٨ سم.
- أوله: ‹‹الحمد لله الذي فتح علينا من فضله وكرمه أبواب الخير والصلاح ونوّر قلوبنا بتلاوة كتابه العزيز وجعل لنا فيه غاية الارتياح ..››.
- آخره: ‹‹... المحقق المدقق الحاج الناسك الأبرّ أبي الحسن سيدي علي اللومي رحمه الله››.
- الخط: مغربي تونسي واضح القراءة غالبًا.
- المداد: أسود مع ألفاظ قليلة باللون الأحمر .
- الناسخ: النص مكتوب بخط المؤلف.
- التاريخ: صرح المؤلف بفراغه من كتابته ليلة الاثنين من أول شهر صفر ١٢٣٨ه/ أكتوبر ١٨٢٢م.

١. وقع إثبات ألفاظ النصوص كما رسمها المؤلف في الأصل المخطوط. والإصلاح سيأتي عند تحقيق النص لاحقا.

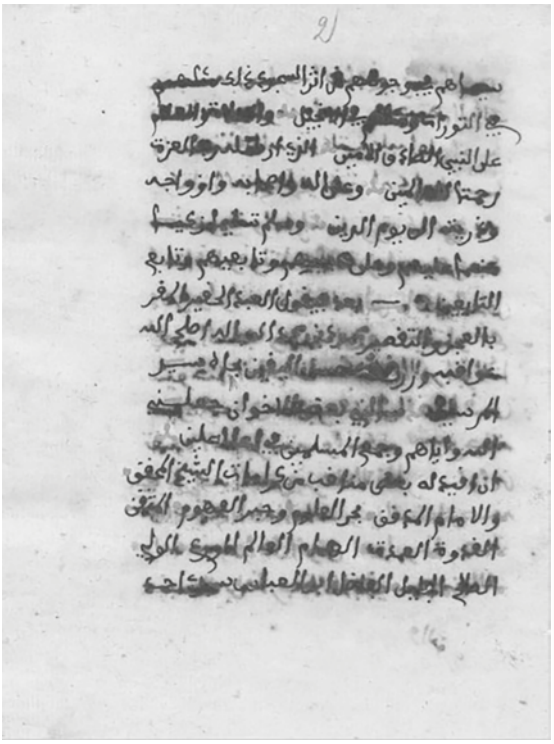
- حالة الورق: النص كامل. وفي الورق قليل من أثر الرطوبة وطمس طفيف في موضع أو اثنين أغرب القراءة.

ثانيا: منهجي في التحقيق

- اعتمدت النسخة الوحيدة لهذه الرسالة وهي مسوّدة بخط المؤلف لا يعرف إن كان لها مبيّضة، شأنها في هذا شأن مؤلفاته كلها، وذلك عقب الاطمئنان بعد المقارنة بغيرها إلى أنها له وبخطه.
- نسخت النص من الأصل الذي وقفت عليه في دار الكتب الوطنية، وضبطته بالرسم المعاصر، وليس كما رسم المؤلف، وقد قدمنا نماذج موضحة سابقا، وجعلت له علامات التنقيط المناسبة.
- قسمته إلى فقرات ليعرف محتواه وتتيسّر متابعته.
- عرّفت بالأعلام المذكورين في متن الرسالة من غير الذين عّرفت بهم في قسم الدراسة لئلا أكرر ما سبق. وهؤلاء هم ابن مخلد وموسى بن نصير وعبد القادر الجيلاني والسبكي (الأب والابن لعدم تعيّنه) والإمام الشافعي وأبو الحسن علي اللومي جدّ المؤلف. ولم نقف على ترجمة لآخرين وهم القائمون على المقام: أبو العباس أحمد التركي والحاج أحمد ابريك، اعتمادا على أقرب المصادر وأحسنها تخصصًا وجمعًا.
- عرفت بالأماكن المذكورة: صفاقس/ قصر تليدة/ المحرس/ يونقة.
- ضبطت الأبيات بالشكل التام واستخرجت بحورها.
- أثبت رقم الورقة وكونها وجهًا (و) أو ظهرًا (ظ) بين معقفين هكذا [/] بداية نص كل وجه.
- وهذه صور من المخطوط



ظهر الورقة الأولى [١/ظ] بداية نص المناقب



وجه الورقة الثانية [٢/و] وفيها يذكر اسمه (س٨) وعنوان الرسالة (س١٢)



ظهر الورقة الثالثة [٣/ظ] ضرب واستدراك وإصلاح على الحاشية يثبت أنها مسوّدة



وجه الورقة الأخيرة [٧/و] نهاية النص

ثالثا: إخراج النص المحقق

[١/ظ] [فاتحة الرسالة]: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وسلم

الحمد لله الذي فتح علينا من فضله وكرمه أبواب الخير والصلاح، ونوّر قلوبنا بتلاوة كتابه العزيز، وجعل لنا فيه غاية الارتياح، ورزقنا فهم علوم أحكامه وشرائعه لنكون على بصيرة من يوم الاصطراخ، وبيّن لنا الحلال والحرام[١]، وهدانا برحمته لمعرفته، وحفظنا من كل عيب وسّاخ[٢]، ففاز عباده الصالحون الطائعون[٣] العابدون التائبون[٤] الحافظون[٥] السائحون[٦] الناجون[٧] يوم الوحيل[٨]، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، [٢/و] سيماهم في وجوههم من أثر السجود، مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل[٩]، والصلاة والسلام على النبي الصادق الأمين، الذي أرسلته بالعزة رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته إلى يوم الدين وسلم تسليمًا زكيّاً منعمًا عليهم وعلى محبيهم وتابعيهم وتابعي التابعين.

[الداعي إلى تأليف هذه الرسالة]: أما بعد، فيقول العبد الحقير المقرّ بالعجز والتقصير، محمود بن محمد السيالة، أصلح الله عواقبه ورزقه حسن اليقين بجاه سيّد المرسلين، قد سألني بعض الإخوان جعلني الله وإياهم وجميع المسلمين في أعلى[١٠] علّيّين، أن أقيّد له بعض مناقب من كرامات الشيخ المحقق والإمام المدقق بحر العلوم وحبر الفهوم المتقن القدوة العمدة الهمام العالم الورع الوليّ الصّالح الجليل الفاضل أبي[١١] العباس سيدي أحمد [٢/ظ] عنبسة بن خارجة الغافقي رحمه الله، نفعنا الله به وبعلومه –آمين- فأجبتهم إلى ذلك، واستعنت بالله، وتوكلت عليه، لعلي أجد بركة[١٢] من الشيخ. فإني نظرت له كرامات مشهورة، وأمارات مأثورة، كما صرّح به أستاذنا وقوتنا، علامة زمانه وفريد دهره وأوانه، قدوة الأفاضل ومجلي المعاضل، بقية السلف وعمدة الخلف، شيخنا وشيخ شيوخنا الحاج الناسك [....][١٣] الأبرّ أبو الثناء[١٤] سيدي محمود بن سعيد مقديش الصفاقسي تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح

مناقب أبي خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي الصفاقسي

---

١. في المخطوط: الحراما بالمد وما من سبب يقتضيه من سجع أو غيره.
٢. وزن غريب عامي من الوسخ اضطره إليه تكلف السجع.
٣. في المخطوط: الطايعون بالياء.
٤. في المخطوط: التايبون بالياء.
٥. في المخطوط: الحافضون بالضاد.
٦. في المخطوط: السايحون بالياء.
٧. في المخطوط: الناجيون
٨. الوحيل لغة غير فصيحة اقتضاها تكلف السجع لورود كلمة الإنجيل في آخر الجملة..
٩. يضمّن المؤلف نصّه أية من سورة الفتح رقم ٢٩.
١٠. في المخطوط: أعلا بالألف الممدودة.
١١. لم نستبن رسم المؤلف للكلمة: أبو أم أبي والظاهر أنها أبو. وأثبتنا الصحيح وهي أبي.
١٢. في المخطوط رسمها بركتا بالتاء المنونة والممدودة.
١٣. خرم بقدر كلمة واحدة أو حرف ولعله فراغ أو حرف زائد استدركه المؤلف وضرب عليه.
١٤. في المخطوط: الثنا بإسقاط الهمزة المتطرفة.

جنته، في تاريخه المسمى بنزهة الأنظار.

[ذكر شيوخ عنبسة ومناقبه]: قال[1]: أول من اجتمع بإمامنا مالك رضي الله تعالى عنه وأخذ عنه من أهل هذا الوطن[2]، وهو: أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي. سمع من مالك [٣/و] والثوري والليث وابن عيينة وابن وهب والمغيرة المخزومي وغيرهم. وله سماع من مالك، فدونه كسماع ابن القاسم[3] وأشهب[4] [.....][5] فقلت فيه هذا البيت:

قَـدْ وَضَّـحَ الـعُـلُـومَ وَأَلَّـمَـسَـالِـكْ رَوَى عَـنْ شَيْـخِـهِ الإِمَـام مَـالِـكْ [الرجز]

قال شيخنا رحمه الله: وكان سحنون يجله، ويعرف حقه، وإذا سئل بحضرته أحال عليه، وكان أسنّ من سحنون[6].

[محل إقامته ومدفنه]: وكان ساكنًا بحصن من جهة صفاقس غربًا منها، ويسمى ذلك الحصن يونقا بالياء التحتية المضمومة بعدها واو ساكنة ثم نون ساكنة فقاف مفتوحة بعدها ألف[7]. وكانت تسمى قصر تليدة[8]، فبينها وبين صفاقس ثمانية وعشرين ميلا. وخرب ذلك الحصن اليوم لأنه استولى عليه البحر. وضريح الشيخ إلى الآن مشهور مزار[9]، يتبركون به، ويأتون إليه من كل مكان بالوعايد والنذور. فقلت هذه الأبيات في معرفة الزيارة للشيخ: [٣/ظ]

وَبَـعْـدَ حَـمْـدِنَـا عَـلَـى ٱلْإِسْلَامِ وَٱلـشُّـكْـرِ لـلـه عَـلَـى ٱلْإِنْـعَـامِ
يَـا زَائِـرًا بِـالـلـهِ لِـلْـمَـقَـامِ إِذَا دَخَـلْـتَ بَـادِرْ بِـالـسَّلَامِ
وَاطْـلُـبْ مِـنَ الـلـه رِضَـا الـكِـرَامِ بَـعْـدَ الـوَضُـوءِ تَـبْـرَأ[10] مِـنْ سَـقَـامِ

---

١. أي مقديش.

٢. الوطن كلمة يستعملها التونسيون بمعنى الجهة ويقصد مقديش بهذا الوطن صفاقس وليس تونس كلها أو إفريقية.

٣. عبد الرحمان بن القاسم العتقي(-١٩١ه/٨٠٦م) مصري من الطبقة الوسطى من أصحاب مالك. ترتيب المدارك، ٣/٢٤٤-٢٦١.

٤. أبو عمرو أشهب بن عبد العزيز(-٢٠٤ه/٨١٩م). من الطبقة الوسطى من أصحاب مالك. انتهت إليه الرئاسة بمصر بعد وفاة ابن القاسم. ترتيب المدارك، ٣/٢٦٢-٢٧١. وهنا ينقل عن طبقات أبي العرب في ترجمة عنبسة، ص١٥٠.

٥. محل كلمة غير مقروءة

٦. ينقل مقديش عن المالكي في رياض النفوس، ١/٢٤٢ و٢٤٤. وسحنون من مواليد ١٦٠هـ وعنبسة مولود في حدود ١٢٤ه.

٧. تبعد يونقة عشرة كم جنوب مدينة المحرس. وظلت هذه القرية المحصنة إلى بداية العصر الحفصي. ويعدّ هذا الحصن الذي استعمل كرباط في النصف الثاني من القرن ٢ ه/٨ م، ورابط فيه أبو خارجة عنبسة، أقدم حصون إفريقية. الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، ناجي جلول، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٩، ص ١٦٩.

٨. صحّفت الكلمة في نزهة المشتاق إلى قصر تنيدة كما صحّفت يونقا إلى بنقة بالباء. قال الإدريسي: منها (أي سفاقس) إلى قصر بنقة عشرة أميال ومن قصر بنقة إلى قصر تنيذة ثمانية أميال. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبو عبد الله محمد بن محمد بن إدريس ‹›الشريف الإدريسي››، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ١/٣٠٥. ذكر مقديش هذا النص بأسمائه وبأبعاده الجغرافية عينها وببيان أكثر في النزهة في وصف الطريق الساحلي من صفاقس إلى جربة قال: ومن قصور المجوس إلى قصر ينقة (وهو المسعودة) عشرة أميال ومن قصر ينقة إلى قصر تليدة ثمانية أميال، ومنه إلى قصور الروم أربعة أميال (وقصر تليدة هو طرف الكنائس وهناك وادي المالطين). نزهة الأنظار، ١/١٤٠-١٤١. ومن هنا يظهر أنّ المؤرخين والجغرافيين يفرّقون بين يونقة وقصر تليدة وهو عكس ما ذهب إليه مقديش في موضع لاحق في النزهة عند الترجمة لعنبسة (ج٢، ص٢٤٣) ونقل عنه المؤلف في قولهما عن يونقا: ‹›وكانت تسمى قصر تليدة››.

٩. إلى هنا ينتهي النقل عن النزهة ٢/ ٢٤٣ وما يليه إضافة من المؤلف.

١٠. في المخطوط رسمها مقصورة على النطق العامّيّ: تبرى.

ثُـــمَّ تَـــوَسَّـــلْ بِـــالـــشَّـــيْـــخِ الـــهُـــمَـــامِ وَصَـــحِّـــحْ الـــنِّـــيَّـــةَ مَـــعَ اِكْـــتِـــتَـــامِ

وَزُرْ حَـفِـيـظَـةُ[1] مِـــنَ الأَعْـــجَـــامِ[2] تَـــنْـــجُـــو[3] مِـــنْ كَـــلِّ عَـــيْـــبٍ عَـــامِ

وَاِخْـــتِـــمْ بِـــالـــصَّلَاةِ وَالـــسَّلَامِ عَـــلَـــى الـــنَّـــبِـــيِّ وَآلِـــهِ الـــكِـــرَامِ

وحفيظه المذكور هو النبيه الفاضل سيدي أحمد التركي الحنفي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى[4]. وتركنا كمال القصيدة خوفا من الطول.

[ذكر كرامات الشيخ عنبسة]: وللشيخ كرامات في حياته وبعد وفاته[5]، كما يشهد[6] به أهل التحقيق وعامة الناس. فقلت فيه هذين[7] البيتين:

لَـــهُ الـــكَـــرَامَـــةُ(٨) جـــاءَتْ فِـــي الـــحَـــيَـــاةِ كَـــذَا ظُـــهُـــورُهَـــا بَـــعْـــدَ الـــمَـــمَـــاتِ

مَشْـــهُـــورٌ بِالـــوَفَـــا(٩)وَامْعْرَفَـــاتِ(١٠) مَـــنْ حُـــبُّـــهُ مُلَازِمُ الـــطَّـــاعَـــاتِ [البسيط]

قال شيخنا رحمه الله: فيحكى عنه عجائب من الأخبار والوصف لما لم يكن، فيكون مثل ما يحكى بالأندلس عن ابن مخلد[11]. ويحكى أنه وقعت في زمنه شدة، فطلبوا منه الاستسقاء[12]، فأمر الناس بالصوم والصلاة وصلاح[13] ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء[14] ومعه [٤/و] سائر[15] الحيوانات، ففرق بينها وبين أولادها، ووقع البكاء والضجيج، فأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم

١. رسمها المؤلف في أصله بالضاد والأصح ما أثبتناه بالظاء من الحفظ والحفيظ يطلق على القائم على حفظ المقام أو الزاوية أو المعلم الديني
٢. صيغة غريبة اقتضاها الوزن ليست من الفصيح. يقصد العجم أو الأعاجم غير العرب.
٣. في المخطوط: تنجا من غير الفصيح والصحيح تنجو.
٤. سيأتي الحديث عنه في الفقرة الأخيرة من هذا النص.
٥. هذه الجملة منقولة عن النزهة، ٢٤٣/٢ وما بعدها إلى بيتي الشعر من المؤلف.
٦. في الأصل المخطوط: تشهد بالتأنيث.
٧. في المخطوط: هذا البيتين.
٨. في المخطوط: له الكراما.
٩. في المخطوط: بالوفا من دون الهمزة. وهذه عادته لا يثبت الهمزة في آخر الألفاظ المهموزة. وقد يقتضي الوزن الإسقاط في هذا المحلّ.
١٠. لفظ يبدو أنه من اختراع الكاتب لضرورة الشعر.
١١. أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد القرطبي: صاحب المسند والتفسير، ولد قريبا من ٢٠٠ه سمع من يحيى بن يحيى الليثي ويحيى بن بكير وابن حنبل وابني شيبة عثمان وأبي بكر. قرأ على سحنون وعون بن يوسف في القيروان. يعود إليه الفضل وإلى محمد بن وضاح في جعل الأندلس دار حديث بفضل الكتب الكثيرة التي أدخلها. وكان اعتماده في الفتوى على الآثار ولا يقلد أحدا. تروى عنه أخبار في الزهد والكرامات. توفي سنة ٢٧٦ه. تاريخ علماء الأندلس، أبو الوليد عبد الله بن محمد ‹ابن الفرضي›، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م، ١٤٣/١-١٤٦ والصلة، أبو القاسم خلف بن عبد الملك ‹ابن بشكوال›، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٩، ١٩٥/١-١٩٨ وسير أعلام النبلاء، ٢٨٥/١٣-٢٩٦. ومن أخبار زهده وكراماته انظر: الصلة لابن بشكوال، ج١، ص١٩٨ وعنه ينقل الذهبي ويزيد في سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص ٢٩٠-٢٩٢-٢٦٥.
١٢. في المخطوط: الاستسقا بإسقاط الهمزة.
١٣. في نزهة الأنظار التي ينقل عنها إصلاح. وفي بعض نسخها صلاح (نزهة الأنظار، ٢٤٣/٢ النص والحاشية). وفي سير أعلام النبلاء: الصلاح من دون ذات البين. سير أعلام، ٤٩٨/٤.
١٤. في المخطوط رسمها بالقصر: الصحرى.
١٥. في المخطوط: ساير بالياء.

صلى وخطب بالناس فسقوا. وهذا نظير ما وقع لموسى بن نصير[١].

قلت: ولم يزل الناس عند القحط يذهبون لضريحه يستسقون به فيسقيهم الله. ولا تنقطع الزيارة منه، خصوصا ليلة الجمعة، فإنّ زيارته شرح الصدور، وتدفع الضرور، وتجبر كل قلب مكسور. فقلت فيه للمخاطب هذه الأبيات في المعنى:

قُمْ فَبَادِرْ لِلزِّيَارَةِ وَاغْتَنِمْهَا ... وَالْتَمِسْ مِنْ حُلُولِ طِيبِهَا فَضْلًا

وَشَمِّرْ وَزِدْ فِي سَيْرِكَ بِعَزْمٍ ... عَسَاكَ تَبْلُغُ الْمُنَى سَهْلًا

وَنَادِ[٢] بِهِ إِذَا أَصَابَكَ نَائِبٌ[٣] ... تَجِدْهُ عِنْدَ كُلِّ ضِيقَةٍ[٤] عَجَلًا [البسيط]

قال شيخنا رحمه الله ورضي عنه: مما وقع في هذه الأعصار أن بعض الناس كانوا مسافرين في البحر فنزلوا لزيارته، فقال بعضهم: وددنا لو وجدنا من يبيع لنا شاة نتعشى[٥] منها، فنظروا فلم يجدوا أحدًا[٦] من العرب[٧]، ولا من غيرهم، فدخلوا ضريح الشيخ وخرجوا، فإذا بصوت شاة، فتبعوا [٤/ظ] صوتها، فإذا بشاة مكتوفة على عادة العرب، ينذرون ويضعون نذورهم حذو الشيخ إذا لم يجدوا زائرًا، فأخذوها وأكلوها وعدّوها من كرامات الشيخ رحمه الله ونفعنا به –آمين-[٨].

قلت: وقد حكي لي عن بعض الزوار[٩]، أن رجلاً منهم اشتهى في زيارته لمقام الشيخ أكل تمر وزبد حليب، فنظر[١٠] فلم يجد أحدًا من العرب ولا من غيرهم، فدخل ضريح الشيخ فلم يجد شيئاً من ذلك، فأقسم[١١] عليه إن لم يأكل تمرًا وزبد حليب[١٢] في هذا اليوم وهذه الساعة لم أعد لزيارتك أبدًا، وذلك على قدر العقيدة يستفيد[١٣] الإنسان، فما استتم كلامه إلا والتفت إلى شباك في القبّة ونظر، فإذا

١. أبو عبد الرحمن موسى بن نصير اللخمي: ولد سنة ١٩ه. فاتح بلاد المغرب والأندلس وجزائر كثيرة في البحر المتوسط ووالي إفريقية سنة ٧٩ه. تروى عنه عجائب في البلاد التي فتحها منها خبر الاستسقاء هذا في سنة ٩٣ ه. توفي سنة ٩٧ه أو ٩٨ه. تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، ١٨٣/٢-١٨٥ وسير أعلام النبلاء، ٤/ ٤٩٦-٤٩٩. وخبر الاستسقاء في ص٤٩٨. وهذا الخبر بلفظه في نزهة الأنظار، ٢٤٣/٢.

٢. في المخطوط: نادي بالياء في آخرها.

٣. في المخطوط: نايب بالياء.

٤. ضِيقةٍ وضَيْقَةٍ: وزن فعلة. والجمع الضَّيق وهو الفقر وسوء الحال. لسان العرب، ابن منظور، مادة ضيق، تحقيق: لجنة من دار المعارف، دار المعارف، ٢٦٢٧/٤.

٥. في المخطوط : نتعشّا بالألف الممدودة.

٦. في المخطوط: ‹‹أحدٌ›› بالرفع والصواب ما أثبتناه منصوبا لأنه مفعول.

٧. المقصود بالعرب هم أهل البوادي.

٨. نزهة الأنظار، ٢٤٣/٢. وهنا ينتهي النقل عن نزهة الأنظار وما يلي من كرامات ومعلومات فمن سمعه ونقله.

٩. في المخطوط: ‹‹الزيار›› في هذا الموضع وغيره.

١٠. في المخطوط : نضر.. بالضاد

١١. في المخطوط: ‹‹فقسم عليه››.

١٢. في النص: ‹‹تمرا وزبدا حليب›› وهو سقيم غير واضح الإعراب والأولى زبدا حليبا مركب تمييزي أو زبد حليب بوصفه مفعولا به. وقبله بسطرين وبعده بثلاثة سطور في المخطوط جاء بتركيب أفصح قال: ‹‹وزبد حليب›› و››بتمر وزبدة حليب››.

١٣. في المخطوط: ‹‹يستفاد›› وهذا من الاستعمال العامي.

فيه قدح كبير مملوء[١] بتمر وزبدة[٢] حليب، فأخذه وفرق ما فيه على الزوار الذين معه، فوافق قدرهم بالعدد، فعلموا أن هذا الأمر كرامة من الشيخ رحمه الله، فحمدوا الله على ذلك، وزاد اعتقادهم فيه. وله كرامات كثيرة اقتصرنا عليها[٣]. فقلت فيه في هذا المعنى: [٥/و]

كَـرِيـمٌ بِـالـعَـطَـا وَالـجُـودِ وَالـفَـضَـائِـلِ[٤] وَسَـابِـقٌ بِـخَـيْـرِهِ مِـثْـلَ الأَوَائِـلِ[٥]

تُـهْـدَى[٦] لَـهُ الـوَعَـائِـدُ وَالـنَّـذَائِـرْ[٧] تُـعْـطَـى[٨] لِـكُـلِّ قَـاصِـدٍ وَسَـائِـرْ [٩] [الرجز]

فإنّ الزائر له والمنادي له لم يخب إذا طلبه، وعلى صدق النية يأتي العمل.

وقد حكي لي أيضا أنّ بعض الناس كانوا مسافرين في البر وعندهم غنم مقبلين بها إلى المحرس[١٠]، فخافوا عليها من العدو، فنذروا نذرًا وتعاهدوا عليه: إن وصلوا سالمين بأنهم يذبحوا شاة في مقام الشيخ، فلما وصلوا سالمين نكسوا على رؤوسهم، وامتنعوا من إعطاء النذر الذي نذروه، فما[١١] باتوا تلك الليلة إلا وغنمهم أصبحت كلها منفوخة[١٢]، ووقع لهم آلام في أبدانهم[١٣]، فلم يسلموا من ذلك إلا بذبح خمسة شياه[١٤] عند مقام الشيخ، فعفيت الغنم، وشفي الألم.

ورأى بعضهم الفاضل سيدي أحمد التركي في المنام فقال مخاطبًا لهم: يا خائنين العهد! لماذا منعتم النذر الذي نذرتموه؟ لولا ما رجعتم وتبتم إلى الله لذهب سعيكم كله. فتابوا كلهم لله على يد الشيخ في مقامه عند قبره، وأصلحوا نيتهم معه.

وقد حكي لي أيضا [٥/ظ] أن الشيخ رحمه الله كان يقرئ[١٥] تلاميذه من قبره بعد موته. ويكلمهم من

١. في المخطوط: قدحا كبيرا مملووا بالنصب.
٢. في المخطوط: زيدة بالياء بدل الباء.
٣. هنا يخال القارئ أن المؤلف سيتوقف عن سرد المناقب غير أنه سيستأنف ذكر الكرامات بعد البيتين الآتيين.
٤. في المخطوط: الفضايل بالياء بدل الهمزة.
٥. في المخطوط: الأوايل بالياء.
٦. في المخطوط: تهدا بالألف الممدودة.
٧. في المخطوط: الوعايد والندايد بالياء.
٨. في المخطوط: تعطا بالألف الممدودة.
٩. في المخطوط: ساير بالياء.
١٠. المحرس كلمة عربية تعني موضع الحراسة. تأسس قصر المحرس عقب ثورة صاحب الحمار ٣٣٦ه/٩٤٧م وقبل الهجمة الهلالية حوالي ٤٤٤ه/١٠٥٢م أي في العهد الفاطمي أو الزيري الأول وذلك لحماية الساحل الجنوبي لصفاقس وظهيره من التهديدات البحرية. أول من أشار إلى وجوده هو الإدريسي مع تحريف الاسم قصر المجوس بوصفه محطة أساسية في الطريق البحري بين صفاقس وقابس (نزهة المشتاق، ٣٠٤/١) وتواصلت فاعليته بعد الهلاليين يلجأ إليه أهالي المنطقة ثم استغله الهواريون لإنشاء نواة قرية وتعميرها أطلق عليها في القرن ١٣/٧م قرية المحرس. انظر: تاريخ المحرس في العصر الوسيط، أحمد الباهي، ص ص٧-٥٦-١٢٣-١٢٤.
١١. في المخطوط: ‹‹فلما››، والصواب ما أثبتناه لوجود حرف إلا في الجملة.
١٢. كتب في الحاشية منتفخة.
١٣. في المخطوط: ‹‹بدنهم››.
١٤. في المخطوط: أشياه.
١٥. في المخطوط : يقري بالياء بدل الهمزة.

قبره. ويردّ الجواب عليهم في بعض مسائل[١] علمية. قيل إنهم أكملوا[٢] قراءة كتبهم التي كانوا يقرؤون بها عليه في حياته. وقيل إنهم تمادوا في قراءتهم عليه حتى انتقلوا إلى الآخرة. وهذا كثير واقع متواتر بين الأولياء[٣]، ولا ينكره أحد، كما حكاه شيخنا رحمه الله في نزهة[٤] الأنظار على كلام الموتى وهو كثير. قال: وقد وقع للجيلاني[٥] وغيره ولبعض مشايخ السبكي[٦]. وقال: كان جدنا يخاطب الإمام الشافعي[٧]، فيكلمه من قبره[٨]. اهـ

وقد حكي لي أن رجلا أتى زائرا لمقام الشيخ، فلما شاهد بعض كراماته أمر ببناء قبة على قبره، فبنيت وجاءت على أحسن ما ترى العين من الحسن والنور. ومقامه بها مشهور. إذا دخله الداخل يرى فيه نورًا زائدًا[٩] على غيره. وكل من زاره ودخل مقامه حصل له من الفرح [٦/و] والسرور ما لا يعلمه إلا الله[١٠].

والكلام في تعدد كراماته كثير[١١]، يستدعي مؤلفًا مختصًا، بل لا يكفي فيه مؤلف واحد، لأن كل واحد قد شاهد من بركاته شيئًا كثيرًا. وتتبع ذلك يطول. والمقصود هو الإعلام بأنه كان من أولياء الله المقربين، وكراماته متواترة عند الناس حيًا وميتًا، كما هو مشاهد، وفي هذا القدر كفاية.

قال شيخنا رحمه الله وكانت وفاته رحمه الله بشهر ربيع سنة عشرين ومائتين اهـ[١٢].

[الحديث عن حافظ المقام أحمد التركي الحنفي وبناء القبة]: ومن أجلّ خدامه وحفظائه[١٣] الفاضل

---

١. في المخطوط : مسايل بالياء.

٢. في المخطوط: ‹‹كملوا››.

٣. في المخطوط: الأوليا بإسقاط الهمزة في آخرها.

٤. في المخطوط: نزهت بالتاء المفتوحة المتطرفة بدل الموصولة المثناة.

٥. الإمام الزاهد العارف محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح الجيلي الحنبلي شيخ بغداد. ولد بجيلان سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م. رحل إلى بغداد ليأخذ الفقه والحديث والأدب وصنف في الأصول والفروع وأظهر الله الحكمة على لسانه. لازم الخلوة والرياضة. له كرامات منها الصحيح ومنها المكذوب عليه. توفي سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م ودفن في مدرسته. سير أعلام النبلاء، ٢٠/٤٣٩-٤٥١.

٦. لم يعيّن المؤلف السبكي والظاهر أنه تاج الدين لما جاء في قوله: ‹‹كان جدّنا››. فآل السبكي نسبة إلى سبك المنوفية عائلة علمية مصرية شافعية مرموقة أقام أفرادها في مصر والشام يتقلدون الوظائف العلمية والقضاء. فالجد القاضي زين الدين عبد الكافي ولد سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م وتوفي سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٥م. والأب تقي الدين أبو الحسن علي كان معاصرا للمزي والذهبي. ولد سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م وتوفي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. والابن وهو هاهنا المقصود تاج الدين عبد الوهاب صاحب طبقات الشافعية. ولد سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م وتوفي سنة ٧٧١هـ/١٣٧٠م. وله أخ أسنّ منه هو بهاء الدين ولد سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م وتوفي في مكة سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م. انظر: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، سراج الدين عمر بن أحمد الأندلسي ‹‹ابن الملقن››، تحقيق: أيمن نصر الأزهري وسيد مهنى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٤١٣-٤١٤.

٧. إمام المذهب أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الغزي القرشي المطلبي ولد سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م وتوفي سنة ٢٠٤هـ/٨٢٠م. أخذ عن مالك وابن عيينة ومحمد بن الحسن. وعنه الحميدي وأبو عبيد القاسم وابن حنبل وإسحاق بن راهويه. إمام في الحديث والفقه والعربية والأنساب والتاريخ. صنّف في الفروع والأصول. له الرسالة والأم. وينسب إليه ديوان شعر. سير أعلام النبلاء، ١٠/ ٥-٩٩.

٨. نزهة الأنظار، الباب الرابع في ذكر بعض أهل الخير والصلاح من العلماء والأولياء المتقدمين بصفاقس، ٢/٢٣٧.

٩. في المخطوط: نور زائد بالرفع في كليهما.

١٠. كان الأولى أن تؤخر هذه الفقرة إلى المحل الذي سيتكلم فيه عن حافظ المقام أحمد الحنفي التركي وتاريخ بناء القبة .

١١. جاء في الأصل: ‹‹كثيرا›› نائب عن المفعول المطلق، والأصحّ ما أثبتناه اسم موصول مرفوع.

١٢. خطأ من مقديش فإنّ وفاته سنة عشر ومائتين وليست سنة عشرين.

١٣. في المخطوط: حفضايه بالياء وبالضاد.

النبيه أبو العباس سيدي أحمد التركي الحنفي رحمه الله[1]. قيل إنه الذي أتى زائرا لقبر الشيخ، وشاهد كراماته، وسمع خطابه لتلاميذه من القبر، فأقام هناك في خدمة ضريح الشيخ، ولم يبرح منه حتى توفي -رحمه الله- ولم تعلم سنة وفاته، ودفن حذو مقام الشيخ ملاصقا له من جوف خارج القبة، وعلى قبره [٦/ظ] من الهيبة ما ليس على غيره، فقلت فيه هذين البيتين:

هَـذَا الـخَـدِيـمُ[2] بِـالـشَّـيْـخِ اقْـتَـدَى[3] قَـدْ نَـالَ مِـنْـهُ سِـرًّا مُـهْـتَـدا

يَـرْحَـمْـهُ الـلـه كَـيْ يَـبْـلُـغَ الـمُـنَـى بِـنَـعِـيـمٍ فِـي الـجِـنَـانِ مُـخَـلَّـدًا [الـرجـز]

وقيل هو الذي بنى قبة الشيخ، كما بنى المدرسة التي حذو القبة، ولم تكمل لوفاته، وهي إلى الآن خراب لم تعمر. وسبب بنائها أنه جعلها لطلبة الشيخ رحمه الله، فتعيّن أنه قريب منه رحمه الله. وقيل إن الذي بنى القبة رجل من ‹‹أولاد بريك›› يقال له الحاج أحمد. والأول أظهر لأن الحاج أحمد ابريك[4] كان خديم الشيخ وحفيظه بعد سيدي أحمد التركي الحنفي رحمهما الله جميعًا. وإلى الآن أولاد الحاج أحمد ابريك خدام[5] لضريح الشيخ وحفظائه يتوارثون خدمته عقبًا بعد عقب. فإذا مات واحد منهم، قام الآخر مقامه. وهم مجتهدون في ذلك غاية الاجتهاد، أعانهم الله على ما أولاهم، ومن كل [٧/و] هَمٍّ ومرض عافاهم، إنه جواد كريم رؤوف رحيم. ولم يزالوا قائمين به حق القيام على مرور السنين والأيام. اللهم اغفر ذنوبنا، واستر بفضلك عيوبنا، بجاه سيدنا محمد نبينا وشفيعنا صلى الله عليه وسلم

[الخاتمة]: وكان الفراغ في هذا التاريخ ليلة الاثنين من أول شهر صفر سنة ثمانية وثلاثين ومئتين وألف[6]. وهذا آخر ما كتبته يدي الفانية سمعًا ونقلا. ونعوذ بالله من الزيادة والنقصان، وماغلط به اللسان. ورحم الله عبدًا قرأ هذا التاريخ ورأى فيه نقصًا أو زيادة أو تحريفًا أو غلطًا فليصلحه بتحقيق، ليصل الثواب للجميع. وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير -آمين-.

يَـا رَبَّـنَـا بِـحَـقِّ صَـاحِـبِ الـرِّسَـالَـة اشْـفِ عُبَيْدَكَ مَحْمُودَ السَّيالَة [الكامل]

سبط الشيخ الإمام العالم الهمام[7] علامة زمانه وفريد دهره وأوانه حامل قوي التحقيق ومالك أزمة التدقيق القدوة العمدة المحقق المدقق الحاج الناسك الأبرّ أبي الحسن سيدي علي اللومي -رحمه الله-[8].

---

١. لم أقف على مصدر ترجم له.

٢. هو القائم على مقام أو زاوية أو معلم ديني ويسمى أيضا الحفيظ.

٣. في المخطوط: اقتدا.

٤. هكذا وردت في المخطوط : مرة بلا ألف ومرة بإثبات الألف في أولها. وهو اسم علم ولقب عائلي متداول إلى اليوم.

٥. في النص رسمه المؤلف بالفتح: ‹‹خداما››.

٦. في النص رسمه المؤلف: ماتين وألفا.

٧. في المخطوط رسمها الكاتب بالواو: الهموم.

٨. هو جدّه للأم الشيخ أبو الحسن علي بن علي بن محمد الأومي (حرّف إلى اللومي) توفي في جمادى الأولى ١٢٠٤ه/ جانفي فيفري ١٧٩٠م. أثنى على علمه وفضله وورعه تلميذه الذي شاركه في شيوخه التونسيين والمصريين محمود مقديش. درس علوم الشريعة واللغة والعلوم الطبيعية والحكمية في صفاقس والقيروان وتونس ومصر التي دخلها حوالي ١١٥٤ه/١٧٥١ وأقام فيها خمس سنين وألقى بعض الدروس في الجامع الأزهر. أجازه شيوخه في عشرات الكتب في العقيدة والتفسير والحديث والسيرة والفقه واللغة والأدب. رجع محملا بخزانة من الكتب فأخذ عنه علماء صفاقس وشعراؤها: الطيب الشرفي ومحمد الزواري ومحمد المصمودي وعلي ذويب وإبراهيم الخراط وعلي

الخاتمة

نجز تحقيق هذا المخطوط المكتوب منذ ما يزيد على القرنين بخط مؤلفه عن نسخة يتيمة لم أجد غيرها. وسبقته دراسة مستفيضة للسيرة العلمية والشخصية لكل من صاحب المناقب وهو الشيخ أبو خارجة عنبسة تلميذ مالك من القرن الثاني وبداية الثالث للهجرة/ الثامن والتاسع الميلادي، وصاحب المخطوط محمود السيالة من رجال القرن ١٢ هجري/ ١٨ ميلادي. وفيه عرض المؤلف لبعض المناقب والكرامات المشتهرة عن عنبسة في حياته وبعد وفاته، والتي كانت تنقل مشافهة أو مدونة في بعض المصادر التي اعتنت بتاريخ علماء صفاقس أو كتب التراجم المالكية التونسية والمغربية عامة. وتحدّث عن تاريخه العلمي في الرحلة والطلب عن كبار أئمة المشرق: مالك والثوري والليث وابن عيينة وابن وهب ... وعن آثاره العلمية ومكانته بين العلماء. كما تكلّم عن تاريخ مرابطة الرجل ووفاته في حصن يونقة، وتاريخ بناء المقام وتوسيعه. ومقامه لا يزال قائمًا ومزارًا إلى زمن محمود السيالة وإلى هذا اليوم.

والذي يميز هذا النص المخطوط عن باقي مؤلفات السيالة أنه جاء كاملاً ومؤرخًا لم يعتريه النقص الذي اعترى كثيرًا من كتبه ورسائله المحفوظة في خزائن دار الكتب الوطنية بتونس، والتي تعدّ بالعشرات. ورغم أنه مسودة فيها الشطب وبعض الطمس، إلا أنه لم يفسده حتى تصبح قراءته مستحيلة، كما وقع لمخطوطات أخرى له. كما أنه قد سلم من عبث الأيادي التي أفسدت ترتيب أوراق بعض المخطوطات بالرغم من أن المؤلف كثيرًا ما يستعمل نظام التعقيبة في مسوداته، ونقلت أوراقًا من محلها في الكتاب الصحيح إلى محل آخر.

هذا ويشار إلى أنّ رسالة أخرى بعنوان قريب من هذا العنوان وهي مناقب "أحمد عنبسي المغربي الفاسي الشريف العلوي" كانت متصلة بهذا المخطوط (رقمها ١٩٦١١ في دار الكتب الوطنية بتونس) ولكن لم يثبت عند فهرستها أنها لمحمود السيالة، وإنما هي لمؤلف مجهول يظهر أنه من تلاميذ إمام الصوفية القطب أبي العباس أحمد ابن ناصر الدرعي (ت ١٩ ربيع الثاني ١١٢٩ه/ ١أفريل ١٧١٧م). وبقراءتها تبيّن أنّه شخص آخر غير أبي خارجة فهو مغربي قدم إلى يونقة هربًا من أمير المغرب الذي عرض عليه القضاء. وجمع بين العلم والتأليف في الأصول والفروع والزهد والعمل الصالح. وكان له اتصال بالحاكم الأغلبي أبي إبراهيم أحمد بن محمد (ت ذي القعدة ٢٤٩ه/ديسمبر ٨٦٣م) الذي قدم إليه من القيروان ليستفتيه في نازلة.

الغراب... وكان لا يقرئ إلا بتحقيق وباستدعاء المراجع في درسه. كان مترفعا عن المناصب ميالا إلى العزلة رافضا للمرتب الذي يمنحه الحكام من المجابي المخزنية التي يرى أن أغلبها من الحرام. له مؤلفات انفرد حفيده محمود السيالة بذكرها وبعضها مخطوط في دار الكتب الوطنية: تقييد على مقامات الحريري ورسائل في التوحيد والتجويد والفقه والحساب والهندسة وحاشية على رجز أبي مقرع في الفلك. انظر ترجمته الوافية في نزهة الأنظار، ٢/ ٤٢٣-٤٢٩ وتراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، ١/٦١-٦٩ الذي ينقل عنه وله إضافات من اطلاعه على ثبته وإجازات شيوخه وما كتبه حفيده.

ثبت المصادر والمراجع

المخطوطات: كلها للمؤلف محمود بن محمد بن الحاج محمد السيالة في خزائن دار الكتب الوطنية بتونس:

- تلقين المقالات الأدبية في معرفة الطريقة القادرية، رقم ٢٠٣٥٤.
- الجواهر النورانية في الأدوية الجسمانية والروحانية، رقم ١٩٣٤٧.
- خطبة عيد الفطر رقم ١٩٤٧٢.
- رسالة إلى أحمد باي، رقم ١٩٢٢٥ و١٩٢٣٠.
- رسالة في بيان مساوئ القاضي شيخ روحه وأسلافه وقايد صفاقس وكريشان عون القاضي يغلب على الظن أنها موجهة إلى أحمد باي أو الوزير صاحب الطابع، رقم ١٩٢٢٧.
- رسالة إلى شاكير صاحب الطابع في بيان مظالم قاضي صفاقس ومنشئ ثروته واغتصابه مع تابعه العدل محمد كريشان لقراريط من أرض زوجته بجهة الحزق، رقم ١٩٣٦٢.
- رسالة إلى الشيخ عبد الرحيم المغربي، رقم ١٩٤٢٣.
- رسالة إلى الشيخ محمد الإمام المنزلي، رقم ١٩٦٩٥.
- رسالة إلى محمد التركي، رقم ١٩٣٨٢.
- رسالة إلى محمد حامد النوري، رقم ١٩٦٨٣.
- رسالة إلى محمود العذار وجملة الإخوان القادرية، رقم ١٩٣٨١.
- رسالة الترقي وسلوكه إلى الشيخ محمد بن ملوكة، القطعة الثانية ضمن مجموع رقمه ١٩٢٥٧.
- شهد الشهود في بيان مراتب الشهود، رقم ١٩٢٤٩ و١٩٢٥١ و١٩٢٥٤ و١٩٣٠٠ و١٩٣٠١.
- لولب السيادة لصعود سلم السعادة، رقم ٢٠٣٥٤.
- المسائل البشرية في المطالب الحكمية: رسالة إلى القاضي الحنفي مصطفى بيرم، القطعة الثالثة من [٥/و] إلى [٨/و] ضمن مجموع رقمه ١٩٢٦٨.
- المنارة الذهبية في الآداب العقلية رسالة إلى أبي العباس حمودة الشباب، رقم ١٩٢٥٦ و١٩٢٥٧و١٩٢٦٦ و١٩٤٠٤.
- مجموع رقمه ١٩٢٦٨.
- مناقب أبي خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي، رقم ١٩٢٦٩.

- أرشيف تفقدية التراث للجنوب الشرقي ‹‹دار الجلولي بصفاقس›› الحافظة ٢٤، الملف ٩٠، الوثائق ٢٧٣٤ إلى ٢٧٣٩.

الكتب

- إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، أحمد بن أبي الضياف، تحقيق: لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية بتونس، منشورات زخارف
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، أبو عبد االله محمد بن أحمد المقدسي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٤١١ه/ ١٩٩١م.
- الاستيعاب في أسماء الأصحاب، أبو عمر يوسف ابن عبد البر، تصحيح وتخريج: عادل مرشد، دار الأعلام، الأردن، ط١، ١٤٢٣ه/ ٢٠٠٢م.
- الأصل والفصل في تاريخ عائلات صفاقس، عبد الواحد المكني، دار محمد علي الحامي، صفاقس، ط١، ٢٠١٦م.
- الإنباه على قبائل الرواة، أبو عمر يوسف ابن عبد البرّ النمري، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٥ه/ ١٩٨٥م.
- تاريخ صفاقس: الجزء٣: رجال وأعلام، عبد الكافي، التعاضدية العمالية، صفاقس، ط١، ١٩٨٧م.
- تاريخ علماء الأندلس، أبو الوليد عبد الله بن محمد ‹‹ابن الفرضي››، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ١٤٢٩ه/٢٠٠٨م.
- تاريخ القضاء في صفاقس من ١٥٧٤م إلى ١٨٨١م، رضا خماخم، تبرورة للنشر، صفاقس، ط١، ٢٠١٧.
- تاريخ المحرس في العصر الوسيط، أحمد الباهي، دار صامد، صفاقس، ط١، ٢٠١٧م.
- تجريد أسماء الصحابة، شمس الدين الذهبي، دار المعرفة، بيروت، د ت.
- تراجم المؤلفين التونسيين، محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٤ه/ ١٩٨٤م.
- ترتيب المدارك، القاضي عياض بن موسى السبتي، وزارة الأوقاف المغربية، ط٢، ١٤٠٣ه/ ١٩٨٣م.
- تهذيب التهذيب، شهاب الدين ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٥ه.

- التوضيح شرح الجامع الصحيح، سراج الدين أبو حفص ‹ابن الملقن›، تحقيق: لجنة من دار الفلاح، وزارة الأوقاف، قطر، ط١، ٢٠٠٨م.
- ذيل على الميزان، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، تحقيق: صبحي السامرائي، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٤٠٧ه/١٩٨٧م.
- الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، ناجي جلول، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٩م.
- الرباط ومجتمع المرابطين بإفريقية إلى نهاية القرن ٣هج، رياض المرابط، شهادة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس، ١٩٨٨.
- رحلة أبي محمد عبد الله بن محمد التجاني، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، ١٩٨١م.
- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، أبو بكر عبد الله المالكي، تحقيق: البشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٤ه/١٩٩٤م.
- سجل أسماء العرب، لجنة من الأساتذة بإشراف محمد بن الزبير، جامعة السلطان قابوس، مكتبة لبنان، بيروت، ط١، ١٤١١ه/١٩٩١م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٥م.
- الصلة، القاسم بن خلف ابن بشكوال، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٩٨٩م.
- طبقات علماء إفريقية، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن ثعلبة الخشني، تحقيق: محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٢ه/١٩٩٣م.
- طبقات علماء إفريقية وتونس، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم القيرواني، تحقيق: علي الشابي ونعيم اليافي، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢، دت.
- الطرق الصوفية بصفاقس: مواردها الاقتصادية ومعالمها الأثرية خلال القرنين ١٢ و١٣ه/ ١٨ و١٩م، الأزهر الكسراوي، شهادة التعمق في البحث، كلية الآداب، تونس، ١٩٨٤-١٩٨٥م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر: تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمان بن خلدون، عناية: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١ه/٢٠٠٠م.
- العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، سراج الدين عمر بن أحمد الأندلسي ‹ابن الملقن›، تحقيق: أيمن نصر الأزهري وسيد مهنى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧ه/١٩٩٧م.

- علماء ضاعوا في الوَلاية، محمد الحبيب السلامي، قرطاج للنشر والتوزيع، صفاقس، ٢٠١٧م.
- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، أبو الفرج عبد الرحمان ابن الجوزي، ضبط: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣ه/١٩٨٣م.
- عمدة القاري، بدر الدين العيني، إدارة الطباعة المنيرية، (تصوير)، دار الفكر، دت.
- فهرس ابن خير، أبو بكر محمد بن خير الأموي الاشبيلي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي- دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤١٠هـ .
- قانون الأصفياء في علم نغمات الأذكياء، محمود السيالة، تحقيق: مصطفى علولو، شهادة التعمق في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية تونس.
- كتاب العمر، حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وإكمال البشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، بيت الحكمة، قرطاج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: لجنة من دار المعارف، دار المعارف، دت.
- لسان الميزان، ابن حجر العسقلاني، عناية: عبد الفتاح أبو غدة وابنه سلمان، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط١، ١٤٢٣ه/٢٠٠٢م.
- محمود السيالة، محمد محفوظ، مجلة الفكر، السنة ٨، العدد ٣، ديسمبر ١٩٦٢. (ص٥٥-٥٩)
- المسالك والممالك، أبو عبيد البكري، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، بيت الحكمة والدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م.
- المقفى الكبير، تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤١١ه/١٩٩١م.
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، محمود مقديش، تحقيق: علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب، بيروت، ط١، ١٩٨٨م.
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، أبو عبد الله محمد بن محمد بن إدريس ‹›الشريف الإدريسي››، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
- مدرسة الحديث في القيروان من الفتح الإسلامي إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ط١، ١٤١١هـ.
- معجم أسماء العرب، لجنة من الأساتذة بإشراف محمد بن الزبير، جامعة السلطان قابوس ومكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٤١١ه/١٩٩١.
- معجم أعلام الطب في التاريخ العربي الإسلامي، سليم عبابنة، دار البيروني للنشر، عمّان،

ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد العزيز البكري، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، دت.
- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، نور الدين علي بن أحمد السمهودي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، دت.

المراجع بالفرنسية

- La musique classique du Maghreb, Mahmoud Guettat, Sibdbad, Paris, 1980.
- Saints de la région de sfax : des hommes et des monuments, Othman Ammar, Med Ali Editions, Sfax, 2017.
- Sfax aux 18eme et 19eme siècles :chroniques d'une ville méditerranéenne, Ali Zouari, MED Ali éditions, Sfax et CPU, Tunis, 1er édition, 2016 .

النصوص المرضية
في تحقيق مذهب الحنفية
في الأراضي المصرية

تأليف:

العالم العلامة محمد بن أحمد السُّحيميّ (ت: ١٢٠١هـ)

تحقق لأول مرة على أربع نسخ

تحقيق وتعليق:

الأستاذ الدكتور

مقتدر حمدان عبد المجيد الكبيسي

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

العراق

المقدمة

تتناول هذه الرسالة كما صرح المؤلف نصوص فقهاء الحنفية التي تتعلق بموضوع الأراضي من حيث الملكية والتبعات المالية التي عليها، وكذلك فإن الشيخ السُّحيميّ لاحظ حدوث اختلاف في عائدية هذه الأراضي هل هي لبيت المال، أم لأربابها؟ وانتقى أمهات كتب الفقه الحنفي، واستخرج منها عشرة نصوص خاصة عن الأراضي وملكيتها.

تمكن أهمية تحقيق هذه المخطوطة، أنها لم تحقق من قبل، وأحسن المؤلف في انتقاء الكتب، وأحسن مرة أخرى في انتقاء النصوص التي هي محور رسالته. وفضلاً عن ذلك، موضوع الرسالة ضمن تخصصي الدقيق والذي أنجزت فيه تحقيق ما يزيد على خمس عشرة مخطوطة، لم تحقق من قبل، في التخصص ذاته، وإحدى هذه المخطوطات تمت طباعتها من قبل مركز جمعة الماجد.

ترجمة المؤلف:

هو الشيخ نور الدين محمد بن أحمد بن محمد بن علي[١] القرشي[٢]، الحسيني[٣]، الحنفي[٤]، القلعاوي[٥]، السُّحيميّ[٦].

تفقه على والده، وعلى الشيخ أحمد بن محمد الحماقي الحنفي (ت:١١٨٨ه)، وحضر دروس الشيخ مصطفى بن محمد بن يونس الطائي الحنفي (ت:١١٩٢ه) في الهداية. وكان من النجباء في دروس الفقه الحنفي مع الحشمة والديانة، ومكارم الأخلاق والصيانة[٧].

ويبدو أنه كان زميل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في حضور دروس الشيخ مصطفى بن محمد بن يونس الطائي، كما صرح بذلك الجبرتي[٨]. وبقي ملازمًا للشيوخ حتى أصبح فاضلاً نجيبًا، وبدأ يدرس

١. البغدادي، هدية العارفين، ج ٢، ص ٣٤٦. البيطار، حلية البشر، ج ١، ص ١٨٨. المرعشلي، معجم المعاجم، ج ٢، ص ١٧١. بلوط، معجم تاريخ، ج ٤، ص ٢٥٦٠.

٢. القُرشي: هذه النسبة إلى قريش. ينظر: السمعاني، الأنساب، ج ١٠، ص ٣٦٩.

٣. الحُسيني: هذه النسبة إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما. ينظر: السمعاني، الانساب، ج ٤، ص ١٦٨.

٤. نسبة إلى انتمائه إلى المذهب الحنفي.

٥. لأنه كان يسكن في قلعة الجبل فنسب اليها. ينظر: الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٤، ص ١٤١.

٦. السُّحيميّ: هذه النسبة إلى سحيم، وهو بطن من بنى حنيفة. ينظر: السمعاني، الأنساب، ج٧، ٩٢.

٧. الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٧٧. المرعشلي، معجم المعاجم، ج ١، ص ١٧١. بلوط، معجم تاريخ، ج ٤، ص ٢٥٦٠.

٨. الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٢، ص ١٧٧.

المهذب الحنفي، والمعقول. توفي سادس عشر شوال سنة ١٢٠١ه، ودفن عند والده بباب الوزير[١].

طلبه للعلم:

تتلمذ في أول الأمر على يد والده الشيخ أحمد بن محمد السُّحيميّ (ت:١١٧٨ه)، ثم بدأ بالأخذ عن شيوخ عصره، فبرع في جميع العلوم خصوصًا في التوحيد، فكان له فيه اليد الطولى والفهم السديد[٢]. حتى أصبحت محفوظاته تستوعب المقروء والمسموع، وتجمع معلوماته ما هو في الحقيقة منتهى الجموع[٣].

شيوخه:

أما أبرز شيوخه الذين أخذ عنهم فهم كما يأتي:

١. السُّحيميّ الأب: أحمد بن محمد بن علي الحسني القلعاوي المعروف بالسُّحيميّ، فقيه مصري، من أعيان الشافعية وصلحائهم في عصره. نسبته إلى قلعة الجبل. من مؤلفاته: تاج البيان لألفاظ القرآن، وتفسير سورة الفجر، ومناهج الكلام على آيات الصيام، والعطايا الربانية، والوضوح شرح النصوح وغيرها. توفي سنة ١١٧٨ه[٤].

٢. الشيخ الإمام العلامة الفقيه المعمر الشيخ أحمد بن محمد الحماقي الحنفي، كان أبوه من كبار علماء الشافعية فانتقل إلى المذهب الحنفي، والشيخ أحمد البنوفري والشيخ سليمان المنصوري وغيرهم. وتصدر رضي الله عنه لرؤيا رآها وكان يخبر بها من لفظه، وتلقى عن أئمة عصره كالشيخ أحمد الدقدوسي، والشيخ علي العقدي، ومحمد عبد العزيز الزيادي وغيرهم. وتصدر للإقراء والتدريس بالجامع الأزهر مدة سنين، ثم تولى مشيخة إفتاء الحنفية بعد موت الشيخ حسن المقدسي. وكان إنسانًا حسنًا دمث الأخلاق حسن العشرة صافي الطوية عارفاً بفروع المذهب، لين الجانب لا يتحاشى الجلوس في الأسواق والأماكن العامة وكان أخوانه من أهل العلم ينقمون عليه في ذلك فلا يبالي باعتراضهم، ولم يزل حتى توفي في سحر ليلة الجمعة خامس عشر صفر سنة ١١٨٨ه[٥].

٣. الشيخ الفاضل العلامة مصطفى بن محمد بن يونس بن النعمان الطائي المصري الحنفي، ولد سنة ١١٣٨ه، له مصنفات منها: توفيق الرحمن بشر كنز دقائق البيان، حاشية على شرح الاشموني، وشرح الشمائل وغيرها. توفي سنة ١١٩٩ه[٦].

---

١. الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص١٧٧. المرعشلي، معجم المعاجم، ج١، ص١٧١.
٢. المرعشلي، معجم المعاجم، ج١، ص١٧١. بلوط، معجم تاريخ، ج ٤، ص ٢٥٦٠.
٣. المرعشلي، معجم المعاجم، ج ١، ص ١٧١. بلوط، معجم تاريخ، ج٤، ص٢٥٦٠.
٤. نويهض، معجم المفسرين، ج ١، ص ٧٦.
٥. الجبرتي، عجائب الآثار، ج ١، ص ٤٦٦.
٦. الكملائي، البدور المضية، ج ١٨، ص ١٦٦. البغدادي، إيضاح المكنون، ج٢، ص٣٨٥.

الثناء عليه:

أثنى عليه العلامة البيطار فقال: الإمام العلامة، والفاضل الفهامة، صفوة النبلاء، ونتيجة الفضلاء، وكعبة الفقهاء، ونخبة الكرماء، من طلعت محاسنه طلوع النجوم الزواهر، وسعدت الأيام والليالي بآداب علومه المعجبة البواهر، فهو الوحيد في إلقاء رغائبه، والفريد بكثرة عجائبه وغرائبه[١].

وامتدحه زميله في الدرس ومعاصره العلامة الجبرتي بالقول: تفقه وحضر الدروس، وأنجب، ودرس في فقه المذهب، إلى أن صار عمدة في الفروع والأصول، وسما قدره، ونما ذكره، كل ذلك مع الحشمة والديانة، ومكارم الأخلاق والصيانة[٢].

مؤلفاته:

١. النصوص المرضية في تحقيق مذهب الحنفية في الأراضي المصرية[٣].

٢. سند السُّحيميّ[٤].

٣. منتهى مدارك الأسرار والمعاني في حل ألفاظ منظومة[٥].

وفاته:

توفي الشيخ السُّحيميّ بعد أن أمضى سنوات عمره في طلب العلم ونشره، إذ توفي في السادس عشر من شهر شوال سنة ١٢٠١ه، ودفن قرب والده بباب الوزير[٦].

النسخ المعتمدة ومنهج التحقيق:

بحمد الله وفضله حصلت على أربع نسخ من مخطوطة (النصوص المرضية في تحقيق مذهب الحنفية في الأراضي المصرية)، وهي كما يأتي:

١. النسخة الأولى: نسخة المكتبة الأزهرية، وجعلتها الأصل تحمل الرقم (٥٣١٥٨) خصوصي، والرقم (٣٤٨٠) عمومي، وخطها عرب نسخ، عدد الأوراق: ٦، عدد الأسطر: ١٩، القياس : ٢١ × ١٥. رمزت لها بالحرف (ز)

٢. النسخة الثانية: نسخة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، تحمل الرقم ١٨ / ٧٤، خطها نسخ معتاد وقياسها ٢١ × ١٥، وعدد الأوراق ٦، ورمزت لها بالحرف (ف).

٣. النسخة الثالثة: نسخة المكتبة الأزهرية، تحمل الرقم ٥٤٧٧ خصوصي، والرقم ٢٢٨ عمومي،

١. حلية البشر، ج١، ص ١٨٨. وقد توهم بينه وبين والده فسماه أحمد بن أحمد بن محمد. والصواب محمد بن أحمد بن محمد.
٢. عجائب الآثار، ج ٢، ص ٣٧.
٣. بلوط، معجم تاريخ، ج ٤، ص ٢٥٦٠.
٤. المرعشلي، معجم المعاجم، ج ١، ص ١٧١.
٥. البغدادي، إيضاح المكنون، ج ٢، ص ٥٧٣.
٦. الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٢، ص ٣٧. المرعشلي، معجم المعاجم، ج ١، ص ١٧١.

عدد الأوراق ٦، وخطها نسخ معتاد، والناسخ إسماعيل المجاهدي، وتاريخ النسخ سنة ١٢٧٧هـ، ورمزت لها بالحرف (ه).

٤. النسخة الرابعة: نسخة دار الكتب والوثائق القومية في القاهرة، تحمل الرقم (٣٩٠) عدد الأوراق ٦، وخطها نسخ جيد، رمزت لها بالحرف (و).

منهج التحقيق:

بعد أن تمكنت من الحصول على نسخ المخطوطة شرعت في العمل على وفق المنهج الآتي:

١. نسخت المخطوطة بيدي.

٢. كُتب النص المحقق على وفق قواعد الأملاء الحديثة، من حيث تدوين الهمزة والتنقيط.

٣. ضبط مادة المخطوطة؛ لتكون الأقرب إلى الصورة التي أرادها المؤلف.

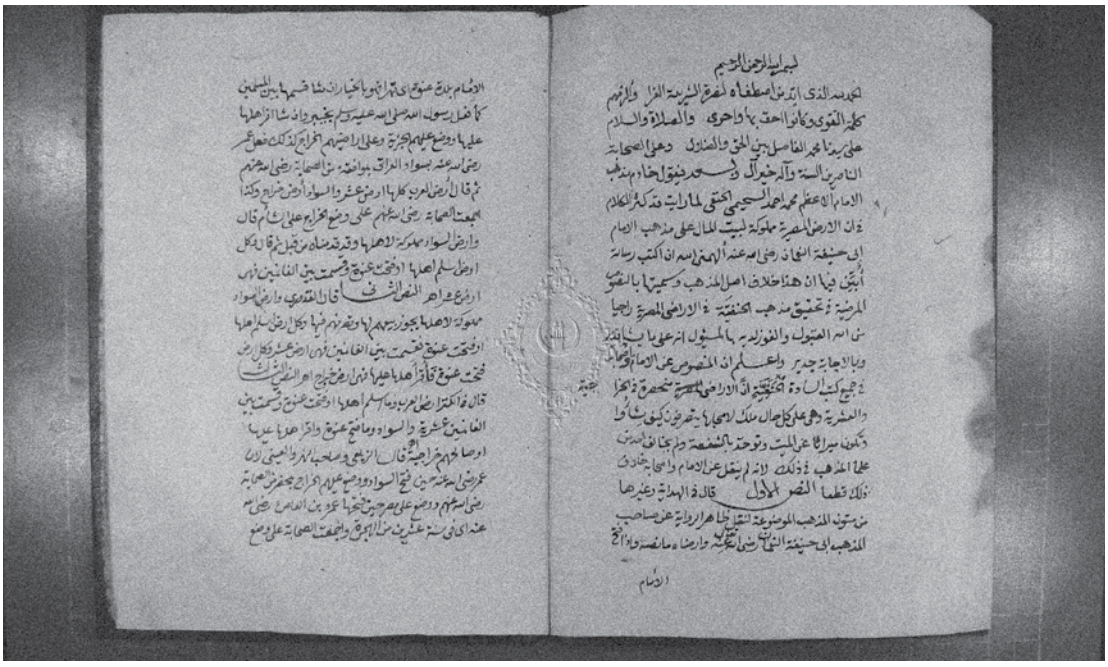
٤. تخريج الأقوال والنصوص من مصادرها الأصيلة، على قدر توافرها سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة.

٥. ترجمت للأعلام الواردة في المتن سواء أكانوا فقهاء، أم غيرهم.

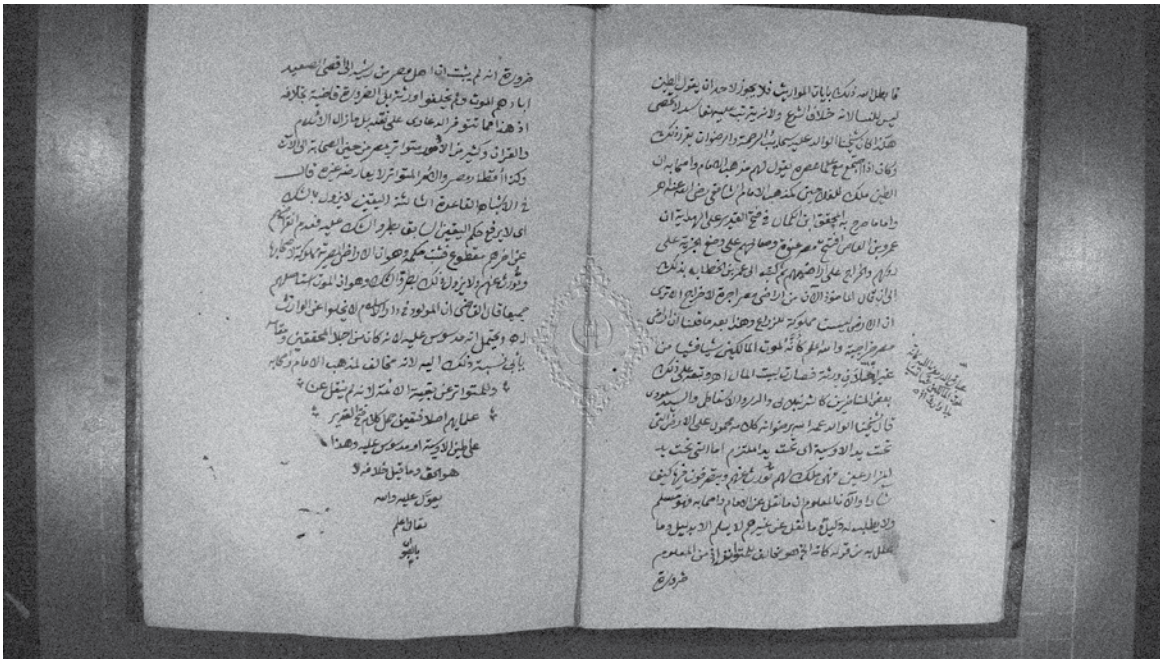
٦. التعريف بالمصطلحات الواردة في المخطوطة.

٧. وثقت النصوص التي استقاها المؤلف من مصادرها.

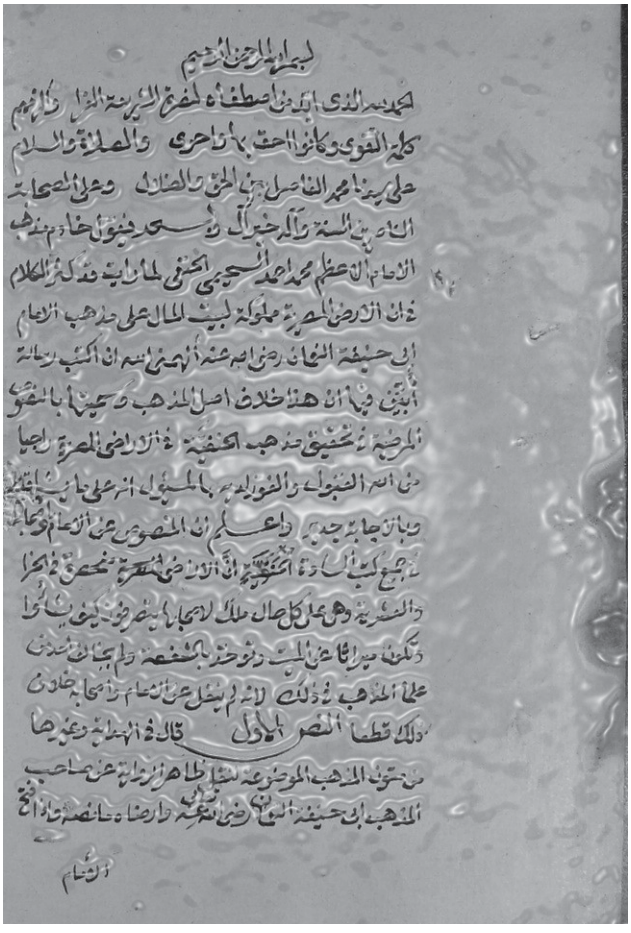
صور المخطوط :



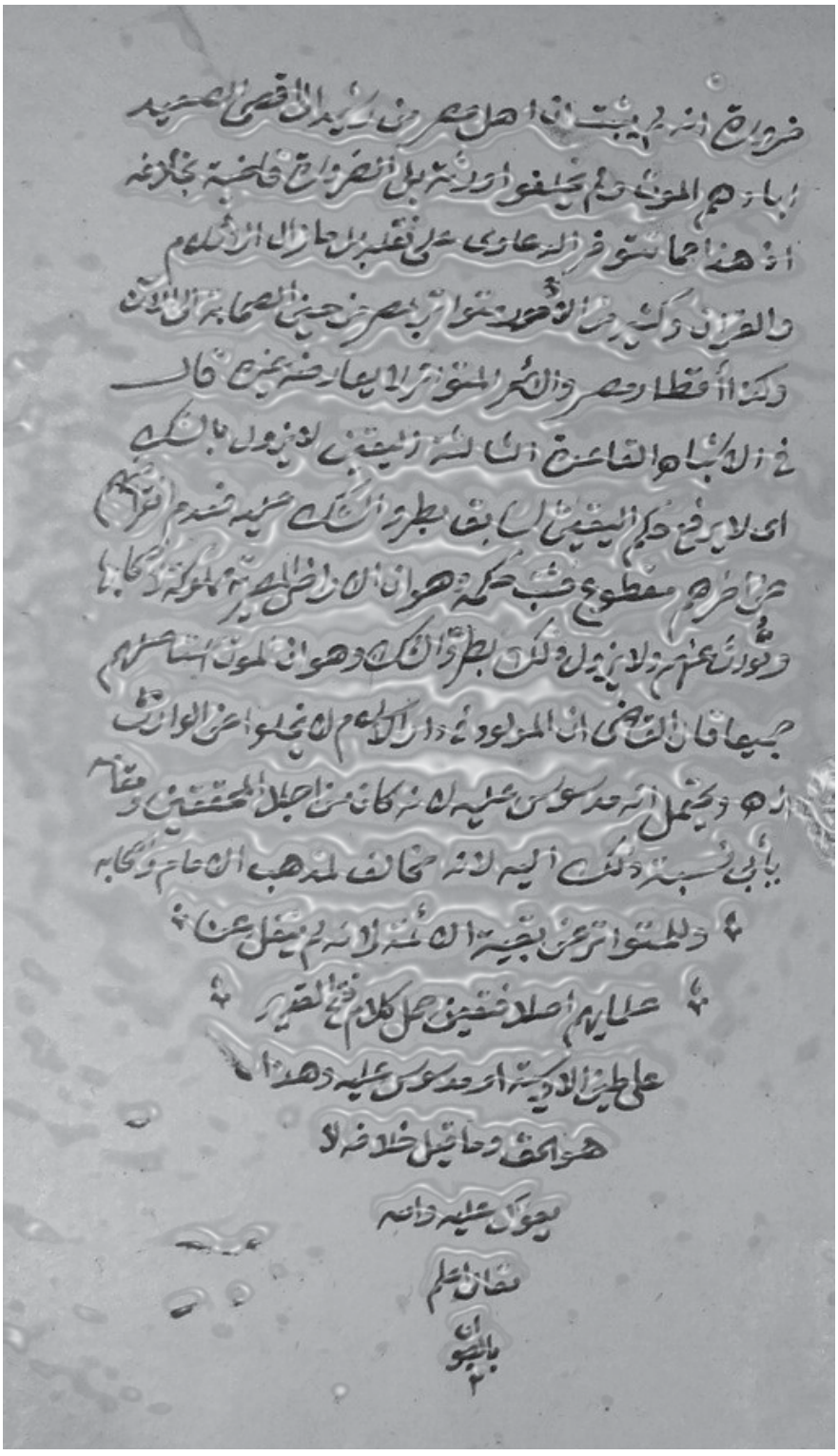
اللوحة الأولى من النسخة ز



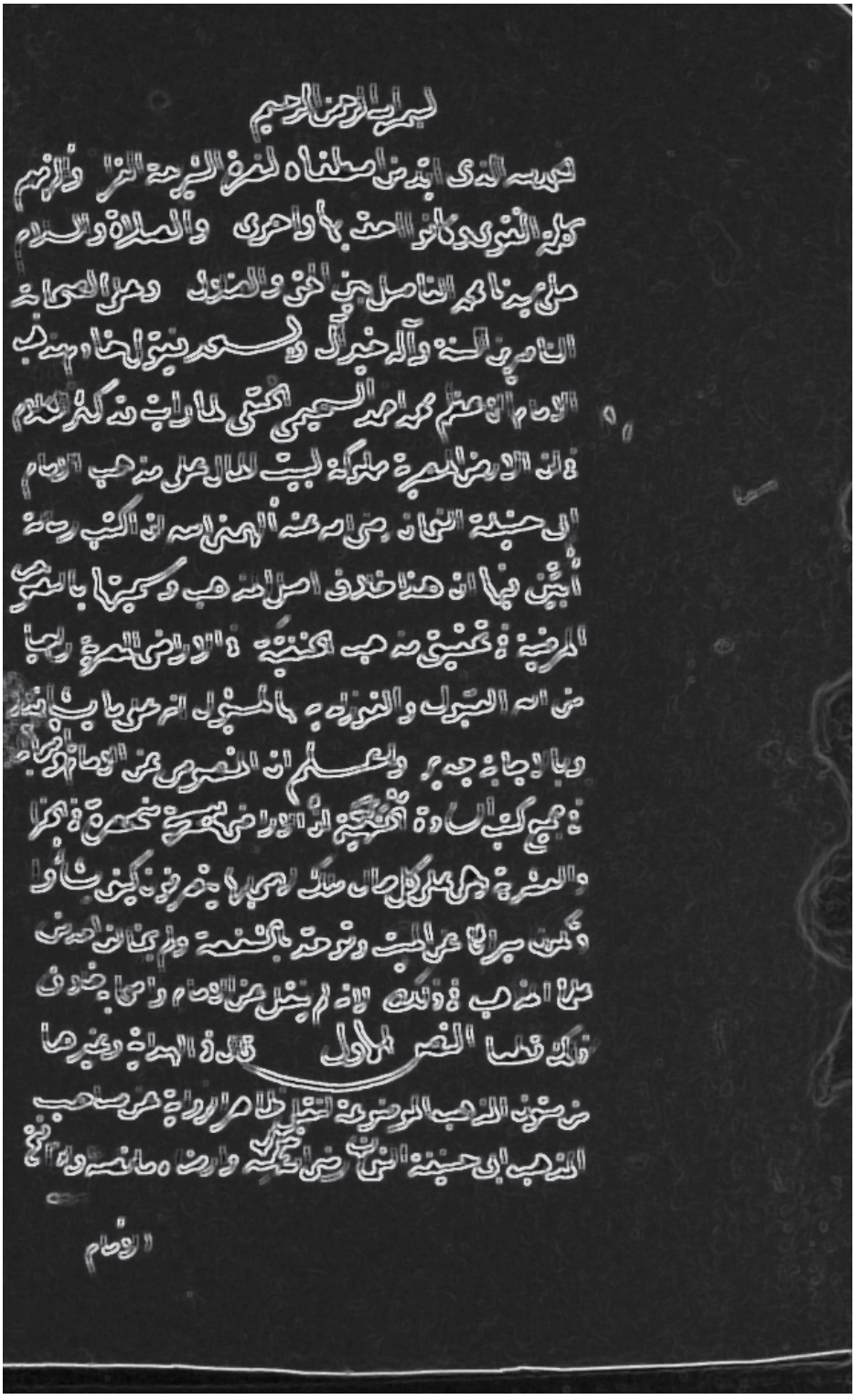
اللوحة الأخيرة من النسخة ز



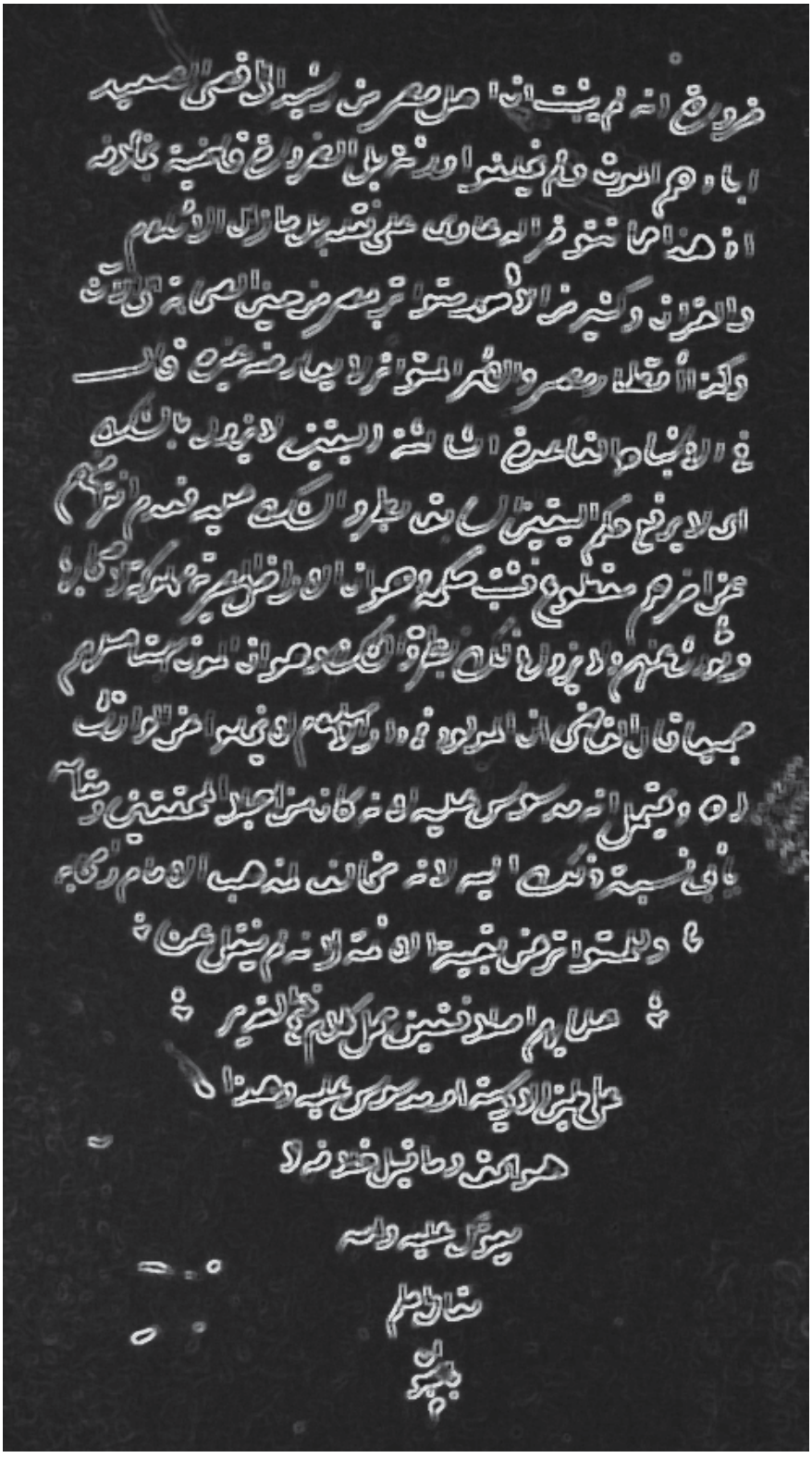
اللوحة الأولى من النسخة ف



اللوحة الأخيرة من النسخة ف



اللوحة الأولى من النسخة و



اللوحة الأخيرة من النسخة و

النص المحقق
النصوص المرضية
في تحقيق مذهب الحنفية
في الأراضي المصرية

تأليف:

العالم العلامة محمد بن أحمد السُّحيميّ (ت:١٢٠١هـ)

تحقق لأول مرة على أربع نسخ

تحقيق وتعليق:

الأستاذ الدكتور

مقتدر حمدان عبد المجيد الكبيسي

جامعة بغداد / كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أيد من اصطفاه لنصرة الشريعة الغراء، وألزمهم كلمة التقوى، وكانوا أحق بها وأحرى. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الفاصل بين الحق والضلال، وعلى الصحابة والناصرين السنة وآله خير آل.

وبعد: فيقول خادم مذهب الإمام الأعظم: محمد أحمد السُّحيميّ الحنفي، لما رأيت قد كثر الكلام في إن الأراضي المصرية مملوكة لبيت المال على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه[١]. ألهمني الله أن أكتب رسالة أُبيّن فيها أن هذا خلاف أصل المذهب، وسميتها

بالنصوص المرضية في تحقيق مذهب الحنفية في الأراضي المصرية

راجيًا من الله القبول والفوز لديه بالمسؤول، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

وأعلم أن المنصوص عن الإمام[٢] وأصحابه[٣] في جميع كتب السادة الحنفية أن الأراضي منحصرة في الخراجية[٤] والعشرية[٥]، وهي على كل حال ملك لأصحابها يتصرفون كيف يشاؤون وتكون ميراثًا عن الميت وتؤخذ بالشفعة[٦]. ولم يخالف أحد من علماء المذهب في ذلك لأنه لم ينقل عن الإمام وأصحابه خلاف ذلك قطعًا.

النص الأول:

قال في الهداية[٧] وغيرها[٨]: «من متون المذهب الموضوعة لنقل ظاهر الرواية عن صاحب المذهب أبي حنيفة النعمان رضي الله تعالى عنه وأرضاه ما نصه: وإذا فتح الإمام بلدة عنوة[٩] أي قهرًا فهو بالخيار إن شاء قسمها بين المسلمين كما فعل رسول الله صلى الله عليه بخيبر[١٠]، وإن شاء

١. الإمام الأعظم: الإمام النعمان بن ثابت التيمي الكوفي أبو حنيفة، الفقيه المجتهد أحد الأئمة الأربعة، ولد سنة ٨٠هـ، كان عالمًا،زاهدًا، ورعًا، تقيًا. توفي سنة ١٥٠هـ. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية،ج١٠،ص١٠٧.

٢. يقصدون به صاحب المذهب الإمام أبا حنيفة. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ١، ص ٣١٤.

٣. أبو يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني وزفر بن الهذيل. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج١، ص٣١٣.

٤. الأرض الخراجية: لا يملكها شخص إنما هي ملك الأمة. أما العشرية فيملكها المسلم ملك رقبة وعندئذ يحق له أن يوقفها. ينظر: أبو يوسف، الخراج، ص ٢٣. أبو عبيد، الأموال، ص ٥٨.

٥. الأراضي العُشرية: كل أرض أسلم أهلها عليها، سواء أكانت من أرض العرب أم أرض العجم، فهي لهم ويفرض عليها العُشر. ينظر: ابن قدامة، المغني، ج ٨، ص ٥١٨.

٦. الشفعة: هي حق تمليك يثبت للشريك القديم. ينظر: ابن عابدين، رد المحتار، ج٥، ص١٤٢.

٧. المرغيناني، الهداية، ج ٢، ص ٣٨٤. الهداية: تأليف الإمام برهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني، ولد يوم الاثنين الثامن من رجب سنة ٥١١هـ، كان فقيهًا حافظًا، له تصانيف منها: بداية المبتدي، والتجنيس، وكفاية المنتهى، وشرح الجامع الكبير. توفي سنة ٥٩٣هـ. ينظر: القرشي، الجواهر المضية، ج٢، ص٦٢٧.

٨. ابن مودود، الاختيار، ج ٤، ص ١٢٤. المنبجي، اللباب، ج ٢، ص ٧٧٨.

٩. عنوة: هو كل ما فُتح بالقتال. ينظر: ابن رجب، الاستخراج، ص٢٤.

١٠. خيبر: تشمل سبعة حصون ومزارع ونخل كثير. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٢، ص ٤١٠.

أقر أهلها عليها ووضع عليهم الجزية[1]، وعلى أراضيهم الخراج[2] كذلك فعل عمر[3] رضي الله عنه بسواد[4] العراق[5] بموافقة من الصحابة رضي الله عنهم»[6].

ثم قال[7]: «أرض العرب[8] كلها أرض عُشر[9]. والسواد أرض خراج، وكذا أجمعت الصحابة رضي الله عنهم على وضع الخراج على الشام»[10]. قال: «وأرض السواد مملوكة لأهلها وقد قدمناه من قبل»[11]. ثم قال: «وكل أرض أسلم أهلها أو فتحت عنوة وقسمت بين الغانمين فهي أرض عُشر» انتهى[12].

النص الثاني:

قال القدوري[13]: «وأرض السواد مملوكة لأهلها يجوز بيعهم[14] لها وتصرفهم فيها. وكل أرض أسلم أهلها أو فتحت عنوة فقسمت بين الغانمين فهي أرض عُشر، وكل أرض فتحت عنوة فأقر أهلها عليها فهي أرض خراج» انتهى[15].

النص الثالث:

قال في الكنز[16]: «أرض العرب وما أسلم أهلها، أو فتحت عنوة وقسمت بين الغانمين عُشرية. والسواد وما فتح عنوة وأقر أهلها عليها أو صالحهم خراجية» انتهى[17].

١. الجزية: وهي ما يؤخذ من أهل الذمة. ينظر: البعلي، المطلع، ص ١٤٠.
٢. الخراج: ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها. ينظر: الماوردي، الأحكام السلطانية، ص ١٤٦. أبو يعلى، الأحكام السلطانية ص ١٦٢.
٣. أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الفاروق العدوي أبو حفص، شهد المشاهد كلها، وهو أول خليفة دُعي بأمير المؤمنين. في أيامه تم فتح العراق وبلاد الشام ومصر، وهو أول من وضع للعرب التاريخ الهجري، واتخذ بيت المال، ودون الدواوين، وأمر ببناء البصرة والكوفة. قتل يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ه. ينظر: ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج ١، ص ١٠١.
٤. سواد العراق: سمي بذلك لكثرة شجره. ينظر: الكبيسي، الخراج أحكامه، ص ٧٧.
٥. العراق: سمي العراق عراقًا لأنه دنا من البحر. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٤، ص ٩٣.
٦. المرغيناني، الهداية، ج ٢، ص ٣٨٤.
٧. أي صاحب الهداية.
٨. أرض العرب وتُسمى جزيرة العرب. ينظر: ياقوت، معجم البلدان،ج٢، ص١٣٧.
٩. العُشر: هو ما يؤخذ من التجار، أو من إنتاج أرض العُشر. ينظر: ابن قدامة، المغني، ج٨، ص ٥١٨.
١٠. المرغيناني، الهداية، ج ٢، ص ٣٩٨.
١١. المرغيناني، الهداية، ج ٢، ص ٣٩٨.
١٢. المرغيناني، الهداية، ج ٢، ص ٣٩٩.
١٣. الإمام أحمد بن محمد بن أحمد القدوري، انتهت إليه رئاسة الحنفية في زمانه، له كتاب مختصر، وهو متن معتبر متداول بين الأئمة الأعيان، توفي سنة ٤٢٨هـ. ينظر: القرشي، الجواهر المضية، ج١، ص٩٣.
١٤. البيع: عقد مخصوص يتضمن نقل المُلك من مالك إلى آخر بعوض. ينظر: الرملي، نهاية المحتاج،ج٣، ص٣٦١.
١٥. القدوري، مختصر القدوري، ص ٢٣٦.
١٦. كنز الدقائق: تأليف الحافظ النسفي (ت:٧١٠هـ) متن وجيز ذكر ما عم وقوعه وكثر وجوده، لتكثر فائدته وتتوفر عائدته. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٤٨٢.
١٧. النسفي، كنز الدقائق، ص ٣٨٢.

قال الزيلعي[١]، وصاحب النهر[٢]، والعيني[٣]: «لأن عمر رضي الله عنه حين فتح السواد ووضع عليهم الخراج بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم، ووضع على مصر[٤] حين فتحها عمرو بن العاص[٥] رضي الله عنه أي في سنة عشرين من الهجرة؛ وأجمعت الصحابة على وضع الخراج على الشام، واستثنى مكة[٦] شرفها الله من هذا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم افتتحها عنوة وتركها لأهلها ولم يوظف عليها الخراج، ثم أرض السواد مملوكة لأهلها عندنا» انتهى[٧].

وفي البناية[٨]: «المراد بالسواد القرى»[٩].

وبه صرح التمرتاشي[١٠]: «وسُمي بالسواد لخضرة أشجاره وزرعه» انتهى[١١].

وإنما لم تكن أرض العرب خراجية لأن وضع الخراج من شرطه أن يقر أهلها على الكفر كما في سواد العراق. ومشركوا العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف، ولأنه عليه السلام والخلفاء الراشدين لم يأخذوا الخراج من أرض العرب[١٢].

النص الرابع:

قال في المختار[١٣]: «وأرض السواد مملوكة لأهلها يجوز تصرفهم فيها. وكل أرض أسلم أهلها أو فتحت عنوة وقسمت بين الغانمين فهي عُشرية. وما فتحت عنوة وأقر أهلها أو صالحهم فهي خراجية سوى مكة» انتهى[١٤].

١. فخر الدين عثمان بن علي الزيلعي، كان مشهورًا بالفقه والفرائض، قدم القاهرة سنة ٧٠٥هـ، فأفتى ودرس وانتفع به الناس، وله تصانيف منها: تبيين الحقائق، وبركة الكلام، وشرح الجامع الكبير، توفي بالقاهرة سنة ٧٤٣هـ. ينظر: اللكنوي، الفوائد البهية، ص ١٥٠.

٢. النهر الفائق شرح كنز الدقائق، من الكتب المعتبرة في المذهب الحنفي، بذل ابن نجيم جهدًا كبيرًا في تحقيق مذهب الحنفية، ويُعد الكتاب من صفوة كتب المتأخرين. ينظر: ابن عابدين، رد المحتار،ج١، ص ٢٨.

٣. العيني: محمود بن أحمد بدر الدين العيني. ولد في عينتاب سنة ٧٦٢ه، أقام مدة في حلب ومصر ودمشق والقدس. توفي بالقاهرة سنة ٨٥٥ه، ومصنفاته كثيرة. ينظر: الزركلي، الأعلام، ج٧، ص١٦٣.

٤. مصر: من العريش إلى أسوان وعرضها من برقة إلى أيلة. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج٥، ص١٣٧.

٥. عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو عبد الله. أسلم عشية صلح الحديبية. وولاه النبي صلى الله عليه وسلم إمرة جيش ذات السلاسل. وتوفي بالقاهرة سنة ٤٣ه. ينظر: الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٢، ص٢٣٥.

٦. مكة: بيت الله الحرام. سميت مكة لأنها تمُك الجبارين. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٥، ص ١٨٢.

٧. الزيلعي، تبيين الحقائق، ج ٣، ص ٢٧١. ابن نجيم، النهر الفائق، ج ٣، ص ٢٣٥. العيني، البناية، ج ٧، ص ٢٢١.

٨. في و: النهاية، والتصويب من: ز، ف، هـ.

٩. ابن نجيم، النهر الفائق، ج ٣، ص ٢٣٥. ينظر: العيني، البناية، ج ٧، ص ٢٢٠.

١٠. التمرتاشي، شرح الجامع الصغير، ج ١، لوحة ٢٣٣. التمرتاشي: الشيخ الفاضل أحمد بن إسماعيل ظهير الدين. مفتي خوارزم. من مصنفاته: شرح الجامع الصغير، والفرائض، والتراويح، والفتاوى وغيرها. توفي نحو ٦١٠ هـ. ينظر: الكملائي، البدور المضية، ج ٢، ص ٢٦٤.

١١. العيني، البناية، ج ٧، ص ٢٢٠.

١٢. العيني، البناية، ج ٧، ص ٢٢٠.

١٣. المختار للفتوى: تأليف مجد الدين عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي (ت:٦٨٣ه). متن مختصر في الفقه على مذهب الإمام الأعظم، جرده من الأدلة، سماه (المختار للفتوى). ينظر: اللكنوي، الرعاية، ص١٠.

١٤. ابن مودود، المختار، ص ٤٥٧.

وذكر في شرحه المسمى بالاختيار[١]: «أن عمر رضي الله عنه فتح سواد العراق ووضع عليه الخراج، وكذلك وضع عمر رضي الله عنه على مصر الخراج حين فتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه». قال: «وأرض السواد مملوكة لأهلها يجوز تصرفهم فيها لِما بيّنا أنّ الإمام إذا فتح بلدًة قهرًا له أن يقر أهلها عليها ويضع عليها الخراج فإذا أقرهم عليها بقيت مملوكة فيجوز تصرفهم فيها بيعًا وشرًاء وإجارة[٢] وغير ذلك كسائر المُلاك والأملاك»[٣].

النص الخامس:

قال في الدرر[٤]: «إذا فتح الإمام بلدًة صلحًا يجري الإمام على موجب، وأرضًا تبقى على ملكهم ولو فتحها عنوة وأقر أهلها عليها بجزية عليهم ووضع الخراج على أراضيهم فالأرض مملوكة لهم» انتهى[٥].

وعبارة التنوير[٦]: «وأرض السواد مملوكة لأهلها يجوز بيعهم لها وتصرفهم فيها» انتهى[٧].

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: أما والذي نفسي بيده لولا أن أترك الناس بَبَّانًا[٨] ما فتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر لكني أتركها خزانة لهم يقسمونها رواه البخاري[٩].

وبَبَّانًا ببائين موحدين وتشديد الثانية وآخره نون؛ يعني شيئًا واحدًا ليس لهم شيء. لأنه إذا قسم البلاد المفتوحة على الغانمين بقي من لم يحضر القسمة، ومن يجيء بعدُ من المسلمين بغير شيء. فلذلك تركها فتكون بينهم أي في الخراج. لأنه إذا قسمها بين الغانمين لا يجب فيها الخراج، وإذا أقرهم عليها صارت ملكًا لهم يتصرفون فيها كيف شاؤوا ويؤخذ منهم الخراج فيكون لعموم المسلمين.

١. الاختيار لتعليل المختار: هو شرح لمتن المختار للفتوى لابن مودود، يشير فيه إلى علله ومسائله ومعانيها، ويبين صورها، وينبه على مبانيها، ويذكر فروعًا يحتاج اليها، ويعتمد في النقل عليها. وزاد فيه من المسائل ما تعم به البلوى. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٥٤٢.

٢. الإجارة: اسم للأجرة وهي كراء الأجير. وهي عقد معاوضة على تمليك منفعة بعوض. ينظر: الدسوقي، حاشية على الشرح الكبير، ج ٤، ص ٢.

٣. ابن مودود، الاختيار، ج ٤، ص ١٤٢.

٤. درر الحكام شرح غرر الأحكام، وهو شرح للغرر. وغرر الأحكام من المتون المتأخرة في الفقه الحنفي، جعله مؤلفه محتوي على مهمات خلت منها المتون المشهورة. تناوله عدد منهم بالشرح والتعليق. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٥٦٢.

٥. ملا خسرو، درر الحكام، ج ١، ص ٢٨٥.

٦. تنوير الأبصار وجامع البحار: تأليف شمس الدين محمد بن عبد الله التمرتاشي (ت:١٠٠٤هـ)، متن وجيز يشتمل على كثير من مسائل المتون المعتمدة في الفقه الحنفي، ألفه التمرتاشي ليكون عونًا لمن ابتلي بالقضاء والفتوى، ورتبه على وفق ترتيب (الجامع الصغير). ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٤٩٣.

٧. التمرتاشي، تنوير الابصار، ص ١١٢.

٨. ببان: المعدم، ومعناه لأسوِّينّ بينهم في العطاء حتى يكونوا شيء واحد لا فضل لأحد على غيره. ينظر: ابن الأثير، النهاية، ج ١، ص ٩١.

٩. البخاري، صحيح، ج ٤، ص ١٥٤٨. البيهقي، السنن الكبرى، ج ١٨، ص ٤٥٣.

النص السادس:

قال في الفتاوى الخيرية[١] من كتاب القضاء: «أرض الخراج مملوكة لأهلها يجوز بيعها ووقفها[٢] وتكون ميراثًا عن الميت وتؤخذ بالشفعة. والمتون[٣] والشروح[٤] والفتاوى[٥] قاطبة قد صرحوا بصحة أخذها بالشفعة» انتهى[٦].

النص السابع:

قال شيخنا الوالد رحمه الله في شرحه الوضوح النصوح[٧]: «وإذا فتح الإمام بلدة صلحًا جرى ومن بعده من الأمراء على ما اتفقوا عليه، وأرضها تبقى مملوكة لهم، ولو فتحها قهرًا، إن شاء جعلها أخماسًا، خمسًا للفقراء، والباقين للغانمين، وأقر أهلها على ملكهم لها بجزية على رؤوسهم، وخراج على أرضهم، أو أخرجهم منها وأنزل بها قومًا غيرهم ووضع عليهم الخراج والجزية إن كانوا كفارًا فلو كانوا مسلمين وضع العُشر[٨] فقط. وإذا أسلموا سقطت الجزية عن رؤوسهم، ولا يسقط الخراج عن أراضيهم، وإذا باعوها انتقلت بوظيفتها من الخراج. وإذا ماتوا انتقلت إلى ورثتهم كذلك، وإذا وقفوها بقي الخراج على حاله كما وضع عمر على أرض مصر الخراج حين افتتحها عمرو بن العاص، وكما أجمعت الصحابة على وضع الخراج على أراضيهم، ووضع عمر على كل جريب وهو الفدان يبلغه الماء درهم فضة خالصة وصاعًا مما يزرع فيه بر وشعير، وعلى كل جريب نحو القثاء والخيار والبطيخ والباذنجان خمسة دراهم، وعلى كل جريب النخل والعنب عشرة دراهم. والجريب ستون ذراعًا في مثلها بذراع كسرى. وهو سبع قبضات. ولا يجوز للإمام أن يزيد على الخراج الذي وظفه عمر ووجب أن ينقص عنه إن لم يبلغ الخارج من الأرض ضعف الخراج الموظف؛ أي ينقص إلى نصف الخارج» انتهى[٩].

١. الفتاوى الخيرية لنفع البرية: تأليف العلامة خير الدين بن احمد الرملي (ت:١٠٨١هـ)، هذا الكتاب مجموع فتاوى وأجوبة سئل عنها المؤلف، وأجاب بما هو صحيح ومُفتى به في المذهب الحنفي، وما صححه كبار علماء الحنفية. النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٦١٦.

٢. الوقف: الحبس، يقال: وقفت الدار، حبستها في سبيل الله. وعند الفقهاء يعني: حبس العين على حكم ملك لله تعالى وصرف منفعتها على من يشترطه الواقف. ينظر: المرغيناني، الهداية، ج٣، ص١٣.

٣. المتون من أوجز كتب الحنفية الشاملة لجل الأبواب الفقهية حرص فيها علماء المذهب على جمع معنى كثير في لفظ قليل وهي ليست على درجة واحدة. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٤٦١.

٤. الشروح هي الكتب التي تناول فيها علماء المذهب الحنفي توضيح كتب أخرى في الفقه الحنفي من المتون والمختصرات والمنظومات، بالشرح أو التعليق عليها، وتأتي بالمرتبة الثانية من حيث الكثرة بعد الكتب والرسائل التي ألفت في موضوعات خاصة. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٥١٢.

٥. الفتاوى تأتي بعد كتب الشروح من حيث اعتبارها والاعتماد عليها في المذهب الحنفي، وهي عبارة عن أسئلة وجهت إلى أعلام المذهب في عصرهم فأجابوا عنها. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٦٠٣.

٦. الرملي، الفتاوى الخيرية، ج ٢، ص ١٣.

٧. في و، المنصوص، والتصويب من: ز، ف، هـ.

٨. العُشر: يأخذ من التجار، أو من إنتاج أرض العُشر. ينظر: ابن قدامة، المغني، ج ٨، ص ٥١٨.

٩. السُّحيميّ، الوضوح شرح النصوح، لوحة ١١١.

قال في الكافي[١]: «الأرض التي صدر التوظيف[٢] عن عمر أو من إمام بمثل وظيفة عمر لم تجز الزيادة على تلك الوظيفة إجماعًا[٣]. وأما إذا أراد الإمام توظيف الخراج ابتداءً وزاد على وظيفة عمر فعند محمد[٤] يجوز» انتهى[٥].

النص الثامن:

قال في غاية البيان[٦]: «ووضع على مصر الخراج عمر رضي الله عنه حين فتحت على يد عمرو بن العاص» انتهى[٧].

قال في الكنز: «ولو دفع السلطان الأراضي المملوكة إلى قوم ليعطوا الخراج جاز»[٨].

قال الزيلعي: «معناه أن أصحاب الخراج إذا عجزوا عن زراعة الأرض وأداء الخراج، دفع الإمام الأرض المملوكة[٩] إلى غيرهم بالأجرة؛ أي يؤجر الأرض للقادرين على الزراعة[١٠]، ويأخذ الخراج من أجرتها فإن فضل شيء من أجرتها يدفعه إلى أصحابها وهم المُلاك» انتهى[١١].

وعن أبي يوسف[١٢] إنه يدفع إلى العاجز كفايته من بيت المال قرض، وهو الصحيح[١٣].

وقال الشلبي[١٤]: «إذا لم يجد الإمام من يستأجرها، باعها وأخذ الخراج للسنة الماضية دون بقية السنين، لأن الخراج يسقط بالتداخل. وإن أراد السلطان أن يأخذها لنفسه يبيعها من غيره ثم يشتري من المشتري» انتهى[١٥].

١. الكافي: تأليف محمد بن محمد بن أحمد الحاكم الشهيد المتوفي سنة ٣٣٤ه. ينظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ٣٣٣.
٢. التوظيف: هو ما يفرض على الأرض. ينظر: الأوزجندي، فتاوى، ج ١، ص ٢٣٨.
٣. ابن مازه، المحيط البرهاني، ج ٢، ص ٣٤٤. ابن الهمام، فتح القدير، ج ٥، ص ١١٦.
٤. محمد بن الحسن أبو عبد الله الشيباني، ولد سنة ١٣١هـ في واسط، ونشأ بالكوفة، صحب أبا حنيفة وأخذ عنه. توفي سنة ١٨٩هـ. كتبه: المبسوط، والزيادات، والجامع الكبير. ينظر: اللكنوي، الفوائد البهية، ص٢١٢.
٥. الحاكم، الكافي، ج ١، اللوحة ٢١١.
٦. غاية البيان ونادرة الأقران في آخر الزمان: تألي قوام الدين أمير كاتب بن أمير الإتقاني (ت: ٧٥٨ه). هو شرح الهداية للمرغيناني، شرح مشكلاته، وحل معظلاته. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي،ج٢، ص ٥٤٨.
٧. الإتقاني، غاية البيان، ج ٨، ص ٢٦٥.
٨. النسفي، كنز الدقائق، ص ٦٨٦.
٩. كلمة المملوكة غير موجودة عند الزيلعي.
١٠. في ه: الزراعة، والتصويب من: ز، ف، و.
١١. الزيلعي، تبيين الحقائق، ج ٦، ص ٢٢٠.
١٢. أبو يوسف هو: يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي أبو يوسف القاضي صاحب أبو حنيفة وتلميذه، وأخذ عنه الفقه والعلم، وكان ثقة، حافظ، ثم غلب عليه الرأي ولد بالكوفة سنة ١١٣هـ، ولي القضاء ولقب بقاضي القضاة، توفي سنة ١٨٢هـ، وله مصنفات. ينظر: ابن قطلوبغا، تاج التراجم، ص ٣١٥.
١٣. هو هنا يؤيد ما قاله أبو يوسف. عن رأي أبي يوسف ينظر: السغناقي، النهاية، ج ١٢، ص ٦٨. الزيلعي، تبيين الحقائق، ج ٣، ص ٢٧٥. العيني، البناية، ج ٧، ص ٢٣٣.
١٤. شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبو العباس الشلبي. فقيه، ومحدث، ونحوي. من تصانيفه: تجريد الفوائد، والفوائد السنية، وإتحاف الرواة وغيرها. توفي سنة ١٠٢١ه. ينظر: الكملائي، البدور المضية،ج٣،ص٢١٣.
١٥. الشلبي، حاشية، ج ٦، ص ٢٢٠.

وإنما جاز للإمام أن يفعل ما تقدم لأن في الخراج منفعة عامة المسلمين، وفي انكساره ضرر عامة المسلمين فلا يجوز ضرر العامة.

النص التاسع:

قال في التحفة المرضية في الأراضي المصرية[١]؛ صاحب البحر[٢] بعد كلام تقدم: «فالحاصل أن أرض مصر خراجية، والأصل كما صرح به في الهداية: فإن[٣] عمر رضي الله عنه حين فتح السواد ووضع الخراج عليه بمحضر من الصحابة رضي الله عنهم، ووضع على مصر حين افتتحها عمرو بن العاص، وكذا أجمعت الصحابة على وضع الخراج على سواد مصر، أي قراها حين افتتحت صلحًا على يد عمرو بن العاص. وذكر العلامة الشمني[٤] في شرح النقاية معزيًا إلى ابن مسعود[٥] في الطبقات[٦]: إن مصر افتتحت عنوة على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه، وإنما اختلفوا هل فتحت عنوةً أو صلحًا، ولا أثر له في كونها خراجية[٧] لأنها تكون خراجية إذا لم يسلم أهلها سواء فتحت عنوة ومنَّ على أهلها بها، أو صلحًا ووضع الجزية عليها كما صرح به في الخلاصة[٨] وغيرها»[٩].

قال في الهداية[١٠]: «ومكة مخصوصة من هذا، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحها عنوة وتركها لأهلها ولم يوظف الخراج. ثم اتفق الأئمة الحنفية رحمهم الله أن الإمام إذا فتح بلدة وأقر أهلها عليها ووضع الخراج على أراضيهم فإنهم يملكون الأراضي[١١] وتصح منهم سائر التصرفات من بيع، وهبة[١٢]، ووصية[١٣]، وإجارة، وإعارة[١٤]، ووقف، سواء كان المتصرف باقيًا على الكفر أو أسلم. فإن

١. التحفة المرضية في الأراضي المصرية: تأليف الإمام زين بن نجيم (ت:٩٧٠ه). وتناول فيه تداعيات الشرعية والمالية لضم مصر للدولة العثمانية. ينظر: ابن نجيم، التحفة المرضية، ص ١٨.

٢. البحر الرائق لابن نجيم هو شرح موسع لكنز الدقائق للنسفي. ركز المؤلف على تحرير رأي المذهب الحنفي، مع الترجيح بين الروايات وعزز ذلك بالدلي. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٥٧٣.

٣. عند ابن نجيم: فقال، بدل فإن. التحفة المرضية، ص ١٤٣.

٤. أبو العباس أحمد بن محمد الشمني. ولد في الإسكندرية سنة (٨٠١ه) توفي سنة (٨٧٢ه)، نحوي محدث مفسر أصولي. سمع الكثير على شيوخ عصره، وأجاز له عدد من العلماء، كان عفيفًا متواضعًا شهمًا عرض عليه منصب القضاء غير مرة فامتنع، أما مؤلفاته فمنها: عالي الرتبة في شرح نظم النخبة، ومزيل الخفا عن الفاظ الشفا، وكمال الدراية في شرح النقاية. ينظر: الزركلي، الأعلام، ج ١، ص ٢٣٠.

٥. الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي أبو عبد الرحمن، رضي الله عنه، وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم تبين فضله ومكانته. توفي في المدينة المنورة ودفن بالبقيع سنة ٣٢ه. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٤٩٧.

٦. الطبقات الكبرى: تأليف محمد بن سعد بن مَنيع الزُّهري، تتجلى اهمية كتاب الطبقات الكبرى، في غزارة ودقة ما فيه من معلومات، وكثرة النقل منه والاعتماد عليه في كثير من التراجم والأحداث، وثناء الأئمة عليه، وعلى مُصنفه. ينظر: المزي، تهذيب الكمال، ج ٢٥، ص ٢٥٦.

٧. أي لا يؤثر على فرض الخراج عليها.

٨. البخاري، خلاصة الفتاوى، اللوحة، ٢٥٩.

٩. ابن نجيم، التحفة المرضية، ص ١٤٥ _ ١٤٦.

١٠. في: و، النهاية، والتصويب من: ز، ف، ه.

١١. في ه: الأرض، والتصويب من: ز، ف، و.

١٢. الهبة: إعطاء الشيء إلى الغير بلا عوض، سواء أكان مال أو غيره. ينظر: الشربيني، مغني المحتاج، ج ٢، ص ٣٩٦.

١٣. الوصية: تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع سواء أكان ذلك في الأعيان أم المنافع. ينظر: الشربيني، مغني المحتاج، ج ٣، ص ٣٩.

١٤. الإعارة: تمليك المنافع. ينظر: ابن عابدين، رد المحتار، ج ٤، ص ٥٠٢.

الخراج لا يسقط بالإسلام ولا بالبيع[1] من مسلم، بل يجب الخراج على المشتري لا خلاف بينهم فيما ذكرناه. وكذا اتفقوا على أنها تُورث إلى أن لا يبقى أحد. فحينئذ ينتقل المُلك لبيت المال فثبت بذلك إن بيع الأراضي المصرية صحيح على كل حال» انتهى[2].

قال السيد الجرجاني[3] على السراجية: «أي توضع التركة في بيت المال على أنه مال ضائع فصارت لجميع المسلمين فتوضع هناك وليس ذلك بطريق الإرث بناء على أنهم أخوته. ألا ترى أن الذمي إذا لم يكن له وارث يوضع ماله في بيت المال، ولا ميراث للمسلم من الكافر» انتهى[4].

ونقل في فرائض التمرتاشي[5] عن بكر أنه قال : «ما قيل إنه يوضع في بيت المال فذاك كان في زمان الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم اجمعين، حين كان للمسلمين بيت مال[6]؛ فأما اليوم فقد فسد الزمان فليدفع المال إليه وقد مر مثالها آنفا» انتهى[7].

النص العاشر:

«ويجب العُشر في الأراضي الموقوفة[8]، وأراضي الصبيان، والمجانين، والمكاتب، والمأذون[9]، والمديون؛ لو كانت عُشرية. والخراج لو كانت خراجية. ولا يتكرر العُشر بتكرر الخارج في سنة. فإن عمر رضي الله عنه لم يوظف مكررًا[10]. وأما خراج المقاسمة[11] فهو أن يكون الواجب فيه السدس أو الخُمس فإنه يتكرر بتكرر الخارج ولا عُشر في خارج أرض الخراج» انتهى[12].

فثبت بهذه النصوص من الكتب المعتبرة الصحيحة المشهورة أنّ مذهب الإمام وأصحابه أن أراضي مصر خراجية قطعًا لا شك في ذلك، فهي ملك لأصحابها، فيجوز بيعها، وهبتها، وإجارتها، وإعارتها، وسائر التصرفات الشرعية وليس لأحد أخذها منه وإعطاؤها لغيره. وإذا مات تورث عنه كغيرها من مخلفاته؛ فتكون للذكور والإناث بالفريضة الشرعية، وما يقال أن الطين للرجال دون الإناث هذه خصلة

١. في و: بالبيع، والتصويب من: ز، ف، ه.
٢. ابن نجيم، التحفة المرضية، ص ١٤٧ _ ١٤٨.
٣. الجرجاني: علي بن محمد بن علي الشريف الجرجاني، عالم نحرير، فصيح العبارة دقيق الإشارة، نظار فارس في البحث والجدل، ولد في جرجان لثمان بقين من شعبان سنة ٧٤٠ه، من فقهاء الحنفية الكبار في عصره، توفي سنة ٨١٦ه. له مصنفات كثيرة منها: التعريفات، وشرح السراجية، ومراتب العلوم وغيرها. ينظر: اللكنوي، الفوائد البهية، ص ١٢٥.
٤. الجرجاني، شرح السراجية، ص ١٣.
٥. لم أعثر على الكتاب.
٦. بيت المال: المكان الذي تحفظ فيه الأموال العامة للدولة الإسلامية، مثل الفيء وخُمس الغنائم وخراج الأرض الخراجية وأموال الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة، ونحوها، إلى أن تصرف في وجوهها. ينظر: الكبيسي، في الفكر الاقتصادي، ص ١٨٩.
٧. التمرتاشي، شرح الجامع الصغير، ج٢، لوحة ١٥٨.
٨. هي الأراضي التي وقفها أصحابها.
٩. المأذون: هو العبد الذي أذن له مولاه في التجارة. ينظر: الزيلعي، تبيين الحقائق، ج ٥، ص ٢٣٠.
١٠. ملا خسرو، درر الحكام، ج ١، ص ٢٩٨.
١١. خراج المقاسمة: هو أَنْ يكون الواجب جزءًا شائعًا من الخارج من الأرض، كالربع والنصف والخُمس وما أشبه ذلك. وهذا النوع من الخراج يتعلق بالخارج من الأرض لا بالتمكن، فلو عطل المالك الأرض يجب عليه الخراج. ينظر: البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٨٠. أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص ١٨٥.
١٢. ملا خسرو، درر الحكام، ج ١، ص ٢٩٧.

الجاهلية لأنهم يورثون الرجال دون النساء. فأبطل الله ذلك بآيات المواريث، فلا يجوز لأحد أن يقول الطين ليس للنساء، لأنه خلاف الشرع، ولأنه يترتب عليه مفاسد لا تحصى هكذا كان شيخنا الوالد عليه سحائب الرحمة والرضوان يقرر ذلك. وكان إذا اجتمع مع علماء عصره يقول لهم مذهب الإمام وأصحابه أن الطين ملك للفلاحين كمذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه انتهى[١].

وأما ما صرح به المحقق[٢] الكمال[٣] في فتح القدير[٤] على الهداية «أن عمرو بن العاص افتتح مصر عنوة وصالحهم على وضع الجزية على رؤوسهم، والخراج على أراضيهم ثم كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك إلى أن قال: المأخوذ الآن من أراضي مصر أجرة لا خراج، ألا ترى إن الأراضي ليست مملوكة للزراع، وهذا بعدما قلنا أن أراضي مصر خراجية والله أعلم. كأنه لموت المالكين شيئًا فشيئًا من غير إخلاف ورثة فصارت لبيت المال» انتهى[٥].

ونبه على ذلك بعض المتأخرين كالشرنبلالي[٦]، والدرر[٧]، والاسقاطي[٨]، والسيد سعودي[٩].

قال شيخنا الوالد عمه الله برضوانه: «كلامه محمول على الأرض التي تحت يد الأوسية[١٠] أي تحت يد الملتزم. أما التي تحت يد المزارعين فهي ملك لهم تُورث عنهم ويتصرفون فيها كيف شاؤوا. والآن المعلوم أن ما نُقل عن الإمام وأصحابه فهو مُسلم ولا يطلب له وكيل، وما نُقل عن غيرهم لا يسلم إلا بدليل، وما علل به من قوله كأنه... الخ. هو مخالف للمتواتر إذ المعلوم ضرورة أنه لم يثبت أن أهل مصر من رشيد[١١] إلى أقصى الصعيد[١٢] أبادهم الموت ولم يخلفوا ورثة، بل الضرورة قاضية بخلافه، إذ هذا مما تتوفر الدعاوى على نقله بل ما زال الإسلام والقرآن، وكثير من الأمور متواتر بمصر من

---

١. السُحيميّ، الوضوح شرح النصوح، لوحة ١١١.

٢. عندما يطلق فقهاء الحنفية كلمة محقق من دون تحديد فالمراد به الكمال بن الهمام صاحب فتح القدير. ينظر: ابن عابدين، رد المحتار، ج ١، ص ٢٦.

٣. كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد السيواسي الشهير بابن الهمام، ولد سنة ٧٨٨هـ. كان إمامًا فروعيًا أصوليًا محدثًا مفسرًا حافظًا، وله تصانيف. توفي سنة ٨٦١هـ. ينظر: اللكنوي، الفوائد البهية، ص٢٣٥.

٤. فتح القدير للعاجز الفقير: لابن الهمام هو من أشهر شروح الهداية المتداولة بين العلماء والمعتمدة عندهم. الكتاب يحوي الكثير من أقوال الفقهاء من أئمة المذهب الحنفي، والمالكي، والشافعي وغيرهم. ويُعد من أدق شروح الهداية وفيه ما يدل على نبوغ المؤلف وثقاب نظره وباعه الطويل في الفقه والأصول. ينظر: ابن عابدين، رسم المفتي، ص ٧٧.

٥. ابن الهمام، فتح القدير، ج ٦، ص ٣٧.

٦. الشرنبلالي، حاشية، ج ١، ص ٢٩٧. الشيخ حسن بن عمار بن علي الشُرُنبُلالي أبو الإخلاص، ولد سنة ٩٩٤ه، جاء به والده منها إلى القاهرة، وعمره ست سنوات، فنشأ بها وحفظ القرآن الكريم، ودرس على يد كبار المشايخ في عصره، كان من أعيان الفقهاء، تصانيفه كثيرة، توفي في القاهرة يوم الجمعة بعد صلاة العصر في شهر رمضان سنة ١٠٦٩ه. ينظر: المحبي، خلاصة الأثر، ج ٢، ص ٣٨.

٧. ملا خسرو، درر الحكام، ج ١، ص ٢٩٧.

٨. الشيخ الفاضل أحمد بن عمر الإسقاطي أبو السعود المصري، نحوي فقيه، عارف بالتجويد، من القاهرة. من مؤلفاته: تنوير الحالك على منهج السالك، وشرح ملا مسكين، وشرح ابن عقيل وغيرها. توفي سنة ١١٥٩ه. ينظر: الكملائي، البدور المضية، ج٣، ص١١٧.

٩. ذكر الجبرتي: إنه سعودي بن إسكندر من فقهاء الحنفية. ينظر: عجائب الآثار، ج ٢، ص ٥٦٧.

١٠. الأوسية: هي الأراضي التي مُنحت لكبار موظفي الدولة لزراعتها، حتى أصبحت ضياعًا خاصة بهم، في حياتهم وتورث عنهم بعد موتهم. ينظر: عبد الرحمن، الريف المصري، ص ٦٩.

١١. رشيد: بفتح أوله، وكسر ثانيه، بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٥.

١٢. الصعيد: بالفتح ثم الكسر، بلاد واسعة كبيرة فيها عدة مدن عظام منها أسوان، وهي أوله من ناحية الجنوب، ثم قوص وقفط وإخميم والبهنسا وغير ذلك. ينظر: ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٨.

حين الصحابة إلى الآن، وكذا أقطار مصر، والأمر المتواتر لا يعارضه غيره».

قال في الأشباه[١] القاعدة الثالثة: «اليقين لا يزول بالشك[٢]. أي لا يرفع حكم اليقين السابق بطرًا والشك عليه[٣]. فعدم انقراضهم عن آخرهم مقطوع، فثبت حكمه، وهو أن الأراضي المصرية مملوكة لأصحابها، وتُورث عنهم، ولا يزول ذلك بطرًا والشك، وهو أن الموت استأصلهم جميعًا».

قال القاضي[٤]: «إن المولود في دار الإسلام لا يخلو عن الوارث» انتهى[٥].

ويحتمل إنه مدسوس عليه؛ لأنه كان من أجلاء المحققين، ومقامه يأبى نسبة ذلك إليه لأنه مخالف لمذهب الإمام وأصحابه وللمتواتر عن بقية الأئمة؛ لأنه لم يُنقل عن علمائهم أصلاً، فتعين حمل كلام فتح القدير على طين الأوسية، أو مدسوس عليه. وهذا هو الحق وما قيل خلافه لا يُعَوَّل عليه والله تعالى أعلم بالصواب.

مصادر ومراجع التحقيق

أولاً: المخطوطات:

التمرتاشي، أحمد بن إسماعيل (ت:٦١٠هـ).

١. شرح الجامع الصغير، مكتبة عاشر أفندي، رقم ٧٥٤.

السُّحيميّ، أحمد بن محمد (ت:١١٧٨هـ).

٢. الوضوح شرح النصوح، المكتبة الأزهرية، ٢٦٥ فقه حنفي، ٥٤٣٠.

الحاكم الشهيد، محمد بن محمد بن أحمد (ت:٣٣٤هـ).

٣. الكافي، نسخة مكتبة مليل رقم ٩٩٣.

ثانيًا: المصادر:

الإتقاني، أمير كاتب بن أمير علي (ت:٧٥٨هـ).

٤. غاية البيان نادرة الزمان في آخر الأوان، (الكويت، دار الضياء، ٢٠٢٣).

ابن الأثير، المبارك بن محمد (ت:٦٠٦هـ).

٥. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد ومحمود محمد(القاهرة، المكتبة الإسلامية،

١. الأشباه والنظائر لابن نجيم من أشهر مؤلفات الحنفية في أصول الفقه وقواعده. نال الكتاب من الشهرة والقبول لدى الحنفية مال ينله كتاب آخر في هذا الفن، فقد عكف عليه علماء الحنفية عليه تدريسًا وشرحًا وتعليقًا. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي، ج ٢، ص ٦٨٢.

٢. ابن نجيم، الاشباه والنظائر، ص ٤٧.

٣. الحموي، غمز عيون البصائر، ج ١، ص ١٩٣.

٤. يقصد أبو يوسف القاضي. ينظر: النقيب، المذهب الحنفي،، ج ١، ص ٦٢.

٥. السغناقي، النهاية، ج ١٢، ص ٦٠. الزيلعي، تبيين الحقائق، ج ٣، ص ٢٧١.

١٩٦٣).

الأوزجندي، الحسن بن منصور (ت:٥٩٢).

٦. فتاوى قاضي خان، اعتناء: سالم مصطفى (بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٩).

البابرتي، محمد بن محمد (ت:٧٨٦ه).

٧. العناية شرح الهداية (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د.ت).

البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت:٢٥٦ه).

٨. صحيح البخاري، مراجعة: د.مصطفى ديب (بيروت، دار ابن كثير،١٩٨٧).

البرهانبوري، الشيخ نظام الدين (ت: ق ١٢ه).

٩. الفتاوى الهندية (بيروت، دار الكتب العلمية،٢٠٠٠).

البعلي، محمد بن أبي الفتح (ت:٧٠٩ه).

١٠ المطلع على أبواب المقنع، تحقيق: محمد بشير (بيروت، المكتب الإسلامي،١٩٨١).

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت:٢٧٩ه).

١١. فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد (بيروت، دار الكتب العلمية،١٤٠٣هـ).

البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (ت:٤٥٨ه).

١٢. السنن الكبرى (بيروت، دار الفكر، د.ت).

التمرتاشي، محمد بن عبد الله (ت:١٠٠٤ه).

١٣. تنوير الأبصار وجامع البحار، تحقيق: عبد المنعم جليل (بيروت، دار الكتب العلمية،٢٠٠٢).

الجبرتي، عبد الرحمن بن حسين (ت:١٢٣٧ه).

١٤. عجائب الآثار في التراجم والأخبار (بيروت، دار الجيل، د.ت).

الجرجاني، علي بن محمد (ت:٨١٦ه).

١٥. شرح السراجية (القاهرة، مطبعة الاعتماد، د.ت).

ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت:٥٩٧ه).

١٦. صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخوري ود.محمد راوس قلعجي (بيروت، دار المعرفة،١٩٧٩)

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت:١٠٦٧ه).

١٧. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون(بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت).

ابن حجر، أحمد بن علي (ت:٨٥٢ه).

١٨. تهذيب التهذيب (بيروت، دار الفكر،١٩٨٤).

الحموي، أحمد بن محمد (ت:١٠٩٨ه).

١٩. غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٨٦).

الدسوقي، محمد بن أحمد بن عرفة (ت:١٢٣٠ه).

٢٠. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير(القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ت).

الذهبي، محمد بن أحمد (ت:٧٤٨ه).

٢١. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د.عمر عبد السلام (بيروت، دار الكتاب العربي،١٩٨٧).

٢٢. سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارناؤوط (بيروت، مؤسسة الرسالة،١٩٨٣).

ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (ت:٧٩٥ه).

٢٣. الاستخراج لأحكام الخراج، تحقيق: أحمد محمد(بيروت، دار المعرفة،١٩٧٩).

الرملي، محمد بن أحمد (ت:١٠٠٤ه).

٢٤. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،١٩٣٨).

الرملي، أحمد بن علي بن عبد الوهاب (ت:١٠٨١ه).

٢٥. الفتاوى الخيرية لنفع البرية(القاهرة، المطبعة الأميرية الكبرى،١٣٠٠ه).

الزيلعي، عثمان بن علي (ت:٧٤٢ه).

٢٦. تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق(القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية،١٩٩٠).

السغناقي، حسين بن علي (ت:٧١٤ه).

٢٧. النهاية شرح الهداية، تحقيق: مجموعة من الباحثين، (الرياض،١٤٣٦ه).

السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت:٥٦٢ه).

٢٨. الأنساب، علق عليه: عبد الله عمر (بيروت، دار الجنان،١٩٨٨).

الشربيني، محمد بن أحمد (ت:٩٧٧ه).

٢٩. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي،١٩٥٨)

الشلبي، أحمد بن محمد (ت:١٠٢١ه).

٣٠. حاشية الشلبي على تبيين الحقائق(القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية،١٩٩٠).

ابن عابدين، محمد أمين بن عمر (ت:١٢٥٢ه).

٣١. رد المحتار على الدر المختار (بيروت، دار الفكر،١٩٧٩).

٣٢. رسم المفتي (كراتشي، مكتبة مير محمد، د.ت).

أبو عبيد، القاسم بن سلام (ت:٢٢٤ه).

٣٣. الأموال، تحقيق: محمد خليل هراس (بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٨٦).

العيني، محمود بن أحمد (ت:٨٥٥ه).

٣٤. البناية شرح الهداية (بيروت، دار الكتب العلمية،٢٠٠٠).

ابن قدامة، عبد الله بن محمد بن قدامة (ت:٦٢٠ه).

٣٥. المغني على مختصر الخرقي، تصحيح: محمد رشيد رضا (القاهرة، مطبعة المنار،١٣٤٥ه).

القدوري، أحمد بن محمد (ت:٤٢٨ه).

٣٦. مختصر القدوري، تحقيق: كامل محمد (بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٩٢).

القرشي، عبد القادر بن محمد بن نصر الله (ت:٧٧٥ه).

٣٧. الجواهر المضية في طبقات الحنفية (حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، د.ت)

ابن قطلوبغا، قاسم بن قطلوبغا (ت:٨٧٩ه).

٣٨. تاج التراجم في طبقات الحنفية (بغداد، مطبعة العاني،١٩٦٣).

ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت:٧٧٤ه).

٣٩. البداية والنهاية في التاريخ (بيروت، مكتبة المعارف،١٩٨٨).

ابن مازه، محمود بن محمد (ت:٦١٦ه).

٤٠. المحيط البرهاني في الفقه النعماني، تحقيق: نعيم أشرف (بيروت، مؤسسة نزيه كركي،٢٠٠٤)

الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت:٤٥٠ه).

٤١. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دراسة وتحقيق: د.محمد جاسم الحديثي (بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي،٢٠٠١).

المحبي، محمد أمين بن فضل الله (ت:١١١١ه).

٤٢. خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر(القاهرة، المطبعة الوهبية، د.ت).

المرغيناني، علي بن أبي بكر (ت:٥٣٩هـ).

٤٣. الهداية شرح البداية (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د.ت).

المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف (ت:٧٤٢هـ).

٤٤. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: د.بشار عواد معروف (بيروت، مؤسس الرسالة،١٩٨٥)

ملا خسرو، محمد بن فراموز (ت:٨٨٥هـ).

٤٥. درر الحكام في شرح غرر الأحكام (القاهرة، المطبعة الشرقية،١٩٦٦).

المنبجي، علي بن زكريا (ت:٦٨٦هـ).

٤٦. اللباب في الجمع بين السنة والكتاب، تحقيق: د.محمد فضل (بيروت، دار القلم، د.ت).

ابن مودود، عبد الله بن محمود (ت:٦٨٣هـ).

٤٧. الإختيار لتعليل المختار، علق عليه: محمود أبو دقيقة (بيروت، دار المعرفة، د.ت).

٤٨. المختار للفتوى، تحقيق: د.سائد بكداش (بيروت، دار البشائر الإسلامية،٢٠١٢).

ابن نجيم، زين الدين بن إبراهيم بن محمد (ت:٩٧٠هـ).

٤٩. البحر الرائق شرح كنز الدقائق (بيروت، دار المعرفة، د.ت).

٥٠. التحفة المرضية في الأراضـي المصرية، تحقيق: د.مقتدر حمدان الكبيسي (عمان، دار آمنة،٢٠٢٢).

٥١. الأشباه والنظائر (بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٨٠).

ابن نجيم، عمر بن إبراهيم (ت:١٠٠٥هـ).

٥٢. النهر الفائق شرح كنز الدقائق، تحقيق: أحمد عز (بيروت، دار الكتب العلمية،٢٠٠٢).

النسفي، عبد الله بن أحمد (ت:٧١٠هـ).

٥٣. كنز الدقائق، تحقيق: د. سائد بكداش (بيروت، دار البشائر الإسلامية،٢٠١٩).

ابن الهمام، محمد بن عبد الواحد (ت:٨٦١هـ).

٥٤. فتح القدير للعاجز الفقير (القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، د.ت).

ياقوت، ياقوت بن عبد الله (ت:٦٢٦هـ).

٥٥. معجم البلدان (بيروت، دار إحياء التراث العربي،١٩٧٩).

أبو يعلى، محمد بن الحسين (ت:٤٥٨هـ).

٥٦. الأحكام السلطانية، صححه: محمد حامد الفقي (بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٨٣).

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم بن حبيب (ت:١٨٢ه).

٥٧. الخراج، تحقيق: أحمد محمد شاكر (بيروت، دار المعرفة،١٩٧٩).

ثالثًا: المراجع:

البغدادي، إسماعيل بن محمد بن سليم.

٥٨. إيضاح المكنون عن أسامي الكتب والفنون (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت).

٥٩. هدية العارفين إلى أسماء المصنفين وآثار المؤلفين (بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت).

البيطار، عبد الرزاق.

٦٠. حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، تحقيق: محمد بهجت (دمشق، مجمع اللغة العربية،١٩٦١).

الزركلي، خير الدين محمود.

٦١. الأعلام (بيروت، دار العلم للملايين،١٩٨٠).

عبد الرحمن، عبد الرحيم (الدكتور).

٦٢. الريف المصري في القرن الثامن عشر (القاهرة، مكتبة مدبولي،١٩٨٦).

قره بلوط، علي الرضا وأحمد طوران قره بلوط.

٦٣. معجم التاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم (ت:ركيا، دار العقبة، د.ت).

الكبيسي، حمدان عبد المجيد (الدكتور).

٦٤. الخراج أحكامه ومقاديره (بغداد، دار الحكمة للطباعة والنشر،١٩٩١).

٦٥. في الفكر الاقتصادي الإسلامي حقائق وآفاق ومعالجات (بغداد، مركز البحوث والدراسات،٢٠١٤)

الكملائي، محمد حفظ الرحمن بن محب الرحمن.

٦٦. البدور المضية في تراجم الحنفية (القاهرة، دار الصالح،٢٠١٧).

اللكنوي، عبد الحي بن محمد.

٦٧. الفوائد البهية في تراجم الحنفية (القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، د.ت).

المرعشلي، يوسف عبد الله (الدكتور).

٦٨. معجم المعاجم والمشيخات والفهارس والبرامج والأثبات (الرياض، مكتبة الرشد،٢٠٠٢).

النقيب، أحمد بن محمد.

٦٩. المذهب الحنفي (الرياض، مكتبة الرشد،٢٠٠١).

نويهض، عادل.

٧٠. معجم المفسرين (بيروت، مؤسسة نويهض الثقافية،١٩٨٨).

7. Manaqib Abi Kharija ‘Anbasa ibn Kharija Al-Ghafiqi Al-Safaqsi, authored by: Mahmoud ibn Muhammad ibn Al-Hajj Muhammad Al-Siyala Al-Safaqsi

Study and verification: Dr. Anis Abdullah ibn Ahmad, Tunisia

The research was divided into two parts: a part for studying the personal and scholarly biographies of both the author of the manuscript and the subject of the manaqib, and a part for studying and editing the text. Each part has two sections. As for the first part, one section is for studying the subject of the manaqib: ‘Anbasa, and another for the author of the manuscript: Mahmoud Al-Siyala. As for the sections of the second part, the first is devoted to studying the author’s method and the cognitive content of the manuscript text, and the second to describing and editing the manuscript text.

Its importance is confirmed by the fact that it is the only means of introducing an obscure author for whom neither his contemporaries nor the historians who followed them wrote a biography. This is the case of Mahmoud Al-Siyala, who was not known until six decades ago. His heritage still remains on the shelves, as researchers have verified only one text of his many manuscripts before this study, some thirty years ago. This concerns the author. As for the subject of the manaqib, namely ‘Anbasa, the importance of studying him is summarized in what Abu Nasr Bishr Al-Hafi (d. 227 AH/842 CE) said: “It is among the adornments of this world that a man says: Malik narrated to us.” (See Tartib Al-Madarik: 2/35). And ‘Anbasa, may God have mercy on him, used to say: “Malik narrated to us”.

8. The Marḍiyya Texts in Verifying the Hanafi School’s Rulings on Lands in Egyptian Territories, authored by the eminent scholar: Muhammad ibn Ahmad Al-Suhaymi (d. 1201 AH)

Verified by: Prof. Dr. Muqtadir Hamdan Abdul Majeed Al-Kubaisi, Iraq

This treatise, as the author stated, addresses the texts of Hanafi jurists relating to the subject of lands in terms of ownership and the financial obligations attached to them. Sheikh Al-Suhaymi also noticed a discrepancy regarding the attribution of these lands — whether they belong to the public treasury or to their owners. He selected the foremost books of Hanafi jurisprudence and extracted from them ten texts specifically concerning lands and their ownership.

The importance of verifying it: it has not been verified before, and the author excelled in selecting the books and in selecting the texts that are the focus of his treatise. Moreover, the subject of the treatise falls within my precise specialization, in which I have verified more than fifteen manuscripts that had not been verified before, in the same specialization, and one of these manuscripts was printed by the Juma Al Majid Center.

renovation of the Two Noble Sanctuaries alone; rather, it extended to the historic and sacred mosques in Mecca and Medina, through their construction, maintenance, and the allocation of sufficient funds for this purpose.

Accordingly, Masjid Al-Khayf received care and attention from the caliphs, sultans, and prominent notables in various Islamic eras, and renovations and renewals followed one after another, due to its virtue and its importance in the performance of the rites by pilgrims during the Hajj season.

The mosque witnessed extensive construction during the era of the Mamluk sultans, especially during the reign of Sultan Al-Ashraf Qaitbay (872–901 AH/1468–1496 CE). This patronage helped the mosque fulfill its religious and scholarly role, as a large number of scholars stayed there.

5. Internal Factors in Mathematics That Led to the Decline of Its Development in the Late Arab-Islamic Civilization

Ahmed Muhammad Jawad Al-Hakim, Iraq

Arab-Islamic civilization witnessed a golden age of scientific prosperity, in which mathematics had a abundant share, as Arab and Muslim scholars made great contributions to its fundamental branches such as arithmetic, geometry, algebra, and trigonometry. However, this prosperity did not continue at the same pace, and the glow of Arab mathematics began to decline during the later ages, starting from the fifteenth century CE or before (there is disagreement on this, as we shall see later). This decline was the result of the intertwining of a set of complex factors, some stemming from the very core of the scientific milieu of mathematics itself, others linked to the political, social, and economic transformations that swept the Islamic world at that time, and still others related to the extent of the interest of rulers, governors, and the like in patronizing science and scholars. However, in this study, we will not address all these issues; rather, we will investigate the internal factors and challenges inherent in the scientific practice of mathematics itself, meaning its content and structure, which negatively affected its ability to develop and innovate. Among the most important of these are the shift from innovation to imitation and repetition, the spread of the phenomenon of commentary, abbreviation, and summarization, the avoidance of using decimal numeral symbols, the continued use of hisāb al-jummal (alphabetic numerology) even after the emergence of decimal numeral symbols, excessive expansion in dealing with arithmetic fractions, the lack of an effective system for symbolic expression, exaggeration in examining the abstract theoretical aspects of numbers, the absence of names that abbreviate the repetition of certain algebraic and arithmetic terms, and the tendency toward poetic compositions to preserve the laws of mathematics. These are the main axes of this study, which we will begin with some fundamental topics.

6. A Foundational Case in the Science of Text Verification: “Nayl Al-Sa’adat fi Tahqiq Al-Maqulat” by Al-Bulaydi (d. 1176 AH) as a Model

Dr. Yahya Zakariya Muhammad, Al-Azhar Al-Sharif Sheikhdom, Egypt

“Nayl Al-Sa’adat fi Tahqiq Al-Maqulat” by Sayyid Muhammad ibn Muhammad Al-Bulaydi, who died in 1176 AH, is a book on “the study of philosophical categories.” This research relates to the foundational analysis of a complex textual case involving a later intervention in the author’s text — a subject rarely addressed in textual criticism studies. The research presents an applied model for repairing texts after the author, relying on a large corpus of manuscripts of the text, reaching 32 manuscript copies, and also drawing on evidence external to the text, whether related to the text’s external features or the works written on the text as marginalia and commentary. This research is the fruit of verifying the book.

Abstracts of Articles

1. Pilgrimage and the Portuguese Attacks on Pilgrim Caravans: The Malabar Massacre of 1502 CE as a Model

Dr. Muhammad Ali Al-Wafi Karuthel, Kerala/India

History has proven that human civilization has only flourished to the rhythm of successive journeys, ever since the first human set his first step outside Paradise, which was the beginning of an uninterrupted march. Since then, his descendants have continued along the paths of travel, carving their way between lands, so that through these journeys man may fashion a more refined and civilized human being, and one deeper in awareness and culture. And because travel and wandering have such a profound impact on man's journey, the Wise Lawgiver — glorified and exalted be He — made pilgrimage to the Ancient House an obligation upon every nation. This obligation is distinguished from all other religious duties by the fact that it is required only once in a lifetime, and thus it stands in the place of a lifetime's worship. However, this obligation is not complete except with the availability of a set of conditions, without which the duty is not fulfilled for a Muslim. This study addresses a painful event in the history of the journeys of Indian Muslims to Mecca to perform the rites of pilgrimage.

2. Intangible Cultural Heritage in Morocco: Traditional Handicrafts as a Model

Dr. Said Al-Ash'ari, Morocco

Intangible cultural heritage, also called "living heritage," refers to the sum of customs, traditions, practices, arts, knowledge, and beliefs belonging to a particular group of people, distinguished by cultural, social, historical, and emotional significance. This heritage includes a number of cultural patterns transmitted from one generation to the next, including languages, poetry, music, dance, traditional games, festivals, rituals, religious practices, handicrafts, traditional cooking, traditional foods and beverages, clothing, jewelry, architectural arts, decorations, oral tales and legends, and scientific, medical, agricultural, environmental, and folkloric heritage.

3. The Phenomenon of Endowing Books (Taḥbīs) in the Eastern Region of the Kingdom of Morocco: Figuig as a Model

Prepared by: Muhammad Bouziane Benali - Morocco

It is no longer hidden from anyone engaged in reading the history of Morocco in general and the Eastern Region in particular that the oasis of Figuig, located in the far east of Morocco on the border with sisterly Algeria, had deep roots in knowledge and thought extending back centuries, before Imam Sidi Abdul Jabbar ibn Ahmad Al-Figigi reinforced and strengthened it in the middle of the ninth century AH/15th century CE, secured for it the means of continuity until shortly before the French Protectorate, and made it a thriving cultural center in which jurisprudence, literature, poetry, history, Sufism, and various arts and sciences circulated throughout the Islamic world.

4. Masjid Al-Khayf and Its Development During the Mamluk Era (648–923 AH/1250–1517 CE)

Dr. Reda El-Saeed Ibrahim Muhammad, Egypt

The Mamluk sultans were keen on building and repairing mosques, and they endowed many waqfs for their restoration and administration, in an attempt to imbue their sultanate with a legitimate religious character. The interest and patronage of the Mamluk sultans were not limited to the construction and

INDEX

Editorial

The Asafia Library in Hyderabad, Telangana, India
Managing Editor
Dr. Azzeddine Ben Zeghiba 4

Researches Titles:

Pilgrimage and the Portuguese Attacks on Pilgrim Caravans: The Malabar Massacre of 1502 CE as a Model
Dr. Muhammad Ali Al-Wafi Karuthel 6

Intangible Cultural Heritage in Morocco: Traditional Handicrafts as a Model
Dr. Said Al-Ash'ari, Morocco 21

The Phenomenon of Endowing Books (Taḥbīs) in the Eastern Region of the Kingdom of Morocco: Figuig as a Model
Prepared by: Muhammad Bouziane Benali 42

Masjid Al-Khayf and Its Development During the Mamluk Era (648–923 AH/1250–1517 CE)
Dr. Reda El-Saeed Ibrahim Muhammad, Egypt 59

Internal Factors in Mathematics That Led to the Decline of Its Development in the Late Arab-Islamic Civilization
Ahmed Muhammad Jawad Al-Hakim, Iraq 80

A Foundational Case in the Science of Text Verification: "Nayl Al-Sa'adat fi Tahqiq Al-Maqulat" by Al-Bulaydi (d. 1176 AH) as a Model
Dr. Yahya Zakariya Muhammad, Al-Azhar Al-Sharif Sheikhdom, Egypt 122

Manuscripts' Verification

Manaqib Abi Kharija 'Anbasa ibn Kharija Al-Ghafiqi Al-Safaqsi, authored by: Mahmoud ibn Muhammad ibn Al-Hajj Muhammad Al-Siyala Al-Safaqsi.
Study and verification: Dr. Anis Abdullah ibn Ahmad, Tunisia 135

The Marḍiyya Texts in Verifying the Hanafi School's Rulings on Lands in Egyptian Territories, authored by the eminent scholar: Muhammad ibn Ahmad Al-Suhaymi (d. 1201 AH)
Edited by: Prof. Dr. Muqtadir Hamdan Abdul-Majid Al-Kubaisi 177

Abstracts 206

ʾĀfāq Al Thaqāfah Wa'l-Turāth

A Scientific Refereed Quarterly Journal

Published by:
The Department of Studies,
Publications and Foreign Affairs
Juma Al Majid Center
for Culture and Heritage
Dubai - UAE - P.O. Box: 55156
Tel.:+971 4 6084220
Email: info.center@al-majid.com
Website: www.almajidcenter.org

Volume 35: No. 135 - Rabiʿ al-Thānī - 1448 A.H. - June 2026

INTERNATIONAL RECORD NUMBER

ISSN 1607 - 2081

This Journal is listed in the "Ulrich's International Periodicals Directory" under record No. 349378

EDITORIAL BOARD

EDITING DIRECTOR
Dr. Azzeddine Benzeghiba

EDITING SECRETARY
Mohamad Abdul Hakeem Al Anees

EDITORIAL BOARD
Dr. Muhammad Ahmad Al Qurashi
Dr. Fekry Abdelmonem Elnagar
Dr. Mohamed Vadel El hattab

ANNUAL SUBSCRIPTION RATE

	U.A.E.	Other Countries
Institutions	100 Dhs.	150 Dhs.
Individuals	70 Dhs.	100 Dhs.
Students	40 Dhs.	75 Dhs.

Articles in this magazine represent the views of their authors and do not necessarily reflect those of the center or the magazine, or their officers.

الشروط الخاصة بنشر كتب محكمة ضمن سلسلة آفاق الثقافة والتراث

١ – أن يكون الموضوع المطروق متميّزًا بالجدّة والموضوعية والشمول والإثراء المعرفي، وأن يتناول أحد أمرين:

- قضية ثقافية معاصرة، يعود بحثها بالفائدة على الثقافة العربية والإسلامية، وتسهم في تجاوز المشكلات الثقافية.
- قضية تراثية علمية، تسهم في تنمية الزاد الفكري والمعرفي لدى الإنسان العربي المسلم، وتثري الثقافة العربية والإسلامية بالجديد.

٢ – ألاّ يكون الكتاب جزءًا من رسالة الماجستير أو الدكتوراه التي أعدّها الباحث، وألاّ يكون قد سبق نشره على أيّ نحوٍّ كان، ويشمل ذلك الكتب المقدمة للنشر إلى جهة أخرى، أو تلك التي سبق تقديمها للجامعات أو الندوات العلمية وغيرها، ويثبت ذلك بإقرار بخط الباحث وتوقيعه.

٣ – يجب أن يُراعى في الكتب المتضمنة لنصوصٍ شرعية ضبطها بالشكل مع الدقّة في الكتابة، وعزو الآيات القرآنية، وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة.

٤ – يجب أن يكون الكتاب سليمًا خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية، مع مراعاة علامات الترقيم المتعارف عليها في الأسلوب العربي، وضبط الكلمات التي تحتاج إلى ضبط.

٥ – يجب اتّباع المنهج العلمي من حيث الإحاطة، والاستقصاء، والاعتماد على المصادر الأصيلة، والإسناد، والتوثيق، والحواشي، والمصادر، والمراجع، وغير ذلك من القواعد المرعية في البحوث العلمية، مع مراعاة أن تكون مراجع كلّ صفحة وحواشيها أسفلها.

٦ – بيان المصادر والمراجع العلمية ومؤلفيها في نهاية كلّ كتاب مرتبة ترتيبًا هجائيًّا تبعًا للعنوان، مع بيان جهة النشر وتاريخه.

٧ – أن يكون الكتاب مجموعًا بالحاسوب، أو مرقونًا بالآلة الكاتبة، أو بخط واضح، وأن تكون الكتابة على وجهٍ واحد من الورقة.

٨ – على الباحث أن يرفق ببحثه نبذة مختصرة عن حياته العلميّة، مبيّنًا اسمه الثلاثي ودرجته العلمية، ووظيفته، ومكان عمله من قسم وكلية وجامعة، إضافةً إلى عنوانه، وصورة شخصية ملونة حديثة.

٩ – يمكن أن يكون الكتاب تحقيقًا لمخطوطة تراثية، وفي هذه الحالة تتبع القواعد العلمية المعروفة في تحقيق التراث، وترفق بالكتاب صور من نسخ المخطوط المحقّق الخطيّة المعتمدة في التحقيق.

١٠ – أن لا يقل الكتاب عن مئة صفحة ولا يزيد عن مئتين.

١١ – تخضع الكتب المقدمة للتقويم والتحكيم حسب القواعد والضوابط التي يلتزم بها، ويقوم بها كبار العلماء والمختصين، قصد الارتقاء بالبحث العلمي خدمةً للأمّة ورفعًا لشأنها، ومن تلك القواعد عدم معرفة المحكمين أسماء الباحثين، وعدم معرفة الباحثين أسماء المحكمين، سواء وافق المحكمون على نشر البحوث من غير تعديل أو أبدوا بعض الملاحظات عليها، أو رأوا عدم صلاحيتها للنشر.

ملاحظات

١ – ما ينشر في هذه السلسلة من آراء يعبّر عن فكر أصحابها، ولا يمثّل رأي الناشر أو اتجاهه.

٢ – لا تُردّ الكتب المرسلة إلى أصحابها، سواءً نشرت أو لم تنشر.

٣ – لا يجوز للباحث أن يطلب عدم نشر كتابه بعد عرضه على التحكيم إلاّ لأسباب تقتنع بها اللجنة المشرفة على إصدار السلسلة، وذلك قبل إشعاره بقبول كتابه للنشر.

٤ – يُستبعد أيّ كتاب مخالف للشروط المذكورة.

٥ – يدفع المركز مكافآت مقابل الكتب المنشورة وثلاثين نسخة من الكتاب المطبوع.

١٣٥

Āfāq Al-Thaqāfah Wa'l-Turāth

A Scientific Refereed Quarterly Journal

Juma Al Majid Center for Culture and Heritage - Dubai

آفاق الثقافة والتراث — السنة الخامسة والثلاثون: العدد مائة وخمسة وثلاثون - ربيع الثاني ١٤٤٨هـ/ أكتوبر ٢٠٢٦م

Volume 35: No. 135 - Rabiʿ al-Thānī - 1448 A.H. - June 2026



الواضح في تفسير القرآن

المؤلف: الدينوري : عبد الله بن محمد (المبارك) بن وهب , ٣٠٨ هـ

تاريخ النسخ: الثلاثاء ٢ ذي الحجة ١٠٧٤ هـ، المصدر: أحمد الثالث، عدد الأوراق: ٣٦٣

Title: Al-Wāḍiḥ fī Tafsīr al-Qurʾān

Author: Al-Dīnawarī: ʿAbd Allāh ibn Muḥammad (al-Mubārak) ibn Wahb, Abū Muḥammad, 308 AH

Published by:
Department of Studies, Publications and Foreign Affairs
Juma Al Majid Center for Culture and Heritage